فكر علمي ... ثقافة تقدمية

# الثقافة الجديدة

428

كانون الثاني 2022

**مقالات**
حسام الدين فياض
هاشم نعمة
محمد الكحط
علي مهدي
لطفي حاتم
ابراهيم خليل العلاف

**نصوص قديمة**
دولوريس ايباروري
(رئيسة الحزب الشيوعي الاسباني)

**نصوص مترجمة**
أليكس ديمير وفيتش

**حوارات**
حوار مع الدكتور حيدر سعيد

**أدب وفن**
حسب الله يحيى
مؤيد جواد الطلال
علي شبيب ورد
ياسين طه حافظ
علي ابراهيم
غزلان هاشمي
نجم حيدر
جبار صبري
شكيب كاظم
سلام حربه
ليث الصندوق
سعد جاسم
محمود سعيد
عقيل مهدي

# التقافة الجديدة

**فكر علمي - ثقافة تقدمية**
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

**المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها**

العدد: 428
كانون الثاني: 2022

**يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:**
hassab1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

| بالدينار: | بالدولار: |
| --- | --- |
| مجلة الثقافة الجديدة | Althakafa Aljadida Magazine |
| مصرف المنصور للاستثمار – بغداد | Mansour Bank for Investment- Baghdad |
| رقم الحساب: 11153 | Account No:30721 |
| سويفت كود: MBIVIQBA | SWIFT CODE: MBIVIQBA |

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

**دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان**

# محتويات العدد

5- كلمة العدد

## مقالات

8- نظرية علم المجتمع الكلاسيكية عند كارل ماركس ..... حسام الدين فياض
17- اللاجئون العراقيون في أوروبا: تحليل مقارن ..... هاشم نعمة
34- في أسباب انحسار انتفاضة تشرين ..... محمد الكحط
41- تأثير الدولة القومية على العلاقات العربية والكردية ..... علي مهدي
51- الدولة العراقية وتناقضات بنيتها السياسية..... لطفي حاتم
55- المدونات التاريخية والنصب التذكارية ودورها في تجسيد الرمزية الوطنية
والقومية والانسانية ..... ابراهيم خليل العلاف

## نصوص قديمة

60- معينُ أملٍ لا ينضب لـ دولوريس ايباروري (رئيسة الحزب الشيوعي الاسباني)

## نصوص مترجمة

66- السكان والسياسات الطبقية، بقلم: أليكس ديميروفيتش ..... ترجمة رشيد غويلب

## حوارات

80- (الثقافة الجديدة) تحاور الدكتور حيدر سعيد ..... حاوره : سوران قحطان

# أدب وفن

98- فاتحة عام جديد ..... حسب الله يحيى
100- لماذا كان الفن الإغريقي مصدراً للمتعة والجمال؟..... مؤيد جواد الطلال
111- (حانة الحكمة) ،كولاج تأويل مدونات أدب العراق القديم ..... علي شبيب ورد
117- التجارة والاستهلاك...ومسألة الثقافة ..... ياسين طه حافظ
122- رواية (حصار العنكبوت) لكريم كطافة - في ضوء الأنساق الثقافية ..... علي ابراهيم
127- السرد المضاد للتاريخ في رواية الديوان الاسبرطي ..... غزلان هاشمي
135- تحولات الفكر الميتافيزيقي الجمالي ..... نجم حيدر
138- (بوق اسرافيل): نداء النشور، تكرار الرؤيا ..... جبار صبري
142- محمد خضير في مثابات شاخصة بعالم السرد والكتابة ..... شكيب كاظم
146- (قصة) علامة تجارية ..... سلام حربه
151- رسالة من وضّاحِ اليمن إلى الخليفة الوليد ..... ليث الصندوق
153- حلم ... أَمْ كابوس ؟ ..... سعد جاسم
156- المناضل الجزائري ياسف سعدي: الخباز الذي قاد ثورة الاستقلال ..... محمود سعيد
158- (ازادوهي .. وادوار الأمومة في المسرح ) ..... عقيل مهدي

**لوحتا غلافي العدد للفنان منصور البكري**

# غرّة عام آخر .. و فجر أمل يتجدد!

مع صدور هذا العدد (428)، يكون العراقيون قد طووا، منذ أيام، آخر صفحات السنة الماضية (2021). وها هم يشرعون فعلا، في المساهمة بكتابة أولى صفحات العام الجديد. يحدوهم الأمل من صميم قلوبهم، ان يكون هذا العام، بعكس سابقاته، عامَ خير ومسرات وتفاؤل. ولأن قطاعات واسعة منهم تدرك انها ستساهم في صناعة عامها الجديد، فإن المساهمة هذه لا تأتي على هواهم، بل في ظل ظروف واجواء وملابسات معاطاة لهم، ولا يختارونها بأنفسهم. وان هذه الارضية يمكن تلمس بعض من معالمها الكبرى على أفضل وجه في احداث ووقائع السنة الماضية؛ بغية الاستفادة من دروسها وتجاربها، خصوصا وان قسما كبيرا منها يعكس مدى تطور مساهمة جميع الأطراف في انتاجها.

إنّ أحد اهم معالم السنة المنصرمة، يتمثل بالتدهور المتفاقم للأحوال المعيشية للناس، وازدياد معدلات البطالة والفقر والتهميش، وارتفاع معدلات التضخم ما تسبب في ارتفاع أسعار السلع الأساسية، وما تركته من آثار مدمرة. وقد طالت المظالم هذه المرّة فئات وشرائح اجتماعية جديدة. وغدت هذه حقيقة واضحة، ولا تحتاج الى احصائيات رسمية او دولية لإعلانها، ولا ينكرها إلا "رجالات السلطة" ومدّاحيها. وقد جاء هذا التدهور الاقتصادي المتسارع في جزء غير قليل منه، محصلة للإجراءات الاقتصادية "الإصلاحية" التقشفية التي تمت صياغة بعضها في "الورقة البيضاء"، والتي استهلت اولى خطواتها بعملية خفض قيمة الدينار مقابل الدولار.

ولا يمكن إدراك عظم الكارثة المجتمعية في سنة 2021 الا بإضافة واقع المؤسسات الصحية والتعليمية. فقد مثلت حرائق المستشفيات الحكومية، التي راح ضحيتها عشرات العراقيين، أكبر مآسيها، حيث اكدت هذه الكوارث، استمرار انهيار القطاع الصحي في العراق، والإهمال وسوء أوضاع مؤسساته وهشاشة الخدمات التي تقدمها، وتقادم بناها التحتية. يضاف الى ذلك استمرار سوء إدارة ملف أزمة وباء كورونا. أما التعليم فمأساة أخرى. فلا شيء يكافئ الانتشار المتسارع للأميّة إلا الزحف المتعاظم للأمية "المقنّعة" بمختلف اشكالها بين غالبية الفئات المتعلمة. وفي الوقت الذي ما زال قانون أسس معادلة الشهادات سيئ الصيت الذي اقره البرلمان السابق يثير حفيظة ورفض المختصين والأكاديميين لما سيتسبب به من تدهور إضافي في المنظومة التعليمية؛ جاءت فضيحة شراء آلاف الشهادات الجامعية من بعض الجامعات اللبنانية، والتي تورط فيها العديد من الشخصيات البارزة من وزراء وأعضاء مجلس النواب ومسؤولين في مناصب رسمية حساسة. والمصيبة الأكبر ان ردود الفعل الرسمية حول هذه الفضيحة اتسمت، كالعادة، باللامبالاة وبالبرودة. كما ان الإجراءات التي اتخذت كانت خجولة ودون المستوى المطلوب، غالباً، بسبب "الرموز" المتورطة.

بالإضافة الى ذلك، كانت الحيثيات والظروف التي تسببت في انحسار او خفوت الحركة الاحتجاجية والمطلبية في عموم البلاد، والتي بلغت اقصاها في انتفاضة تشرين، واحدة من أبرز

معالم السنة الماضية أيضا. على الرغم من ان الأسباب والظروف والعوامل التي تسببت بها ما زالت قائمة، بل وحتى في تفاقم مستمر. ومن معالمها أيضا، اجراء الانتخابات البرلمانية المبكرة، وما رافقها من ملابسات أخّرت مصادقة المحكمة الاتحادية على نتائجها لما يقارب ثلاثة أشهر تقريبا، ما أدى الى تأخر عقد الجلسة الأولى لمجلس النواب الجديد.

وبعيدا عن الدخول في تفاصيل الاحداث السياسية، من حيثيات ونتائج العملية الانتخابية، ودون التركيز على اسباب انحسار موجات الحركة الاحتجاجية، وخبو صوتها - فكلاهما بكل وقائعهما مجرد تمظهرات ملموسة للازمة المركبة التي تمر بها البلاد؛ فإنه يمكن ايجاز المحصلة الفعلية للسنة الماضية بالتالي: ان الصراعات متعددة المستويات على شكل ومضمون عملية التحول "الديمقراطي" في العراق دخلت في السنة الفائتة مرحلة جديدة. فمن جهة تعمقَ الفرز والتمايز داخل قوى المحاصصة الطائفية/ الاثنية السياسية، وبينها وبين بعض حواملها الاجتماعية الطبقية من جهة أخرى. تلك القوى التي تسعى الى تأبيد "ديمقراطية" شكلية ومكوناتية، تستطيع بواسطتها تأمين سلطتها وسيادتها ونفوذها ونظام امتيازاتها. غير أن هذا الفرز والتمايز، بغض النظر عن ارتفاع مستوى صراع الخطابات والزعيق السياسي، لم يصل الى درجة التفكك السياسي والاجتماعي. وقد ترافق هذا الفرز مع تنامي عزلة هذه القوى السياسية. وتمظهرت أبرز تجليات هذه العزلة في الانتخابات الأخيرة، متمثلة بمستوى التصويت المتدني لصالح هذه القوى والذي جاء مترافقا مع مقاطعة سياسية ومجتمعية واسعة وعزوف كبير عن المشاركة في الانتخابات. بل وحتى لامبالاة شعبية تجاه نتائج ومآلات الانتخابات.

ومن جهة أخرى، لما كانت الازمة لا تعني عدم استطاعة القوى المهيمنة في المنظومة/ "القديم المحتضر" على إعادة انتاج بنيتها وهياكلها الناظمة بنفس الصياغات السابقة فحسب، وبذات القدرة والكفاءة، وإنما تعني أيضا وبذات الوقت عدم قدرة القوى السياسية والاجتماعية المضادة على إنضاج البديل المطلوب، فـ"الجديد لم يولد بعد". ان هذه القوى الأخيرة سواء كانت قديمة ام ناشئة، وان كانت قد أدركت، بناء على فهمها لدروس الحراك الاحتجاجي والمطلبي عموما ودروس انتفاضة تشرين على وجه الخصوص، ان التغيير الشامل هو الوسيلة والغاية، وان زمن الإصلاح والحلول الترقيعية قد ولى بغير رجعة، فإنها لم تتمكن في السنة المنصرمة من التقاط اللحظة السياسية التاريخية. فما زالت قواها مبعثرة، بل وحتى متصارعة أحيانا، وخطابها السياسي غير واضح، بل ان علاقاتها السياسية مع بعضها البعض ومع الآخرين غير ناضجة.

مع كل ما قيل، فقد وفّرت السنة التي انقضت والسنوات التي سبقتها المساحات الرحبة للعراقيين لكي يساهموا في بناء غد أفضل لهم ولعوائلهم ولبلدهم، بدءا من العام المقبل. وعبّدت دروس وخبرات انتفاضة تشرين والنضالات الاحتجاجية الأخرى الطرق، وفتحت الابواب على مصراعيها امام تنوع اشكال النضال من اجل انجاز التغيير الشامل. وكان اهم الدروس التي استنبطها العراقيون منها ان المساهمة في صناعة الغد لا تأتي ابدا دون صراع مع المضطهدِين، بغية تغيير معادلة السلطة نهائيا لصالحهم. ومع استحالة التشبث بالآليات والأساليب القديمة، فإن المُلح والآني في هذا العام، امام القوى المدنية والديمقراطية، سياسية كانت ام اجتماعية، هو لملمة قدراتها المشتركة وجمع شتات قواها وتوحيد جهودها، بغية تشكيل الضد المكافئ لقوى المحاصصة، وكي لا تضيع اللحظة التاريخية مرة أخرى. وان تعمل معا على تحديد أهدافها بوضوح وعلى تقريب وسائل وطرق نضالها، وان تسعى جاهدة الى توحيد خطابها السياسي والتعبوي، متوجهة دائما وبقوة نحو الارتقاء بالفكر النضالي، ونحو خلق وعي جماهيري وطني ديمقراطي، وطبقي في ذات الوقت.

ان النضال طريق وعر، مليء بالآلام والأمنيات، بالفرح والانتصارات، وأيضا بالتضحيات والانكسارات أحيانا. والتغيير، أي تغيير كان ومهما كانت سعته ومدياته هو عملية قلقة بطبيعتها، فكيف إذا كان يراد له ان يكون تغييرا شاملا!

ولأن الشعب العراقي لم يفقد ابدا لذة العيش ولم تدب في جسده الشيخوخة، لذلك فهو ما زال لا يخشى السير في طريق النضال الصعب، متسلحا بإرادة الحياة ... وسينتصر حتماً!

# مقـــــالات

# نظرية علم المجتمع الكلاسيكية عند كارل ماركس "الإنسان صانعاً لتاريخه"

**د . حسام الدين فياض**
**الأستاذ المساعد في النظرية الاجتماعية المعاصرة**
**قسم علم الاجتماع- كلية الآداب – جامعة ماردين ارتوقلو – حلب سابقاً**

بالرغم من مضي أكثر من قرن من الزمان على وفاة كارل ماركس* فلا يزال فكره يشغل حيزاً من اهتمام الباحثين والمفكرين الذين ينتمون إلى أكثر من تخصص ولا يكاد يخلو مؤلف واحد اهتم بتاريخ النظرية إلا ووقف على ما كتب [1]. لأن ماركس يعتبر أحد أهم المنظرين الثوريين**، والفلاسفة الماديين النقديين تأثيراً في التاريخ الإنساني، فما تزال أفكاره حتى الآن تجتذب المثقفين في أماكن كثيرة من العالم على الرغم من تهاوي الكثير من الصروح السياسية والاقتصادية، التي قامت على هدي أطروحاته في القرن العشرين المنصرم [2].

شهد ماركس ظروف التصنيع المبكر في أوروبا وما نتج عنه من آثار سلبية على الطبقة العاملة، مما دفعه إلى الاهتمام بسرعة التخطيط لإحداث عملية التحول الاجتماعي، والإقرار بضرورتها، فانكب بجهد لا مثيل على دراسة وتفسير وتحليل ونقد العوامل، التي أدت إلى ظهور الرأسمالية والمبادئ، التي ارتكزت عليها للحفاظ على وجودها واستمرارها، وذلك بهدف القضاء عليها وتجاوزها إلى تشكيلة اقتصادية - اجتماعية ينتفي فيها استغلال الإنسان لأخيه الإنسان [3]. و بهذا نجد أن الفلسفة الماركسية شكلت مدخلاً ثورياً للتغيير الاجتماعي والتقدم الإنساني.

درس ماركس طبيعة هذا الاستغلال وحلله وتنبأ بالنتائج التي سيفضي إليها، فهذا الاستغلال قد اتخذ صورا شتى عبر التاريخ، من اقتصاد المرحلة العبودية إلى الإقطاعية وأخيراً إلى الرأسمالية، حيث انقسم أفراد المجتمع فيها إلى ساد وعبيد ثم إلى إقطاعيين وفلاحين، وأخيراً برجوازيين وعمال. وفي كل ذلك كانت قوانين الاقتصاد السياسي هي التي تتحكم بوجود وتطور وفناء نظام اجتماعي – اقتصادي معين، ومجيء نظام أرقى منه [4]. وينطلق ماركس في تفسيره لطروحاته من افتراض أن موقع الأفراد

والجماعات من ملكية وسائل الإنتاج هو الذي يحدد وضعهم الاجتماعي في بناء القوة داخل المجتمع، فإما أن ينتمون إلى الطبقة المسيطرة أو الطبقة الخاضعة، ومعادلة القوة هذه ذات بُعد تاريخي لا يمكن تجاهله في النظرية الماركسية، لهذا أوضح ماركس في البيان الشيوعي 1848، " بأن كل التاريخ السابق لم يكن إلا تاريخ صراع طبقي "[5]. إن هذا الفهم للتاريخ، يصوره كتاريخ قوة تحركه صراعات القوى وتناقضاتها، التي تتمثل في الطبقات الاجتماعية، حيث كان يوجد دائماً طبقات تمتلك وطبقات لا تمتلك، وتبعاً لذلك طبقات حاكمة وطبقات محكومة. لذا فإن الأغلبية الساحقة من البشر حسب التصور الماركسي كانت تعمل بمشقة.

أما فيما يتعلق بالنظام الرأسمالي فيرى ماركس أن الديناميكية الداخلية لقوانين الاقتصاد السياسي لهذا النظام ستفضي لا محال إلى الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا، حيث ستؤول الأمور في مسارها المعقد إلى ثورة مجتمعية تحطم فيها البروليتاريا قيودها، وتسقط البرجوازية وتلغي الشروط المادية لأشكال استغلالها وفي مقدمتها (الملكية الخاصة)، ومع هذه الثورة التي ستكون حتمية ستحقق البروليتاريا سيادتها. " فماركس يؤمن بأن البروليتاريا وحدها فقط يمكن لها أن تسقط الرأسمالية، وتحرر نفسها، وكل الفئات المضطهدة في المجتمع، من كافة أشكال الاستغلال والاستعباد"[6]. لهذا يعتبر ماركس أن التحقيق الكامل لإنسانية الإنسان، ولعملية انعتاقه من القوى الاجتماعية التي تقيده، غير منفصل عن عملية وعي وجود هذه القوى، وعن التغيير الاجتماعي الذي يتأسس على هذا الوعي. لأن الفلسفة الماركسية هي فلسفة احتجاج. احتجاج متشرب بالإيمان في الإنسان وبقدرته على تحرير ذاته، وتحقيق لطاقاته [7].

تأسيساً على ما تقدم نستنتج أن ماركس يؤمن بأن قوى التغيير كامنة في المجتمع ذاته، وليست خارجة عنه، ويعود السبب في ذلك إلى ارتباطها بالأوضاع المادية داخل التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية، فالصراع – وإن كان أمراً حيوياً لتخليص النظام من أزمته – فإنه لا يتم بمعزل عن الشروط الموضوعية التي تشكل عوامل الحركة الثورية [8]. بهذا تشكل طبقة البروليتاريا حسب التعبير الماركسي القوى الاجتماعية (الثورية) التي سيوكل إليها تجسيد عملية التغيير الاجتماعي. باعتبارها قوى اجتماعية تعدها ظروف وجودها الاقتصادية لعملية التغيير وتعطيها الإمكانية والقوة للقيام بذلك. فبينما تتجزأ طبقة الرأسمالية وتتبعثر طبقة الفلاحين وجميع فئات الرأسمالية الصغيرة، توّحد البروليتاريا صفوفها وتنظمها. فالبروليتاريا بحكم دورها الاقتصادي في الإنتاج الضخم هي الطبقة الوحيدة لكي تكون زعيماً لجميع جماهير الشغيلة والمستثمَرين الذين تستثمرهم الرأسمالية وتظلمهم وتضغط عليهم في حالات كثيرة ضغطاً ليس بأضعف بل هو أشد من ضغطها على البروليتاريين، ولكنهم غير أهل للنضال المستقل في سبيل تحررهم [9].

أما عن المبررات التي دفعتنا إلى دراسة وتحليل النتاج السوسيولوجي لكارل ماركس وبالأخص فيما يتعلق بعلم المجتمع، فإننا نستطيع القول وبكل جدارة أنه بالرغم من مضي أكثر من مئة عام على وفاته

(ماركس)، إلا أن أعماله الفكرية مازالت تنبض بالحياة حتى اليوم، وإن شئنا الدقة فهي تشكل المكون الأساسي المفاهيمي والنظري داخل نظرية الصراع، ويدرك كل إنسان عاش في القرن العشرين المنصرم كيف أن أفكار ماركس كان لها تأثير هائل على الممارسة السياسية. حيث كانت الماركسية على صعيد الفكر والعقيدة والممارسة تشكل جسراً قوياً وحياً، واستطاعت أن تؤثر تأثيراً فعالاً في صياغة وتشكيل أقدار ومصير ملايين من الرجال والنساء [10]. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، يعتبر ماركس أول من أدخل السياسة في علم الاقتصاد الجديد من أجل تحقيق الثورة الاجتماعية، فجعل بذلك الاقتصاد اقتصاداً سياسياً، أي اقتصاد يقوم على سلطة سياسية، ولذلك يمكن الإطاحة به بتنظيم سياسي ووسائل ثورية. بمعنى آخر إن ماركس يكون قد استنهض روح التمرد التي لا تنبع إلا من كونها منتهكة وليس من كونها واقعة تحت تأثير الضرورة، بذلك يكون ماركس قد ساعد في تحرير الفقراء عبر إقناعهم بأن الفقر ذاته هو ظاهرة سياسية وليس ظاهرة طبيعية وإنه نتيجة العنف والانتهاك وليس نتيجة الشح[11]. أي أن ماركس حوّل المسألة الاجتماعية إلى قوة سياسية موجودة في مصطلح " الاستغلال " أي الفكرة القائلة بأن الفقر هو نتيجةً للاستغلال من خلال الطبقة الحاكمة، التي تمتلك وسائل الإنتاج والعنف[12]. ويستشهد ماركس بالمجتمع الرأسمالي القائم في صميمه على الاستغلال[13].

تميز الفكر الماركسي باعتباره مرحلة قائمة بذاتها في تاريخ الفلسفة الاشتراكية، على الرغم من أنه اعتمد بشكل كبير على أفكار سابقيه من مفكري الاشتراكية. إلا أن عبقريته تكمن في تنظميه للأفكار الشيوعية المشوشة، وإيجاد فلسفة ومنهج لتحقيقها على أرض الواقع الاجتماعي. حيث يعتبر ماركس أول مفكر اشتراكي أدرك أن وضع التفاصيل والجزئيات لدستور المدينة الفاضلة أقل أهمية من كشف الطريق المؤدي إلى هذه المدينة، وكيفية الوصول إلى هذا الطريق، وكان أول من أدرك أن اكتشاف هذا الطريق يتوقف على دراسة طبيعة المنطقة دراسة تحليلية [14].

تعد النظرية الصراعية من أهم النظريات المعروفة في علم الاجتماع نظراً لكون الصراع يخيم على علاقات البشر ويخيم على علاقات الجماعات والمجتمعات. بذلك تكون نظرية الصراع شائعة بين علماء الاجتماع لأنه لا توجد نظرية واحدة بل عدة نظريات صراعية على جانب كبير من الأهمية والفاعلية.

وإذا كان التركيز لدى الصراعيين على علاقات التناقض واللامساواة والصراع، فإنهم يختلفون حول العامل الأساسي لهذه العملية، كما أنهم يختلفون في نظراتهم للنتائج التي يمكن أن تترتب على عملية الصراع.

فعلى سبيل المثال يرى كارل ماركس أن علاقات الإنتاج، التي تتضمن لامساواة في الملكية، تشكل أساس اللامساواة والاستغلال واحتمال الصراع. وبذلك جعل من التوزيع غير العادل في علمية الإنتاج أساساً للصراع الطبقي [15]. وهذا ما سوف نقوم بمناقشته من خلال استعراض نظريته في علم المجتمع.

**- نظرية علم المجتمع عند كارل ماركس:**

يعتمد ماركس في رؤيته للمجتمع على التفسير المادي للتاريخ الذي يتلخص في أن الأوضاع الاقتصادية للمجتمع هي الأساس الذي يؤثر في كافة الأوضاع والنظم الاجتماعية والفكرية الأخرى، بحيث تنطبع هذه الأوضاع والنُظم بالصورة التي يقتضيها البناء الاقتصادي القائم. وعلى ذلك فإن علاقات الإنتاج ووسائله هي التي تحدد شكل المجتمع ونظامه، وبالتالي يكون لكل نظام إنتاجي، شكل معين للمجتمع يقابله ويختلف هذا الشكل باختلاف وسائل الإنتاج وطرقه [16]. بذلك يتلخص التصور المادي للتاريخ في أن البناء الاقتصادي للمجتمع هو الأساس الذي يفسر في التحليل الأخير، البناء الفوقي بما يتضمنه من نظم قانونية وسياسية وأفكار فلسفية ودينية خاصة بكل مرحلة محددة[17].

فالمجتمع حسب رأي ماركس مهما كانت مرحلته التاريخية أي (التكوين الاقتصادي الاجتماعي)* يعتمد على الأساس الاقتصادي، أي نمط الإنتاج الذي ينقسم بدوره إلى مكونين أساسيين هما: قوى الإنتاج التي تعني مجموعة الطاقات المادية والبشرية التي تتوظف في العملية الإنتاجية كوسائل العمل وأدوات الإنتاج (كالآلات والأجهزة والمباني، إضافةً إلى الطاقة البشرية بما تتمتع به من إمكانيات فنية وخبرة وعمل). أما المكون الثاني فهو علاقات الإنتاج التي تعني الارتباطات الأساسية التي يشغلها الناس بعضهم مع بعض من أجل تنفيذ النشاط الاقتصادي (ملكية الإنتاج، أوضاع الطبقات، التفاعل الطبقي، توزيع وتبادل السلع المادية)[18]. وترتبط قوى الإنتاج بعلاقات الإنتاج، فالأفراد خلال إنتاجهم الاجتماعي لا يؤثرون على الطبيعة فقط وإنما يتبادلون التأثير فيما بينهم من خلال التعاون والتبادل، أي أنهم يؤسسون علاقات فيما بينهم من خلال العمل، ولذلك فإن كلمة " أسلوب الإنتاج " تطلق على قوى الإنتاج وعلاقاته معاً.

تأسيساً على ما تقدم وفي ضوء التفسير المادي للمجتمع، يمكننا القول إن من أهم معالم التحليل الماركسي أن علاقات الإنتاج هي التي تحدد التقسيم الاجتماعي والتركيب الطبقي للمجتمع، وهذا البناء الطبقي يحدد بدوره طبيعة النظم القانونية والسياسية [19]. " أي أن مجموع علاقات الإنتاج هذه هي التي تشكل البنية الاقتصادية للمجتمع والقاعدة التي تقوم عليها البنية القانونية والسياسية التي تعكس بدورها أشكالاً محددة من الوعي الاجتماعي" [20]. بهذا تكون علاقات الإنتاج في المجتمع الطبقي ليست علاقات بين فرد وآخر، ولكنها بين المزارع والمالك، بين العامل والرأسمالي. ويؤمن ماركس أن هذه العلاقات الطبقية القائمة على الاستغلال هي المفتاح الأساسي لفهم المجتمعات الطبقية[21].

تتبع علاقات الإنتاج تطور القوى الإنتاجية والعلاقة بينهما وقد تكون علاقة تطابق (العمل الفردي والملكية الفردية أو العمل الجماعي والملكية الجماعية) وقد تكون علاقة تناقض (العمل الجماعي والملكية الفردية). بمعنى أن علاقات الإنتاج قد تأخذ شكل التعاون والتعاضد أو شكل الاستغلال والسيطرة، حيث تتصل بكل أشكال التقسيم الاجتماعي للعمل ونظام الملكية وأشكال

التوزيع والتبادل. إلا أن قوى الإنتاج أسرع في تطورها من علاقات الإنتاج التي تتميز بالثبات النسبي لكنها عرضة لتغيرات فجائية يتم بواسطتها تصفية شكل علاقات الإنتاج القائمة وإحلال أخرى محلها، وبذلك يتغير أسلوب الانتاج (وهذا التغير لابد أن يصاحبه عمل ثوري من قبل الطبقات التي تكون علاقات الإنتاج في غير صالحها...) ومن هنا ندرك مرونة القانون الاجتماعي ونسبيته[22].

إن قوى التغير الاجتماعي - حسب اعتقاد ماركس - كامنة في المجتمع ذاته، وهي ليست راجعة إلى عوامل خارجية كالعقل أو الفكرة المطلقة أو البيئة الجغرافية أو تزايد السكان أو التطور المزعوم للعقل أو الفكر، فالأفكار عند ماركس مرتبطة بأوضاع الحياة المادية وفي هذا الصدد يقول ماركس: " ليس وعي الأفراد هو الذي يحدد وجودهم الاجتماعي، بل وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم " [23]. لذلك فإن الأفكار الثورية - لعملية التحول الاجتماعي- لا تظهر ولا تنتشر إلا في ظروف موضوعية مواتية، ونظام لم يعد يتماشى مع المرحلة الجديدة التي وصلت إليها الأوضاع المادية للمجتمع، كذلك فإن الجماهير هي التي تصنع التاريخ وتحقق التغير من خلال إنتاج السلع المادية وليس القادة أو الرجال العظام[24].

إن التطور الاجتماعي هو تطور أساليب الإنتاج التي تعاقبت على المجتمع الإنساني. حيث ينقسم المجتمع (الطبقي) في كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي إلى طبقتين: طبقة تملك وسائل الإنتاج، وطبقة لا تملك شيئاً منها، وإنما تملك فقط قوة عملها أي قدرتها على بذل المجهود أي استخدام وسائل الإنتاج لزيادة معدله، ومن هنا ينشأ الصراع الطبقي الذي جعله ماركس سمة رئيسية لتاريخ المجتمع البشري في مراحل معينة من تطوره " [25]. بمعنى أن النقطة المركزية في الطروحات الماركسية تتمثل في افتراض أن موقع الأفراد والجماعات من ملكية وسائل الإنتاج يحدد وضعهم الاجتماعي في بناء القوة داخل المجتمع فإما ينتمون إلى الطبقة المسيطِرة أو الطبقة الخاضعة، ومعادلة القوة هذه ذات بُعد تاريخي لا يمكن تجاهله في النظرية الماركسية[26].

يؤكد ماركس في البيان الشيوعي 1848، أن الصراع بين الطبقات وجد في جميع مراحل التطور الاجتماعي، لأن نظام الإنتاج يوجِد دائماً طبقة مستغَلة وطبقة مستغِلة، طبقة مأمورة وطبقة آمرة. فيقول: " إنّ تاريخ أي مجتمع، ليس سوى تاريخ صراعات طبقية " [27]. والصراع - كما يرى ماركس – قد وجد منذ تلاشى نظام الملكية الجماعية للأرض، وقام استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. فنظام الملكية الفردية قد فصم الجماعة إلى طبقتين طبقة من يملكون وطبقة من لا يملكون، وهاتان الطبقتان تتصارعان وتتنازعان، وهذا الصراع لا يهدأ إلى أن يقوض الجماعة بأكملها أو يهدم الطبقات المتصارعة، ثم تقوم جماعة جديدة تتصارع فيها طبقات جديدة إلى أن يقضي عليها هي الأخرى. لذا تعد نظرية الصراع الطبقي، وجهاً آخر للتصور المادي للمجتمع والتاريخ، لتفسير عوامل التغير الاجتماعي في المجتمعات الطبقية القائمة على الاستغلال. بذلك فإن الصراع عند ماركس "لا يحدث فجأة، بل بشكل متكرر"[28]، كنتيجة حتمية لتعارض الأهداف والمصالح بين هاتين الطبقتين،

حيث يؤدي في النهاية ومن خلال الثورة الاجتماعية إلى تغيير علاقات الإنتاج أو شكل الملكية السائدة، فالطبقة المستغِلة، لا يمكن أن تتنازل عن امتيازاتها الطبقية طواعيةً، " لأنها تحتل موقعاً متميزاً كطبقة مسيطرة " [29]، لذا لابد من إجبارها من خلال الثورة الاجتماعية - حسب رأي ماركس – حتمياً. تأسيساً على ما تقدم يمكننا اعتبار الصراع الطبقي وما يؤدي إليه من ثورات اجتماعية المحرك الأساسي للتغير الاجتماعي في جميع المجتمعات الطبقية حتى يتم الانتقال إلى مجتمع بلا طبقات، وتاريخ كل مجتمع - كما ذكرنا سابقاً - ليس سوى تاريخ صراع الطبقات، (الأحرار والعبيد، النبلاء والعامة، السيد الإقطاعي والقن، البرجوازي مالك وسائل الإنتاج والعامل)، باختصار المستغلون والمستغلين في تعارض دائم، وتصارع مستمر، يتخذ شكلاً سافراً في بعض الأحيان، ومقنعاً في أحيان أخرى، وينتهي الأمر دائماً إما بتغيير ثوري للمجتمع بأسره أو بانهيار الطبقتين المتصارعتين معاً [30].

تأسيساً على ما تقدم قسّم ماركس المجتمع الرأسمالي إلى طبقتين: الأولى طبقة البرجوازية طبقة الرأسماليين المعاصرين، مالكي وسائل الإنتاج الاجتماعي الذين يستخدمون العمل المأجور. الثانية البروليتاريا طبقة العمال الأجراء المعاصرين الذين لا يملكون أية وسائل إنتاج، و " الذين لا يعيشون إلا إذا وجدوا عملاً. ولا يجدون عملاً إلا إذا كان عملهم ينمي رأس المال" [31]. بذلك يرى ماركس من خلال هذا التقسيم أن النظام الرأسمالي يشتمل في داخله على بذور فنائه [32]، لأنه أوجد طبقة ثانية تعارضت مصالحها مع مصالح الطبقة البرجوازية وهي طبقة البروليتاريا.

كما تتميز هذه المرحلة - بالإضافة إلى وجود طبقتين متعارضتين - بتعدد النشاط الاقتصادي وتنوعه وبالتطور التكنولوجي في وسائل الإنتاج [33]. وعلى الرغم من أن العامل قد تحرر في ظل الرأسمالية بمعنى أنه كان يعمل متى يشاء وأينما شاء، على عكس أسلوب الإنتاج الإقطاعي الذي عمل على تحديد حرية العامل (الأجير) [34]، إلا أنه في ظل أسلوب الإنتاج الرأسمالي مضطراً لبيع عمله للرأسمالي لأنه - كما أشرنا سابقاً – لا يملك وسائل الإنتاج. بالمقابل نجد الرأسمالي المالك لوسائل الإنتاج يستمر في تحسين وسائل الإنتاج للحصول على مزيد من الربح أي فائض القيمة (القيمة الزائدة)، وهذا يعني أن علاقات الإنتاج في النظام الرأسمالي القائمة على مبدأ الملكية الخاصة قد أدت إلى ظهور الربح الرأسمالي، فعندما يزداد نمو القوى الإنتاجية تصبح علاقات الإنتاج متخلفة عنها بحيث تكون معوقة لتطورها. في هذا السياق يرى ماركس أن وفرة الإنتاج الرأسمالي بسبب التقدم الذي طرأ على أساليبه ستؤدي إلى انهياره بسبب ما يحدث فيه من أزمات دورية، فهو كالساحر الذي أطلقت تعاويذه السحرية قوى جبارة يعجز عن السيطرة عليها فتقضي عليه [35]. " لأن البرجوازية لا تستطيع البقاء دون أن تُثوِّر باستمرار أدوات الإنتاج" [36]. مما يؤدي إلى عدم قدرة علاقات الإنتاج على مسايرة التقدم التقني في وسائل الإنتاج، فيترتب على ذلك عدم امتداد نتائج هذا التقدم التقني إلى من يعملون بجهدهم البشري لإنتاج تلك الأدوات، وكذلك في عملية الإنتاج ذاتها.

بمعنى آخر يمكن لنا صياغة هذا القانون على النحو التالي: " إن التغيرات في القوى الإنتاجية لابد أن تستدعي، عاجلاً أم آجلاً، تغيرات مناسبة في علاقات الانتاج، وعلاقات الإنتاج بدورها تؤثر في القوى الإنتاجية فتساعد على تطويرها إذا كانت ملائمة لها، وتصبح كابحاً لها إذا دخلت في تناقض معها. فقانون الملائمة عند ماركس يعبّر عن ديالكتيك قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج الجاري على أساس تطور قوى الإنتاج"[37].

وبشكل عام يعتقد ماركس أن تغيير البناء الاجتماعي، ودخول المجتمع في مرحلة حضارية تاريخية يعود إلى التغيير في البناء المادي لسبب أو لآخر. وهذا من شأنه أن يؤثر على البناء الفوقي، أي بعبارة أخرى إن الجوانب المادية هي التي تؤثر على الأفكار والقيم والعادات والقوانين والأعراف الاجتماعية، ومع ذلك لا يلغي ماركس العوامل الفكرية تماماً، وإنما يرى دراسة هذه العوامل ينبغي أن تكون في ضوء العوامل المادية والاجتماعية. فالتطور الاجتماعي عنده يقوم على أساس تاريخي شبه ميكانيكي، حيث يلعب الإنسان فيه دور مهماً من خلال جهوده وتحديه للظروف المختلفة، وبهذا يكون الإنسان صانعاً لتاريخه.

**الهوامش:**

* ولد ماركس في مدينة تريف Treves من منطقة الراين عام 1818 بروسيا، وكان أبوه ابن حاخام ومحامياً ثم أصبح مؤلفاً في الحقوق، تزوج من هنرييت بريسبورغ التي كانت ابنة حاخام أيضاً. اعتنق والد ماركس البروتستانتية لأسباب يرجح أنها سياسية أكثر منها دينية. وكان من أصدقائه فون- ويستون وهو بارون ريناني متزوج من نبيلة إيكوسية، فالوسط الذي عاش فيه ماركس فترة شبابه كان إذن وسطاً برجوازياً راقياً وثيق الصلة بالارستقراطية، وهو وسط ثقافي ونشاط فكري. وقد كان لوالده تأثير واضح على شخصيته، حيث نشَّأه على الحرية وحب المعرفة. وعندما أرسله إلى المدرسة الثانوية تلقى تعليمه على يد أساتذة ليبراليين، حيث كان موضع ثنائهم وتشجيعهم، وكان متفوقاً في الرياضيات والدراسات اللاهوتية. وفي عام 1835 التحق ماركس بجامعة بون ودرس التاريخ واهتم بالإنسانيات. واندمج في النشاط الطلابي، ثم انتقل إلى جامعة برلين عام 1836 وفيها التقى بفلسفة هيجل وبدأ يقرأها ويلم بها. وفي عام 1839 تعرف على صديقه الحميم في هذه الفترة وكان صحفياً يدعى أدولف ريتنبرج وكان من الهيجليين الراديكاليين، سجن بسبب أفكاره، وفي عام 1842 انضم ماركس للشبيبة الهيجيلية والتحق بالعمل كمحرر بالجريدة " الرينانية " فساعده عمله بالصحافة على أن يتفتح على المجتمع ومشكلاته. وفي عام 1843 وبعد زواجه قرر الهجرة إلى باريس. وكتب عن سبب هجرته من ألمانيا يقول: " إن الجو الخانق، لا يحتمل، ليس من اليسير على المرء أن يتذلل من أجل الحرية، لقد سئمت النفاق والغباء وفظاظة الموظفين الرسميين، وتعبت من طأطأة الرأس وابتكار العبارات التي لا خطر منها ولا ضرر من ورائها. إن ألمانيا لم يعد فيها ما أستطيع أن أفعله، إن المرء لا يستطيع أن يكون غير أمين مع نفسه ". ومن خلال تنقله بين فرنسا وبلجيكا التقى بجوزيف برودون وفردريك انجلز، وشارك في النشاطات السياسية في ثورات الربيع الأوروبي (فرنسا) عام 1848، وانتهى به المطاف في لندن حيث توفي في 14 مارس/ آذار 1883. وبهذا التقى بأبرز المفكرين، وبالهيجليين، وعمل بالصحافة، واشتغل بالسياسة. لمزيد من القراءة والاطلاع حول حياته وأعماله بالتفصيل انظر: عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 44، أغسطس (آب)، 1981ص (67 - 68).

- Encyclopedia Britannica Fact matter: Karl Marx.

- http://www.britannica.com/EBchecked/topic/367265/Karl-Marx

1- عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص (67).

** في هذا السياق أبدى ماركس اهتماماً خاصاً بالتاريخ أكثر منه بالسياسة، بالنتيجة، فإنه تجاهل كليةً النيات الحقيقية لرجال الثورات وأساس الحرية، وركز اهتمامه حصراً على المسار الموضوعي للأحداث الثورية. لمزيد من القراءة والاطلاع انظر:

- Hannah Arendt: On Revolution, Chapter II titled The Social Question, Penguin Books, London. 1999, p.(61).

2- سعد البازعي: المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2007، ص (104).

3- أحمد سليمان أبو زيد: نظرية علم الاجتماع – رؤية نقدية راديكالية، دار النيل للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1994، ص (103).

4- بندريش زلني: منطق ماركس، ترجمة: ثامر الصفار، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، 1990، ص (21).

5- هرمان دونكر: البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل، ترجمة: عصام أمين، الفارابي، بيروت، ط1، 2008، ص (53).

6- Alex Callinicos: The Revolutionary Ideas of KARL Marx, Bookmarks Publications Ltd, London and Sydney, Third reprint, 2004, p. (81).

7- Erich Fromm: Marx's Concept of Man- Milestones of Thought, Translation by: T. B. Bottomore, Frederick Ungar Publishing CO. New York, 1961, p.(v).

8- أحمد مجدي حجازي: علم اجتماع الأزمة (تحليل نقدي للنظرية الاجتماعية في مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص (70).

9- حسام الدين فياض: المدخل إلى علم الاجتماع – من مرحلة تأصيل المفاهيم إلى مرحلة التأصيل، مكتبة الأسرة العربية، اسطنبول، ط1، 2021، ص(279).

10- مجموعة مؤلفين: علم الاجتماع – الاتجاهات النظرية والاستراتيجيات البحثية، ترجمة وتقديم: عبد الله شلبي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط1، 2012، ص (145 - 146).

11- Hannah Arendt: On Revolution, op.cit, p. (63).

12- Ibid, p. (62).

13- محمد عبد الكريم الحوراني: تأويل الاستغلال في نظرية علم الاجتماع – العناصر التكميلية لنظرية سوسيولوجية في الاستغلال، مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط1، -2010 2011، ص (16).

14- هارولد لاسكي: الشيوعية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مجموعة اخترنا لك (111)، بدون تاريخ، ص (11).

15- حسام الدين فياض: محاضرات في النظريات الاجتماعية المعاصرة، جامعة ماردين، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، 2020-2021 ، ص(1).

16- محمد فتحي القرش: العدالة والحرية بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي- دراسة مقارنة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2012، ص (175).

17- محمود عودة: علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ط1، 1976، ص (113).

* إحدى المقولات الأساسية التي تستخدمها المادية التاريخية لتحديد المرحلة التي يعيشها المجتمع في تطوره التاريخي. ويقصد بالتكوين الاقتصادي الاجتماعي، المرحلة التاريخية أو النموذج التاريخي المحدد لمجتمع (مجتمع له أسلوبه من الإنتاج وبنائه الفوقي المطابق). لمزيد من القراءة ة والاطلاع انظر: خضر زكريا: نظريات سوسيولوجية، دار الأهالي، دمشق، ط1، 1998، ص (73 - 78).

18- ياس خضير البياتي: النظرية الاجتماعية – جذورها التاريخية وروادها، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، 2011، ص (155).

19- محمود عودة: علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية، مرجع سبق ذكره، ص (116).

20- عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، الجزء:5، المرجع السابق نفسه، ص (627).
21- Alex Callinicos: The Revolutionary Ideas of KARL Marx, op.cit, p. (87).
22- محمود عودة: علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية، مرجع سبق ذكره، ص (116).
23- جورج بوليتزر وآخرون: أصول الفلسفة الماركسية، ترجمة: شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، الجزء:2، بدون تاريخ، ص (189).
24- محمود عودة: علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية، مرجع سبق ذكره، ص (117).
25- محمد فتحي القرش: العدالة والحرية بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي- دراسة مقارنة، مرجع سبق ذكره، ص (176).
26- محمد عبد الكريم الحوراني: النظرية المعاصرة في علم الاجتماع – التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفية والصراع، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2008، ص (88).
27- هرمان دونكر: البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل، مرجع سبق ذكره، ص (53).
28- ياس خضير البياتي: النظرية الاجتماعية – جذورها التاريخية وروادها، مرجع سبق ذكره، ص (156).
29- محمد عبد الكريم الحوراني: النظرية المعاصرة في علم الاجتماع– التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفية والصراع، مرجع سبق ذكره، ص (89).
30- محمود عودة: علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية، مرجع سبق ذكره، ص (117 - 118).
31- هرمان دونكر: البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل، مرجع سبق ذكره، ص (66).
32- فيليب جونز: النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، ترجمة: محمد ياسر الخواجة، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010، ص (95).
33- حورية توفيق مجاهد: الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1986، ص (480).
34- علي عبد الرازق جلبي: الاتجاهات الأساسية في نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2011، ص (110).
35- محمد علي أبو ريان: النظم الاشتراكية، دار المعارف، القاهرة، ط1، بدون تاريخ، ص (261).
36- هرمان دونكر: البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل، مرجع سبق ذكره، ص (55).
37- خضر زكريا: نظريات سوسيولوجية، مرجع سبق ذكره، ص (73 - 78).

# اللاجئون العراقيون في أوروبا: تحليل مقارن

د.هاشم نعمة

**أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب/ جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه - التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.**

**مقدمة**

نعتقد أن الدراسات الأكاديمية باللغة العربية الخاصة بهجرة ولجوء العراقيين ما زالت قاصرة أو محدودة إن لم تكن معدومة في البلدان الأوروبية المستقبِلة للاجئين، وربما يعود ذلك إلى الضعف التنظيمي للجاليات العراقية المهاجرة وغياب المؤسسات الأكاديمية التي تدعم مثل هذه الدراسات، وإلى حداثة هجرة العراقيين بأعداد كبيرة، إضافة إلى أن الجامعات العراقية والوزارات العراقية خصوصا وزارة التخطيط لم تهتم بهذا الموضوع إطلاقا. ولهذا نراه غائبا تماما على مستوى البحث العلمي والتوثيق في العراق.

تتميز أزمات الهجرة القسرية بشيوعها، وتنتج من تطورات ذات ميزات أساسية مشتركة. ومن تلك الميزات الأكثر أهمية هي فشل الأنظمة الأساسية للبقاء على قيد الحياة، وضعف أو انهيار البنى الاجتماعية والسياسية، غالبا ما يحدث هذا على المستوى المحلي. هذه الأزمات من جانبها ترتبط مباشرة بالتغيرات الاقتصادية والسياسية على المستوى العالمي. لذلك من أجل فهم الهجرة القسرية يتطلب الأمر فهم عمليات التنمية بأبعادها المتعددة والمترابطة على المستوى العالمي. لكن يلاحظ أن معظم التعامل مع حركات اللاجئين يضعها في سياقات مختلفة، علما أن أزمات اللاجئين تنشأ بنحو متزايد من مجموعة واسعة من الأسباب[1].

على مستوى المنطقة العربية يلاحظ أن نمط الهجرة القسرية منتشر من المنطقة وإليها وعبرها. إذ تقع فيها ثلث النزاعات التي أسفرت عن النزوح واللجوء على مستوى العالم، وذلك بسبب الكوارث الطبيعية والتغيرات المناخية، والكوارث الإنسانية الناتجة عن غزو العراق، والأعمال الإرهابية الطائفية والمذهبية، واستمرار العنف في الصومال، بالإضافة إلى الأزمة السودانية، وتبعات الأحداث في كل من سوريا وليبيا واليمن، لذا تبرز تحديات ما تفرضه هذه الأزمات ذات الجوانب المتعددة، وهو ما يحتم على المجتمع الدولي البحث عن حلول لما أفرزته هذه الأزمات من لجوء ونزوح أعداد كبيرة من سكان المنطقة العربية[2] إلى مناطق وبلدان مختلفة منها أوروبا.

**تطور عدد اللاجئين العراقيين في أوروبا**

تعد ظاهرة هجرة العراقيين إلى الخارج بأعداد كبيرة ظاهرة حديثة، إذ لم يعرف تاريخ العراق المعاصر لها مثيلا باستثناء هجرة اليهود العراقيين إلى إسرائيل بعد قيامها في الفترة 1948 - 1951. وكانت أعداد قليلة من العراقيين تهاجر إلى الخارج قبل وصول نظام البعث للسلطة العام 1968. فقد بلغ عدد العراقيين المسجلين في الخارج 42464 عام 1957، منهم حوالي 31000 عامل، أي بنسبة 74 في المئة في الكويت. وقد تناقص العدد الأخير إلى 25897 عام 1965[3].

هناك الكثير من الأسباب المتشابكة التي تقف وراء موجات هجرة العراقيين القسرية في مراحل مختلفة من تاريخ العراق. ولعل أبرز الأسباب يكمن في فشل الدولة العراقية الحديثة والخلل في بناء الدولة - الأمة. وعدم الاستقرار السياسي نتيجة تعاقب الأنظمة المستبدة الفاقدة للشرعية والتي وصلت إلى السلطة عن طريق الانقلابات العسكرية وإقامة نظام الحزب الواحد المتمثل بحزب البعث وانتهاجه سياسات القمع السياسي والفكري والتبعيث القسري والتمييز القومي والديني والمذهبي والمناطقي، والحروب الداخلية والخارجية التي ساهم هذا النظام في اندلاعها، وكذلك احتلال العراق عام 2003 وما تبعه من تفكك مؤسسات الدولة وإقامة نظام يتبنى المحاصصة الطائفية والإثنية، وشيوع ظاهرة الإرهاب والفساد وارتفاع معدلات البطالة وتدني الخدمات الأساسية ما دفع آلاف العراقيين وخصوصا الشباب لطلب اللجوء خصوصا في أوروبا.

من خلال فحص الأسباب الدافعة لتوجه العراقيين إلى هولندا مثلا، وهذا ينطبق أيضا إلى حد كبير على البلدان الأوروبية الرئيسة المستقبلة للاجئين، يتبيّن من الشكل (1) أن النسبة الأكبر من العراقيين جاءت إلى هذا البلد لطلب اللجوء[4]؛ إذ بلغت 66 في المئة عام 2009، وإذا أضفنا إليها نسبة جمع شمل الأسرة المرتبطة أساسا باللاجئين الذين جاؤوا في وقت سابق والبالغة 25 في المئة تصل النسبة إلى 91

**الشكل (1)**

**أسباب هجرة العراقيين إلى هولندا عامي 2005 و2009 (النسبة المئوية)**

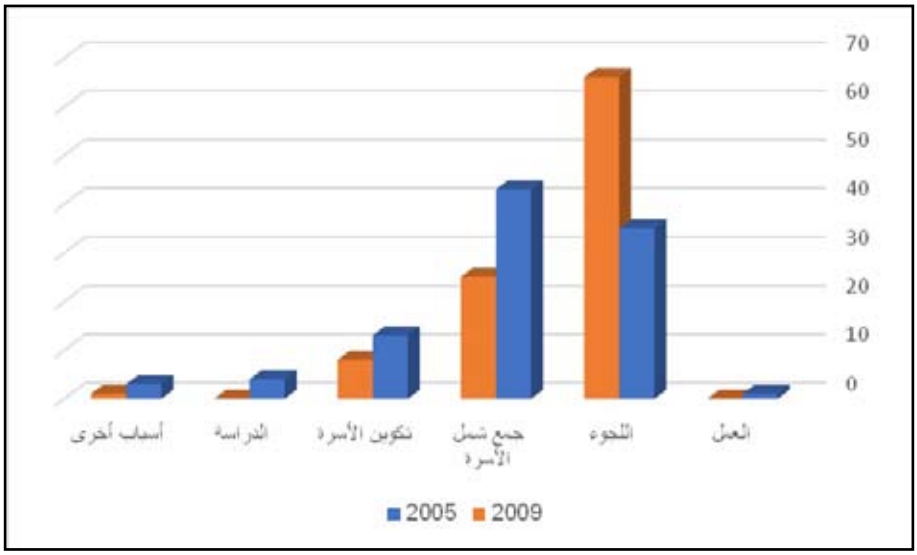


**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى:**

**CBS, Jaarrapport Integratie 2010 (Den Haag| Heerlen: 2010), p. 42.**

في المئة. أما أسباب العمل والدراسة والأسباب الأخرى الدافعة للهجرة إلى هولندا فنسبتها قليلة جدا أو معدومة عامي 2005 و2009. وهذا ينطبق على المجموعات اللاجئة الأخرى مثل الصوماليين والأفغان والإيرانيين بدرجات مختلفة. أما بالنسبة إلى المجموعات المهاجرة مثل المغاربة والأتراك والسوريناميين فترتفع نسبة جمع شمل الأسرة وتكوين العائلة كسبب للهجرة وتنخفض نسبة اللجوء، إذ تتراوح بين 1 و3 في المئة.

بلغ عدد طالبي اللجوء العراقيين في أوروبا 24750 في الفترة 1980 - 1989 موزعين على 15 دولة[5]. وقد تصاعد عددهم في الدول الصناعية بعد السماح لهم بالسفر اثر توقف الحرب العراقية –الإيرانية؛ ففي عام 1989 بلغ عددهم 3901 [6]. وهذا الرقم مرتفع مقارنة بالسنوات السابقة (الشكل 2). علما أن أعدادا أخرى توجهت إلى دول عربية وغير عربية وأقامت بها ولكن ليس كلاجئين.

عند مقارنة الثمانينيات بالتسعينيات

**الشكل (2)**

**عدد طلبات اللجوء المقدمة من قبل العراقيين في الدول الصناعية، 1982 - 2009**

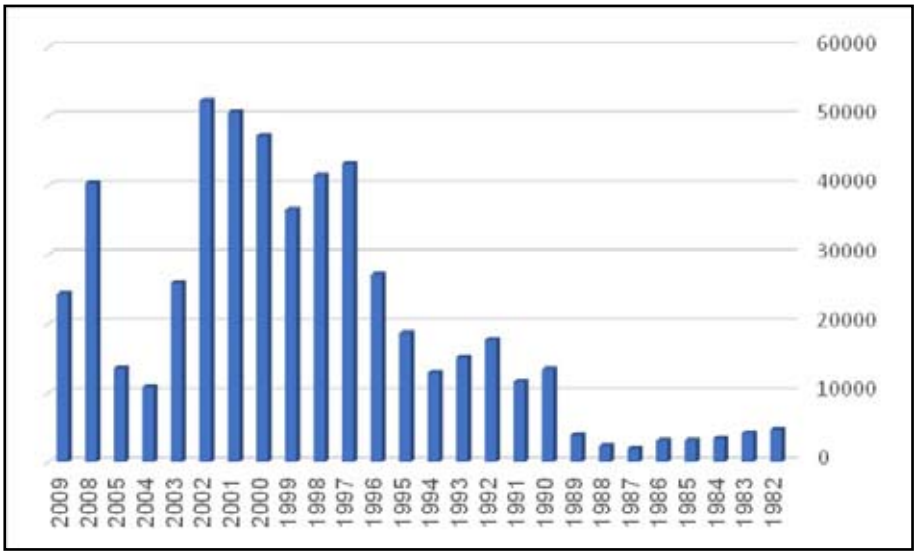


**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى:**

**UNHCR Statistical Yearbook, 2001 , pp. 11.5-11.6, edition of 2004, Annex, II, p. 16, edition of 2005, Annex 11, p. 150, Asylum Levels and Trends in Industrialized Countries 2009, p.15.**

نرى أن أكبر عدد من طالبي اللجوء العراقيين في أوروبا قد توجه في العقد الأول إلى السويد بنسبة 32 في المئة من مجموعهم في القارة، واليونان 19 في المئة، وألمانيا 16 في المئة. أما في العقد الثاني فقد حدث تغير هام في توجههم إذ استقبلت ألمانيا أكبر عدد في أوروبا بنسبة 29 في المئة، وهولندا 19 في المئة، والسويد 13 في المئة. ويبدو أن هذا التغير يعود بشكل أساسي إلى نسبة قبول طلبات اللجوء في الدول الأوروبية، فكلما كانت النسبة أعلى كان التوجه أكبر.

وبلغ صافي الهجرة من العراق 650,000 نسمة، بمعدل 7 بالألف للفترة 1990 - 1995، وساهم هذا بخفض معدل النمو السكاني بـ 32,2 في المئة خلال الفترة ذاتها[7]. إذ ارتفع عدد طالبي اللجوء العراقيين في أوروبا في الفترة 1990 - 1999 إلى 191040 في 19 دولة أوروبية[8]. وتوجه إلى الدول الصناعية مجتمعة

52,290 من طالبي اللجوء العراقيين عام 2002 فقط، وهو أعلى رقم يسجل وانخفض العدد السنوي إلى 10,881 عام 2004. يبدو أن تغيير النظام بعد الاحتلال عام 2003 ساهم في هذا الانخفاض، ليعود العدد مرتفعا إلى نحو 40,000 عام 2008، بسبب ضعف الأمن والاستقرار في العراق بعد هذا التغيير. علما أنه احتل العراقيون من مجموع طالبي اللجوء في الدول الصناعية المرتبة الثانية في الفترة 2000 - 2002 بنسبة 9 في المئة. وفي أوروبا حوالي 11 في المئة، وعلى صعيد العالم احتلوا المرتبة الأولى بعد تراجع أعداد اللاجئين الأفغان العام 2002[9]. واحتل العراق المرتبة الثانية بعد أفغانستان على المستوى نفسه في عدد اللاجئين للفترة 2008 - 2011[10]. والمرتبة الثالثة في عدد طلبات اللجوء الجديدة (100,000 طلب) عام 2014، بعد السوريين الذين احتلوا المرتبة الثانية، ومعظم طلبات العراقيين كانت مقدمة في تركيا، الأردن، لبنان، ألمانيا، والسويد[11].

وبحسب الأمم المتحدة فإن اللاجئين العراقيين هم أكثر اللاجئين تشتتا في

**الجدول (1)**

**طالبو اللجوء للمرة الأولى من المنطقة العربية في الاتحاد الأوروبي عام 2016**

| البلد | عدد طلبات اللجوء للمرة الأولى | النسبة المئوية من طالبي اللجوء من المنطقة العربية | النسبة المئوية من طالبي اللجوء من كل المناطق |
|---|---|---|---|
| العراق | 127,000 | 23,6 | 10,5 |
| الجزائر | 11,165 | 0,9 | 0,9 |
| سوريا | 334,830 | 62,3 | 27,8 |
| السودان | 11,085 | 2,1 | 0,9 |
| الصومال | 18,960 | 3,5 | 1,6 |
| فلسطين | 2,495 | 0,5 | 0,2 |
| لبنان | 6,155 | 1,1 | 0,5 |
| ليبيا | 4,320 | 0,8 | 0,4 |
| مصر | 4,510 | 0,8 | 0,4 |
| المغرب | 11,190 | 2,1 | 0,9 |
| البلدان العربية الأخرى | 6,140 | 1,1 | 0,5 |
| المجموع | 537,850 | 100 | 45 |

**المصدر: الإسكوا والمنظمة الدولية للهجرة، تقرير حالة الهجرة الدولية لعام 2017 (بيروت: 2018)، ص، 26.**

العالم؛ إذ يتوزعون على ثمانين بلدا. هذا إضافة إلى البلدان الأخرى التي يقيمون فيها ولكن ليس بصفة لاجئين ومن الصعب معرفة أعدادهم فيها بدقة مثل البلدان العربية التي لا تنشر إحصاءات مفصلة عنهم[12].

في منتصف عام 2016، كان نحو 46 في المئة من جميع اللاجئين في العالم من المنطقة العربية، أكثرهم من العراق وسوريا والصومال والسودان. ويمثل السوريون ثلث اللاجئين في العالم. وفي حين بقي معظم اللاجئين من البلدان العربية في المنطقة العربية، إلا أن أعدادا كبيرة منهم توجهت إلى أوروبا وأفريقيا وأمريكا الشمالية. واستقبل الاتحاد الأوروبي أكثر من مليون طلب لجوء للمرة الأولى من المنطقة العربية بين عامي 2015 و2016 (تقريبا 550,000 و540,000 على التوالي)، بزيادة كبيرة عن 41,000 عام 2010. ويمثل طالبو اللجوء من المنطقة العربية 45 في المئة من جميع المتقدمين بطلبات اللجوء في الاتحاد الأوروبي عام 2016. ويشكل السوريون تقريبا 28 في المئة منهم[13]. ويأتي العراقيون في المرتبة الثانية ثم الصوماليون والمغاربة[14] (الجدول 1). علما أن أوروبا تسلمت 1,2 مليون طلب لجوء جديد عام 2016. وهذه الطلبات تعود بشكل رئيس إلى العراقيين والسوريين والأفغان، بنسبة 9 في المئة أعلى من عام 2015[15]. واحتل طالبو اللجوء للمرة الأولى من السوريين المرتبة الأولى في بلدان الاتحاد الأوربي بعدد بلغ 102,415 نسمة، وتلاهم العراقيون بعدد 47,560 نسمة عام 2017[16].

كانت الدول الثمانية والعشرون الأعضاء في الاتحاد الأوروبي قد منحت حالة الحماية لـ 710400 طالب لجوء عام 2016. وكان العراقيون ثاني أكبر مجموعة استفادت من هذه الحماية بعدد بلغ 65800 أو 9 في المئة من مجموع الأشخاص الذين منحوا هذه الحماية، علما أن السوريين احتلوا المرتبة الأولى بعدد بلغ 405600، أو 57 في المئة من المجموع. وفي المرتبة الثالثة حل الأفغان بعدد 61800 أو 9 في المئة.

وقد بلغت نسبة القرارات الإيجابية بمنح الحماية والمتخذة لأول مرة في بلدان الاتحاد 63,5 في المئة للعراقيين، و98,1 في المئة للسوريين، و65,7 في المئة للصوماليين و52,3 في المئة للسودانيين و5,2 في المئة للجزائريين[17].

ومنحت دول الاتحاد حالة الحماية لـ تقريبا 333400 طالب لجوء عام 2018. وأكبر مجموعة استفادت من ذلك هم السوريون أيضا بواقع 96100 نسمة أو 29 في المئة من مجموع الأشخاص الذين منحوا هذه الحماية. وجاء بعدهم الأفغان (53500 أو 16 في المئة) ثم العراقيون (24600 أو 7 في المئة)، مقارنة بعام 2017 عندما كانت الأرقام 172900 أو 32 في المئة، و99800 أو 19 في المئة، و63800 أو 12 في المئة على التوالي[18].

وعن توزيع اللاجئين العراقيين على

الدول نرى أن أكبر عدد يوجد في ألمانيا 86,045، وأقل عدد في بلغاريا 1385 نهاية عام 2016 (الجدول 2)، علما أن هذه الأرقام متحركة وهي لا تعني العدد الكلي للعراقيين في هذه البلدان.

أما توزيع طالبي اللجوء العراقيين للمرة الأولى في البلدان الأوروبية عام 2018، فنرى أن أكبر عدد في ألمانيا (16330) وأقل عدد في كرواتيا (55) (الجدول 3).

**الجدول (2)**

**عدد اللاجئين العراقيين* باستثناء طالبي اللجوء بحسب بلدان اللجوء، نهاية 2016**

| بلد اللجوء | العدد | بلد اللجوء | العدد |
|---|---|---|---|
| النمسا | 5555 | اليونان | 8161 |
| بلجيكا | 4000 | إيطاليا | 4264 |
| بلغاريا | 1385 | هولندا | 12740 |
| فنلندا | 6781 | النرويج | 2855 |
| فرنسا | 6043 | السويد | 21693 |
| ألمانيا | 86045 | سويسرا | 3494 |
| المملكة المتحدة | 3687 | الولايات المتحدة | 6082 |
| أستراليا | 3437 | كندا | 2421 |
| مصر | 4362 | الأردن** | 33118 |
| تركيا | 30398 | لبنان | 6454 |
| إيران | 28268 | سوريا*** | 16879 |

*** أعداد اللاجئين في هذا الجدول تحسب إذا كانت 1000 لاجئ أو أكثر في نهاية عام 2016.**

**** هذا العدد يعود إلى العراقيين المسجلين كلاجئين من قبل المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة. أما الحكومة الأردنية فتقدر عدد العراقيين بـ 400,000 نسمة في نهاية آذار/ مارس 2015. وهذا الرقم يشمل اللاجئين وأصنافا أخرى من العراقيين.**

***** هذا الرقم يعود إلى تقديرات حكومية.**

**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى UNHCR, Statistical Yearbook 2016 (Geneva: 2017), p. 34.**

**الجدول (3)**

**عدد طالبي اللجوء العراقيين للمرة الأولى في البلدان الأوروبية، 2018**

| البلد | العدد | البلد | العدد |
|---|---|---|---|
| بلجيكا | 893 | رومانيا | 970 |
| بلغاريا | 620 | المملكة المتحدة | 3595 |
| ألمانيا | 16330 | فنلندا | 565 |
| اليونان | 9640 | النرويج | 95 |
| هنغاريا | 215 | لوكسمبورك | 185 |
| هولندا | 745 | أيسلندا | 110 |
| النمسا | 635 | كرواتيا | 55 |

**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى:**

**https://ec.europa.eu/eurostat/statistics-explained/index.php?title=File:Five_main_citizenships_of_(non-EU)_asylum_applicants,_2018_(number_of_first_time_applicants,_rounded_figures)_YB19_1.png**

وعلى صعيد هجرة الكفاءات العراقية إلى دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، فقد ارتفع عددها بقوة من 34255 عام 1990 إلى 95086 عام 2000 [19]. وقسم مهم من هذه الهجرة هي هجرة لجوء، وتغيرت نسبة توزيع الكفاءات، حيث باتت أوروبا تستقطب النسبة الأكبر بعد أن كانت أمريكا تحتل هذه المرتبة. في حين ارتفعت نسبة آسيا والمحيط قليلا للفترة 1990 – 2000 (الشكل 3).

في الفترة 1999 - 2003 كانت نسبة العراقيين ذوي الكفاءة العالية في السويد (6,8 في المئة) والدنمارك (4 في المئة) وهولندا (3,5 في المئة) وفنلندا (1,2 في المئة) في حين كانت النسب الأعلى للإيرانيين (6,9 في المئة) والنرويجيين (6,2 في المئة) والاندونيسيين (15,1 في المئة) والروس (34 في المئة) والنسب الأقل للهنود (1,3 في المئة) والأفغان (1,4 في المئة) والأفغان أيضاً (2,2 في المئة) والأثيوبيين (0,7 في المئة) بحسب الدول المقيمين بها على التوالي[20]. وهذه النسب تعكس إقرار مصادر الدول المتقدمة بالكفاءات المقيمة في أراضيها ومنها العراقية.

**الشكل (3)**

**التغير في هجرة الكفاءات العراقية إلى دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، 1990 - 2000 (النسبة المئوية)**

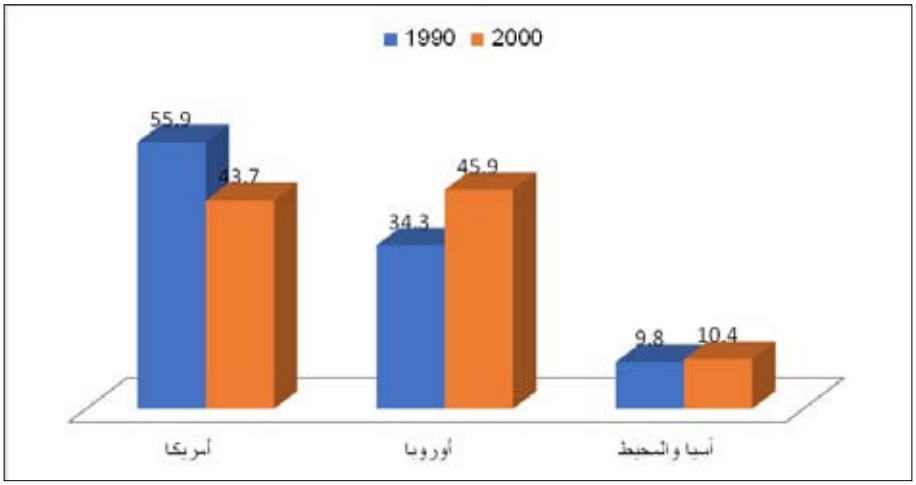


**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى: جامعة الدول العربية، التقرير الإقليمي لهجرة العمل العربية، هجرة الكفاءات نزيف أم فرص؟ (القاهرة: 2008)، ص 53.**

لا تشهد البلدان الأوروبية هجرة اللجوء الوافدة فقط، بل هناك هجرة معاكسة من هذه البلدان إلى خارجها. وتختلف وتيرة هذه الهجرة باختلاف أوضاع هذه البلدان الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية، وباختلاف ظرف المجموعات اللاجئة والمهاجرة خصوصا ظروف بلدانها الأصلية. وإذا أخذنا السويد مثالا نجد أن أكبر عدد من الهجرة المغادرة يعود إلى العراقيين، وهي أكثر وسط الرجال مقارنة بالنساء عامي 2017 و2018. أما السوريون والصوماليون والإيرانيون والأتراك فتتراوح هجرتهم هذه بين 299 و612 نسمة في الفترة نفسها، وينخرط فيها الرجال أكثر من النساء أيضا (الشكل 4 والجدول 4).

من الصعب معرفة العدد الإجمالي للعراقيين في أوروبا لعدة أسباب منها أن الإحصاءات الرسمية دأبت على عدم ذكره. ثم أن العدد عنصر متحرك حيث الهجرة مستمرة من العراق، وهناك تكاثر ناتج من الولادات الجديدة في الخارج، وكذلك الوفيات وكثير من هذه الولادات والوفيات غير

**الشكل (4)**

**مجموع الهجرة المغادرة من السويد بحسب بلد الأصل، 2017 - 2018**

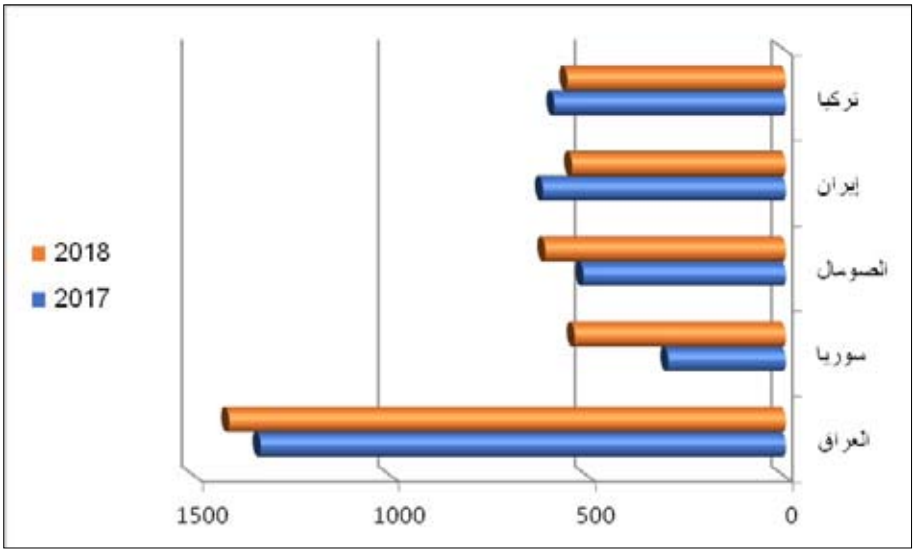


**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى الجدول (4).**

**الجدول (4)**

**الهجرة المغادرة من السويد بحسب بلد الأصل والجنس، 2017 - 2018**

| بلد الأصل | 2017 | | | 2018 | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | رجال | نساء | المجموع | رجال | نساء | المجموع |
| العراق | 728 | 608 | 1336 | 789 | 627 | 1416 |
| سوريا | 172 | 127 | 299 | 302 | 235 | 537 |
| الصومال | 263 | 252 | 515 | 334 | 278 | 612 |
| إيران | 331 | 287 | 618 | 305 | 239 | 544 |
| تركيا | 378 | 211 | 589 | 363 | 193 | 556 |

**المصدر: الجدول من إعداد الباحث استنادا إلى مكتب الإحصاء المركزي السويدي**
**Statistics Sweden (scb.se)**

موثق في السجلات الرسمية العراقية. ثم هناك دول تحذف الحاصلين على جنسيتها من دولهم الأصلية، وتدخلهم في سجلات مواطنيها.

**هولندا**

في السنوات الماضية، جاءت أعداد أقل من اللاجئين من العراق وأرتيريا وإيران وأفغانستان، في حين جاء أكثر اللاجئين إلى هولندا من سوريا خصوصا. وقد بلغت هجرة اللجوء ذروتها عام 2016. وإن أكثر من 20 في المئة من المهاجرين الوافدين من هذه البلدان في ذات السنة هم من أفراد الأسر التابعين للاجئين[21].

بالنسبة إلى طالبي اللجوء من العراق وأفغانستان وإيران ودول أخرى واضح أن الأشخاص الذين جاؤوا بعد عام 2014 من الصعب أن يحصلوا على الإقامة مقارنة بأولئك الذي جاءوا عام 2014. وبالنسبة إلى فئة طالبي اللجوء التي جاءت عام 2015 وبعد 30 شهرا من وجودها في مراكز الاستقبال فإن 1900 شخص منهم (4,3 في المئة) لم يحصلوا على الإقامة. أكثر من نصف هذه المجموعة هم من العراقيين أو من الأفغان. وحصلت نسبة 90 في المئة من جميع طالبي اللجوء من السوريين والأرتيريين الذين كانوا في مراكز استقبال طالبي اللجوء في أعوام 2014 و2015 و2016، على إقامة طالب لجوء لفترة محددة بعد 12 شهرا على وجودهم. هذا النسبة تعد مرتفعة جدا مقارنة بطالبي اللجوء من الجنسيات الأخرى، حيث تنخفض ولذات الوقت إلى 12 - 57 في المئة. وحوالي 98 في المئة من السوريين والأرتيريين حصلوا على الإقامة في غضون سنة ونصف، إذ حصل هؤلاء على الإقامة أسرع بكثير مقارنة بالقادمين من العراق وبلدان أخرى[22]. وهذا يعود إلى قرارات سياسية تتخذها السلطات الهولندية، تقلل بموجبها من منح اللجوء لجنسيات معينة.

ويؤكد الشكل (5) هذا التوجه، حيث نرى أن نسبة قبول طالبي اللجوء العراقيين كلاجئين تبلغ 39 في المئة، في حين ترتفع في حالة الأرتيريين إلى 88,5 في المئة، والسوريين 85 في المئة، والأتراك حوالي 81 في المئة [23]. وهذا شيء لافت لأن الغالبية الساحقة من الأتراك في هولندا هم ليسوا لاجئين وإنما عمالة مهاجرة، وربما تقف من وراء ذلك دوافع سياسية. أما نسبة الرفض فهي عالية وسط المغاربة والجزائريين والجورجيين، و100 في المئة وسط الألبانيين، على اعتبار أن البلدان التي ينحدر منها هؤلاء الأشخاص تعد مستقرة.

**الشكل (5)**

**القرارات الأولى المتعلقة بطلب اللجوء بحسب الجنسية في هولندا، 2017 (النسبة المئوية)**

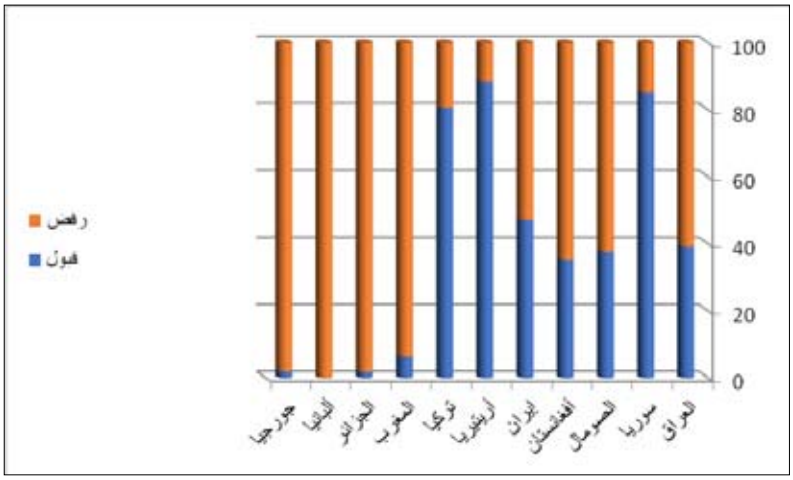


**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى:**

**Vluchtelingen Werk Nederland, Vluchtelingen in getallen 2018 (Nederland:19 Juli 2018), p. 16.**

من الشكل (6) والجدول (5) يتبيّن أن أكبر جالية لاجئة في هولندا عام 2020 هي الجالية السورية (105 الاف)، تأتي بعدها الجالية العراقية (65 ألفا)، وأكبر جالية مهاجرة هي الجالية التركية (417 ألفا)، تأتي بعدهم الجالية المغربية (409 الاف).

**الشكل (6)**

**أعداد الجاليات اللاجئة والمهاجرة في هولندا عام 2020**

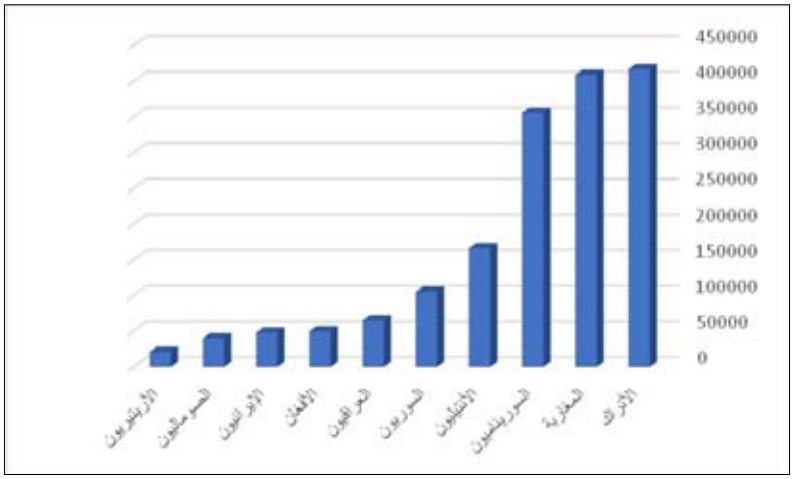


**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى الجدول (5).**

**الجدول (5)**

**تطور أعداد الجاليات اللاجئة والمهاجرة في هولندا للفترة 2010 - 2020 (الأعداد بالألف)**

| الجاليات | 2010 | 2012 | 2014 | 2016 | 2018 | 2020 | 2020 | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | | | | | | | النسبة المئوية من مجموع السكان | النسبة المئوية للجيل الثاني |
| الأتراك | 384 | 393 | 396 | 397 | 404 | 417 | 2,4 | 53 |
| المغاربة | 349 | 363 | 375 | 386 | 397 | 409 | 2,3 | 58 |
| السوريناميون | 342 | 347 | 348 | 349 | 352 | 356 | 2,0 | 50 |
| الأنتيليون | 138 | 144 | 147 | 151 | 157 | 166 | 1,0 | 46 |
| السوريون | - | - | - | 44 | 91 | 105 | 0,6 | 13 |
| العراقيون | 52 | 53 | 54 | 56 | 61 | 65 | 0,4 | 30 |
| الأفغان | 39 | 41 | 43 | 44 | 48 | 50 | 0,3 | 29 |
| الإيرانيون | 32 | 34 | 37 | 38 | 42 | 48 | 0,3 | 24 |
| الصوماليون | 27 | 34 | 37 | 39 | 40 | 40 | 0,2 | 38 |
| الأريتيريون | - | - | - | 8 | 15 | 21 | 0,1 | 13 |
| مجموع الجاليات من البلدان غير الغربية | 1858 | 1938 | 1998 | 2097 | 2243 | 2392 | 13,7 | 44 |
| مجموع الجاليات من البلدان الغربية | 1501 | 1556 | 1597 | 1655 | 1729 | 1829 | 10,5 | 49 |
| مجموع الهولنديين | 13215 | 13236 | 13234 | 13226 | 13209 | 13187 | 75,8 | - |
| مجموع سكان هولندا | 16574 | 16730 | 16829 | 16979 | 17181 | 17408 | 100 | - |

**المصادر: من إعداد الباحث استنادا إلى:**

**CBS, Jaarrapport Integratie 2010, p. 33, CBS, Jaarrapport Integratie 2012, p. 37, CBS, Jaarrapport Integratie 2014, p. 26, CBS, Jaarrapport Integratie 2016, pp. 26, 38, CBS, Jaarrapport Integratie 2018, p. 29, CBS, Jaarrapport Integratie 2020, p. 35. https://opendata.cbs.nl/statline/#/CBS/nl/dataset/37296ned/table?ts=1568375261517**

## البنية العمرية والنوعية

ارتفع متوسط عمر العراقيين في هولندا من 37 إلى 39 سنة للجيل الأول، وظل على المستوى نفسه وهو 9 سنوات للجيل الثاني، لأن أغلبه حديث الولادة في هولندا. ومقارنة بالمجموعات اللاجئة يلاحظ أقل متوسط عمر وسط الأريتيريين 24 سنة والسوريين 28 سنة للجيل الأول عام 2016 (الشكل 7). وهذا راجع إلى ارتفاع نسبة الشباب وسطهم، وحداثة هجرتهم إلى هولندا، أما أعلى متوسط عمر فيعود إلى الإيرانيين 42 سنة للجيل الأول عام 2016، وهو أعلى حتى من متوسط الأنتيليين وهم مجموعة مهاجرة قديمة في هولندا، علما أن المتوسط يتراوح بين المجموعات المهاجرة الأخرى مثل

المغاربة والأتراك والسوريناميين بين 47 - 51 سنة للجيل الأول للعام نفسه. وبالنسبة إلى السوريين والأرتيريين الذين وصلوا حديثا إلى هولندا فإن 40 في المئة منهم تقل أعمارهم عن 20 سنة. أما الذين أمضوا وقتا أطول في هولندا فتكون نسبتهم 33 في المئة. ويلاحظ بأن واحدا من عشرة من المجموعتين ولد في هولندا. وبالنسبة إلى الصوماليين تكون النسبة واحدة من ثلاث. ويكون في المتوسط عمر الجيل الثاني للمجموعات اللاجئة أقل من عمر الأشخاص من جاليات البلدان غير الغربية [24] في هولندا.

بالنسبة إلى البنية الجنسية (النوعية) للعراقيين في هولندا، يمثل الذكور الغالبية خصوصا الجيل الأول (56,4 في المئة) عام 2018. وقد كانت النسبة أعلى (58,6 في المئة) عام 2008 لكنها انخفضت بسبب ارتفاع نسبة الجيل الثاني الذي يكون الفرق وسطه بين الجنسين أقل؛ إذ بلغت 51,7 في المئة للذكور عام 2018 (الشكل 8). وهي عموما تشبه بنية العراقيين في بلدان اللجوء الأخرى، فيمثل الذكور في النرويج 67 في المئة، وفنلندا 59 في المئة [25] ، والدنمارك 54,7 في المئة عام 2017 [26]. وفي السويد بلغت نسبة المهاجرين العراقيين الذكور 56,7 في المئة و55,3 في المئة عامي 2017 و2018 على التوالي[27]. وفي هولندا تظل النسبة أعلى مقارنة

**الشكل (7)**

**متوسط العمر للمجموعات اللاجئة والمهاجرة في هولندا، 2016**

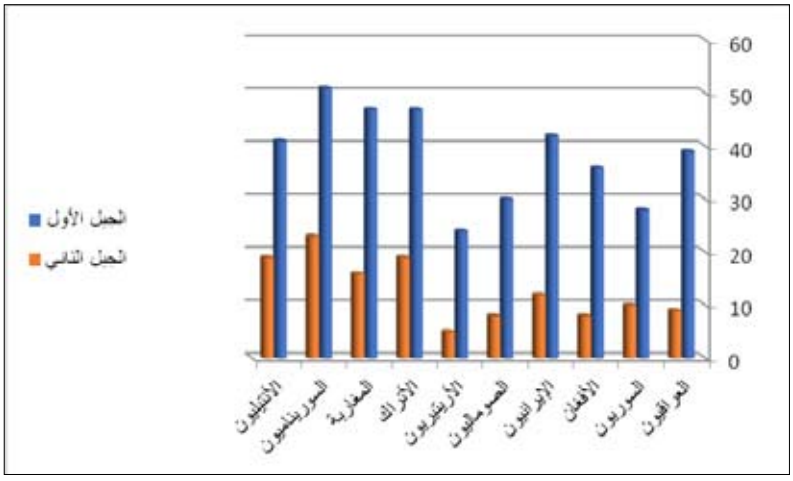


**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى:**

**CBS, Jaarrapport Integratie 2016, pp. 26, 38, CBS, Jaarrapport Integratie 2014, p. 26**

بالمجموعات المهاجرة الأخرى. وكانت النسبة بين الذكور والإناث متوازنة تقريبا في الفئتين العمريتين 0 - 14 و65 وأكثر وتشكل نسبة الذكور 61,5 في المئة في الفئة 30 – 44 [28]. وهذا يعود لحداثة هجرة العراقيين كما أسلفنا وارتفاع نسبة الشباب الذكور في الهجرة. ومقارنة بالبنية الجنسية في العراق، وبحسب اسقاطات عام 2017 بلغت نسبة الذكور في العراق 50,5 في المئة [29]. علما أن آخر تعداد في 1997 يثبت أن نسبة الإناث عند 51,3 % وهذه النسبة لا يمكن أن تكون واقعية، نتيجة لخسائر الحروب واستمرار الهجرة[30] التي غالبيتها من الرجال.

**الهجرة المغادرة من هولندا**

نلاحظ من الجدول (6) أن الهجرة المغادرة وسط العراقيين، كانت أعلى من الهجرة الوافدة في الفترتين 2005 - 2006، 2011 - 2013، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأفغان للفترة 2005 - 2008 فقط، أما الإيرانيون فينطبق عليهم هذا التوجه خلال الفترة 2005 - 2006 فقط، والمغاربة للفترة 2006 - 2007، فقط، والأتراك خلال الفترتين 2006 - 2007 و2012 - 2015. وهذا يعني أنه في أغلب سنوات الفترة 2005 - 2017 كانت الهجرة الوافدة هي أعلى من الهجرة المغادرة، وهذا يعكس أسباب استمرار الهجرة من هذه البلدان.

**الشكل (8)**

**البنية الجنسية (النوعية) للعراقيين في هولندا، 2018 (النسبة المئوية)**

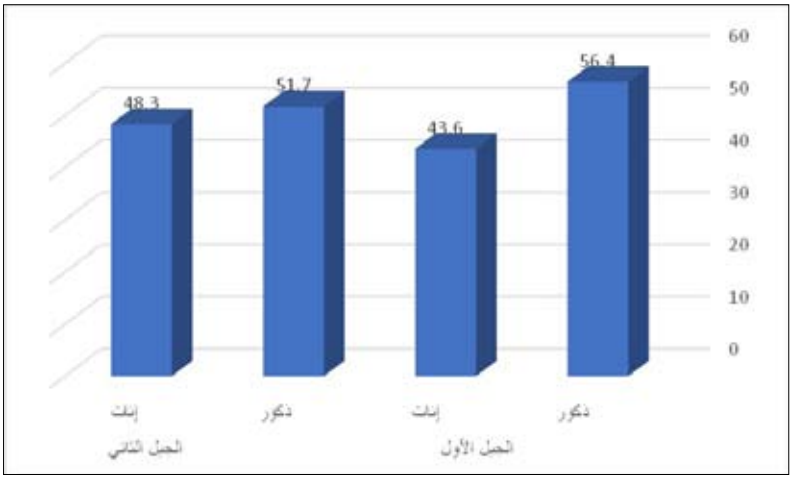


**المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى مكتب الإحصاء المركزي الهولندي:**

**https://opendata.cbs.nl/statline/#/CBS/nl/dataset/37713/table?ts=1561470017226**

**الجدول (6)**

**الهجرة الوافدة والهجرة المغادرة لعدد من المجموعات اللاجئة والمهاجرة في هولندا، بحسب بلد المولد، 2005 - 2017 (بضمنها صافي التصحيح الإداري بالنسبة إلى الهجرة المغادرة)**

| | | 2005 | 2006 | 2007 | 2008 | 2009 | 2010 | 2011 | 2012 | 2013 | 2014 | 2015 | 2016 | 2017 |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| العراق | الوافدة | 1052 | 1215 | 2204 | 4116 | 3765 | 2193 | 1956 | 1887 | 1803 | 1509 | 1535 | 3446 | 2077 |
| | المغادرة | 1656 | 1722 | 1258 | 981 | 1483 | 2077 | 2112 | 2013 | 1806 | 1196 | 1226 | 1107 | 1164 |
| أفغانستان | الوافدة | 773 | 648 | 521 | 620 | 1094 | 1679 | 1768 | 1354 | 1259 | 910 | 970 | 2436 | 1201 |
| | المغادرة | 1149 | 1256 | 928 | 820 | 705 | 863 | 963 | 1054 | 945 | 875 | 931 | 696 | 811 |
| إيران | الوافدة | 575 | 678 | 837 | 1015 | 1267 | 1480 | 1849 | 1533 | 1550 | 1165 | 1255 | 2637 | 1963 |
| | المغادرة | 797 | 715 | 397 | 489 | 575 | 682 | 730 | 730 | 723 | 679 | 698 | 703 | 839 |
| المغرب | الوافدة | 2356 | 2085 | 1724 | 2117 | 2388 | 2371 | 2675 | 2272 | 2326 | 2373 | 1963 | 2274 | 2546 |
| | المغادرة | 1981 | 2392 | 2249 | 2065 | 1496 | 1541 | 1546 | 1807 | 1512 | 1605 | 1402 | 1316 | 1279 |
| تركيا | الوافدة | 3393 | 3175 | 2855 | 4048 | 4099 | 4460 | 4065 | 3887 | 3809 | 3570 | 3747 | 4514 | 5928 |
| | المغادرة | 2872 | 3321 | 2879 | 2728 | 2522 | 3099 | 3321 | 4028 | 4447 | 5171 | 4520 | 3801 | 3704 |

**المصادر: من إعداد الباحث استنادا إلى:**

**CBS, Jaarrapport Integratie 2010, p. 33, CBS, Jaarrapport Integratie 2012, p. 37, CBS, Jaarrapport Integratie 2014, p. 26, CBS, Jaarrapport Integratie 2016, pp. 26, 38, CBS, Jaarrapport Integratie 2018, p. 29, CBS, Jaarrapport Integratie 2020, p. 35. https://opendata.cbs.nl/statline/#/CBS/nl/dataset/37296ned/table?ts=1568375261517**

علما أن الهجرة من هولندا ازدادت عموما في الخمس عشرة سنة الماضية وسط المجموعات اللاجئة الأربع (العراقيون، الصوماليون، الأفغان، الإيرانيون)؛ ففي العام 2005 كانت الهجرة المغادرة بالنسبة إلى جميع هذه المجموعات أعلى من الهجرة الوافدة. وهذا ينطبق بقوة على الصوماليين، حيث في عامي 2003 و2004 انخفضت الهجرة بأكثر من ألفي نسمة سنويا[31].

أما السوريون، واستنادا إلى دراسة نشرها مكتب التخطيط الاجتماعي والثقافي والذي استفتى 3200 سوري قبلوا كلاجئين في السنوات الماضية ويحملون الإقامة، فإن 55 في المئة منهم ترغب في البقاء في هولندا، بغض النظر عمّا إذا تحسن الوضع في بلدهم أم لا. وهذه النسبة هي أعلى مقارنة بالمجموعات المهاجرة الأخرى[32]. وهذا يعكس قوة استمرار الأسباب الدافعة للهجرة من سوريا.

**الهوامش:**

1- Philip Marfleet, Refugees in a Global Era (New York: Palgrave Macmillan, 2006), pp. 21-23.

2- جامعة الدول العربية، الهجرة القسرية في المنطقة العربية: نظرة عامة حول الأزمة وجهود جامعة الدول العربية (القاهرة: د.ت)، ص 3.

3- فاضل الأنصاري، مشكلة السكان: نموذج القطر العراقي (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1980)، ص 126.

4- من الجدير بالذكر، أن اللاجئين وطالبي اللجوء مصطلحان غالبا ما يُستخدمان بطريقة ملتبسة. فالمصطلح الأول يكون عاما، أما الثاني فهو مصطلح قانوني يتعلق باللاجئين الذين قدموا طلبا للجوء (السياسي)، وطلباتهم ما زالت في طور النظر فيها من قبل سلطات بلدان الاستقبال.

5- UNHCR, Refugees and Others of Concern to UNHCR (Geneva: July, 2000). Tables, VI, 4. p.110. and VI .6. p. 112

6- UNHCR, Statistical Yearbook (Geneva: 2001), pp.11.5-11.6

7- UN, World Population Monitoring (New York: 1998), p. 18.

8- UNHCR, Refugees and Others of Concern to UNHCR, Tables, VI, 4. p.110. and VI .6. p. 112

9- هاشم نعمة فياض، العالم العربي: دراسات في المتغيرات السكانية ونظرياتها، ط 1 (عمّان: دار غيداء للنشر والتوزيع)، ص 295.

10- UNHCR, Statistical Yearbook 2011, p. 2.

11- UNHCR, Statistical Yearbook 2014 (Geneva: 2014), p. 54.

12- هاشم نعمة فياض، العراق: دراسات في الهجرة السكانية الخارجية (بغداد: دار الرواد للنشر والتوزيع)، ص 14.

13- (13) احتل السوريون المرتبة الأولى في العالم في عدد اللاجئين العام 2017، بعدد 6,3 مليون لاجئ، تبعهم الأفغان 2,6 مليون وجنوب السودان 2,4 مليون وميانمار 1,2 مليون والصومال 986,400 نسمة. أنظر:
UNHCR, Global Trends: Forced Displacement in 2017 (Geneva: 2016), p. 3.

14- الإسكوا والمنظمة الدولية للهجرة، تقرير حالة الهجرة الدولية لعام 2017 ( بيروت: 2017)، ص، 26-24.

15- UNHCR Global Report 2016, p. 89.

16- Vluchtelingen Werk Nederland, Vluchtelingen in getallen 2018 (Nederland:19 Juli 2018), p. 35.

17- Eurostat News release 26 April 2017, pp. 1, 4.

18- Eurostat News release 25 April 2019, p. 1.

19- جامعة الدول العربية، التقرير الإقليمي لهجرة العمل العربية، هجرة الكفاءات نزيف أم فرص؟ (القاهرة: 2008)، ص 53.

20- Louka T. Katseli et la, Effects of Migration on Sending Countries What do We Know? (Italy: OECD, 2006), Table A1, pp. 64-69.

21- CBS, Jaarrapport Integratie 2018 (Den Haag| Heerlen| Bonaire: November, 2018), p. 25.

22- CBS, Asiel en integratie, Cohortonderzoek asielzoekers en statushouders 2019, pp. 27-29.

23- .Vluchtelingen Werk Nederland, p. 16

24- .CBS, Jaarrapport Integratie 2016, p. 37

25- أنظر: فياض، العراق، ص 35.

26- النسبة من حساب الباحث استنادا إلى: Statistical Yearbook of Denmark 2017, Table 9

27- النسبة من حساب الباحث استنادا إلى مكتب الإحصاء المركزي السويدي (Statistics Sweden (scb.se

28- من حساب الباحث استنادا إلى مكتب الإحصاء المركزي الهولندي، 2008. Centraal Bureau voor de Statistiek (cbs.nl)

29- النسبة من حساب الباحث استنادا إلى الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية (بغداد: 2017)، الجدول 2|7، ص 60.

30- أنظر: فياض، العراق، ص 35.

31- CBS, Jaarrapport Integratie 2016, pp. 36-37.

32- NRC, Handelsblad, 16-05-2019.

# في أسباب انحسار انتفاضة تشرين

**محمد الكحط**

**محمد كحط عبيد الربيعي، بكالوريوس علوم زراعية جامعة بغداد، كلية الزراعة، سنة 1978م. ماجستير في الإعلام والإتصال سنة 2007م. دكتوراه في الاعلام والاتصال سنة 2011م. عضو نقابة الصحفيين العراقية والسويدية والعالمية ستوكهولم السويد.**

**مقدمة:**

أيقظت انتفاضة تشرين المجيدة الحس الثوري في العراق، وهي تعد أهم حدث في تاريخه الحديث، قام به أحفاد ثورة العشرين عشية مرور قرن على ثورة أجدادهم العظام؛ فهي انتفاضة، وهيّ حدث ثوري شعبي، يعتبرها البعض ثورة ناقصة. كما اشار الدكتور فارس كمال نظمي حيث قال ان "مصطلح الثورة لا يطلق فقط في حالات انتصار الحراك الشعبي وقدرته على إحداث التغيير الفوري للأنظمة السياسية والبنى الاجتماعية، بل إنه في جذره الأساسي يمثل أقصى لحظة (سياسية/ اجتماعية/ اقتصادية/ ثقافية) صراعية احتجاجية فارقة بين الماضي والمستقبل، مهما طال استعصاء الجديد على الولادة في مقابل استعصاء القديم على الزوال. ولحظة تشرين 2019 بهذا المعنى فقد مثلت أقصى حدث ثوري شعبي في تاريخ الدولة العراقية منذ قرن من الزمن"[1].

شكلت انتفاضة تشرين انعطافه في مسار الحركة الثورية العراقية، وأحيت الشعور الوطني وساهمت في إعادة الهوية الوطنية العراقية التي غيبتها سياسة المحاصصة الطائفية، وكسرت حاجز الخوف من أجهزة السلطة القمعية، وإشاعة روح التحدي، وفضحت خضوع المتنفذين للدول الأجنبية، وكشفت حقدهم الدفين على كل ما هو وطني وديمقراطي. فهي خطوة عملية جريئة وهنا نتذكر قول ماركس: "كل خطوة عملية تخطوها الحركة أهم من دزينة برامج".

**في هذا السياق نشير هنا الى عدة نقاط:**

1- مواقع التواصل الاجتماعي والمنصات الالكترونية المختلفة كان لها أثر ايجابي على مسار الانتفاضة لقدرتها على سرعة وسهولة التواصل والتنظيم مع جميع الفصائل ومعرفة مواقفهم، أولاً بأول.

2 - أدى التراكم الكمي إلى تغيير كيفي، فقد أدت التراكمات الكمية والتي أسهمت في

تأجيج غضب الجماهير وشعورهم بالظلم إلى تغيير في تفكير وحياة الإنسان.

لقد وصلت حالات الفساد الى مستويات غير طبيعية، وأدخلت البلاد في مستقبل مظلم، وبسبب إخفاق القوى المتسلطة في دفع مسيرة البلاد الى النهج الصحيح، تحول مزاج الجماهير من حالة الهدوء النسبي الى الانتفاضة على الأوضاع المزرية. هذه التراكمات وما سبقها من حملات الاحتجاجات والمظاهرات والهبّات والاعتصامات الرافضة لنظام المحاصصة الطائفية والفساد المدعوم بسلطة الميليشيات المسلحة وأتباعها منذ 2010/ 2011 واحتجاجات 2015 وصولا الى انتفاضة تشرين 2019، أوصلت وعي الجماهير إلى حالة المطالبة بالتغيير الكيفي، لكنه للأسف لم يتحول الى ثورة. أي أن التراكمات الكمية لم تبلغ الذروة، لكن لم يصبح التغيير حتميا، فإن ذلك يحتاج الى تراكم أكبر وتحت ظروف أفضل؛ فالظروف الذاتية والموضوعية لم تكن ناضجة لعدة أسباب، منها:

**لماذا لم تبلغ انتفاضة تشرين مرحلة الثورة...؟**

نعود الى صراع الأضداد، فوجودهما معا يجعل أحدهما يقاوم الآخر، ويحصل التغيير عندما تصل التراكمات التدريجية إلى درجة يصبح فيها التغيير حتمياً، ويتحول الى ثورة، فلا الشعب قادر على العيش بهذه الظروف، ولا السلطات الحاكمة قادرة على البقاء والتحكم بالجماهير وبمصير البلاد.

- القوى التي جاءت مع المحتل - وهي السائدة - تحالفت مع قوى طفيلية محلية لتشابك مصالحهما معا، بالإضافة الى وجود قوى دينية ورجعية، وقوى أخرى تريد العودة للنظام الدكتاتوري السابق. وبسبب الاقتصاد الريعي وعدم توفر فرص العمل اضطر الكثير الى الالتحاق بالجيش والشرطة والحشد الشعبي والقوى الأمنية الأخرى، وهؤلاء بالضرورة يسيرون في كنف القوى المتنفذة، ناهيك عن قوى أخرى مرتبطة مع أنظمة خارجية. هذه القوى تتصارع في ما بينها، لكن مصالحها مرتبطة مع بعض.

من جهة أخرى، هناك قوى تقدمية ووطنية وديمقراطية وشعبية، تريد بناء دولة وطنية ديمقراطية، تسود فيها العدالة الاجتماعية.

هنا يتصارع النقيضان: فالقوى التقدمية في حالة نضال من أجل أن تخلق وعيا جماهيريا إلى أن يصل الأمر لمرحلة ثورية. هذه الانتفاضة أوجدت وعيا وطنيا وثوريا وأيقظت شعبنا من سبات عميق.

**الظروف الذاتية والموضوعية وراء انحسار انتفاضة تشرين المجيدة:**

**اولاً- الظروف الذاتية لانحسار انتفاضة تشرين المجيدة**

1 - عدم وجود تجانس طبقي: القوى التي ساهمت في الانتفاضة، تمتد من أقصى اليمين الى أقصى اليسار، تتصدرها مجاميع من الشباب والشابات، من الطلبة والخريجين العاطلين عن العمل ومن الكسبة، والمثقفين والفنانين، من العوائل الفقيرة المعدمة والكادحين والفئات الوسطى، ونسبة كبيرة منهم لم تشترك سابقاً بأي نشاط سياسي.

2 - وعي القوى والفئات المساهمة في الانتفاضة: هي خليط من وعي سياسي ووطني وديمقراطي، من وعي طبقي غير

متجانس، لكنهم جميعاً رفضوا الطائفية وطالبوا بالهوية الوطنية العراقية، وتواجد بعض الفصائل الممثلة للقوى المتنفذة. ولا بد من أن نؤشر الدور المتميز للمرأة العراقية في هذا الحضور الذي فاجأ الجميع.

3 - غياب وحدة المصالح والأهداف: هناك من يريد حصرها بأهداف مطلبية ومهنية، وهناك من رفع شعارات وطنية وديمقراطية، وتجذرت لاحقاً أهداف الحرية والخلاص من نظام المحاصصة والفساد. والبعض رفع شعار "اسقاط النظام"، والبعض يريد الاصلاح فقط وآخرون طالبوا بالتغيير، وصولا الى شعار "أريد وطن"، أي استعادة الوطن المنهوب من القوى الظلامية والطائفية.

4 - غياب التنظيم والفكر: لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية وبدون تنظيم ثوري.

انطلاقا مما سبق فإن من نقاط ضعف الانتفاضة: عدم وجود التنظيم، ولا نظرية فكرية جامعة لها. وكانت بعض الشعارات غير واقعية، منها شعار "لا للأحزاب كافة". وقاموا بحرق مقرات العديد من الأحزاب، منها مقرات الحزب الشيوعي، وهو الموجود طيلة فترة الانتفاضة في قلب الأحداث، موجها ومنبها للأخطاء، ومنطلقا من أن مهمة التنظيم الثوري لا تكون فقط نشر الأفكار الثورية، بل يجب على الثوريين الانخراط في كل المعارك اليومية للجماهير بشكل عام، حتى وان كانت نضالات مطلبية.

افتقار المنتفضين للفكر الثوري أو المعرفة النظرية، فالنظرية ليست ديكورا، بل هي قبل كل شيء، تعميم للتجارب الماضية للجماهير وخبرتها النضالية، وهي دليل للعمل أيضاً.

وهنا على الحزب الشيوعي في حالة تفاعله مع الانتفاضة، أخذ موقف التوازن بين الانخراط في النضالات الجماهيرية وهدفه الاستراتيجي وهذا ليس سهلاً، لقد تحدثت روزا لوكسمبورج في هذا الموضوع قائلةً: "لدينا من جانب الجماهير، ومن الجانب الآخر هدفنا التاريخي ومكانه خارج المجتمع الموجود حاليًا. لدينا من جانب النضال اليومي، ومن جانب آخر الثورة الاشتراكية. هذه هي جوانب التناقض الجدلي الذي يجب من خلاله أن تتطور الحركة الاشتراكية. وبالتالي فإن أفضل وسيلة لتقدم الحركة هي السير ما بين الخطرين اللذين يهددانها بشكل دائم: فقد الطابع الجماهيري أو التخلي عن الهدف النهائي، الثورة الاشتراكية. الاول هو خطر الانزلاق في ظروف الحلقة المعزولة، والثاني هو خطر الانزلاق في حركة إصلاح اجتماعي برجوازي"[2].

أكد فريدريك إنجلز، عام 1874، على أهمية النظرية في بناء الحركة الثورية، بجانب النضال السياسي والنضال الاقتصادي، فهو يضع النضال الفكري على قدم المساواة مع النضال السياسي والنضال الاقتصادي.

على الحزب الشيوعي ان يكون فعلا مع الجماهير في كل نضالاتها. وهذا ما أكده أيضا أنطونيو غرامشي[3] في كتابه (أطروحات ليون) "إن القدرة على قيادة الطبقة العاملة لا علاقة لها بإعلان الحزب نفسه كأداتها الثورية، ولكنها تتعلق بنجاح الحزب بالفعل كجزء من الطبقة العاملة على ربط نفسه بكل قطاعات الطبقة.. فقط من خلال نشاطه في وسط الجماهير يستطيع الحزب أن يكسب اعتراف الجماهير به كحزبهم" [4].

لقد لعب رفاق ورفيقات الحزب الشيوعي دورا جماهيرياً متميزاً رغم الظروف

المعقدة والصعبة والمخاطر التي أحاطت بالانتفاضة منذ بدئها، محاولين ان يرفعوا وعي المنتفضين، وهذا واجب مهم للحزب الشيوعي وكما يقول لينين: "مهمتنا ليست أن ندافع عن تخفيض الثوري إلى مستوى الهاوي، بل رفع الهواة إلى مستوى الثوريين". وهذه ليست مهمة سهلة، في ظروف العراق ووضع المنتفضين، فهذا يحتاج الى جهد استثنائي وفترة زمنية وهذا ما أكده أيضا لينين الذي قال: "تدريب المرء ليكون ثوريا محترفا يستغرق سنوات"[5].

لم يكن من السهل تغيير مفاهيم المنتفضين حول الانتفاضة رغم انخراط رفاق الحزب في معظم المعارك اليومية، وكان مع الجماهير فعلاً، وليس مجرد كلام.

5 - غياب القيادة السياسية الموحدة: للأسف لم تكن هناك وحدة فكرية ولا تنظيمية، وعدم وجود قيادة موحدة للانتفاضة. وتبين التجارب أنه بدون قيادة لن تنجح الثورة أو الانتفاضة بالرغم من الدور البطولي الذي تلعبه الجماهير. لقد كانت القيادة الموحدة غائبة، بل كان هناك تعارض في الشعارات التي ترفع هنا وهناك. ان غياب تنظيم فعال يوحد المنتفضين، ويقرب بينهم من أجل توحيد مطالبهم السياسية وشعاراتهم المركزية، كان ضعفا واضحا. ورغم بروز قيادات سياسية لكنها لم تكن ذات تجارب ثورية.

كانت الانتفاضة تسير بشكل اجتهادي لكل مجموعة من مجاميعها، وحصل على أثر ذلك العديد من الخلافات والمشاكل التي أثرت على مسيرة الانتفاضة، مثلاً: البعض أراد استخدام العنف والآخرون يريدون البقاء والحفاظ على سلمية الانتفاضة. كذلك شعار "لا للأحزاب" والموقف السلبي من كل الأحزاب مما يدل على عدم الدراية السياسية. من جهة أخرى هو انعدام التنسيق بين المجاميع المختلفة، لذا فعدم وجود التنظيم والتنسيق وعدم توفر قيادة موحدة سهل على قوى العدو التغلغل والاندساس في صفوفها، من عدة جهات متنفذة؛ فكان بعضهم يقوم بتصوير المنتفضين وينقلون أخبارهم ويراقبون تحركاتهم أولا بأول، بل كان هناك تواجد لخيم معروفة المصدر والأهداف جيداً. أي جرى فرز طبقي؛ فهناك قوى انتهازية وضعت نفسها مع القوى المعادية للانتفاضة، رغم أنهم من الطبقات الفقيرة، لذا يقع على الحزب الشيوعي مهام صعبة في هذه المرحلة. وهنا نستذكر ما قاله لينين: "بقدر ما تتسع الحركة الشعبية، بقدر ما تتكشف الطبيعة الحقيقية لمختلف الطبقات، وتتزايد إلحاحاً مهمة الحزب بأن يقود الطبقة، ان يكون منظمها، لا ان يجرجر نفسه في ذيل الأحداث.." [6]، وتلك برأيي كانت مهمة صعبة، رغم ما بذله الرفاق الشيوعيون ـ قادة ورفاق ـ من جهود وسط الثوار.

**ثانياً- الظروف الموضوعية لانحسار انتفاضة تشرين المجيدة:**

1 - عدم انتشار شرارة الانتفاضة في عموم العراق بل انحسارها في بغداد والمحافظات الجنوبية، ولأسباب عديدة.

2 - كان لعدم تكافؤ القوى بين رجال الانتفاضة العزل السلميين، والسلطات المتنفذة والميليشيات المسلحة والمنفلتة، أثر على مسيرة الانتفاضة، حيث استخدمت السلطات عدة أساليب في تشويه سمعة الانتفاضة حتى قبل انطلاقها، ناهيك عن استخدام العنف المفرط، وتعرض المنتفضون

الى القتل والاختطاف والتغييب والتشهير والاندساسات، وشراء الذمم وغيرها من الأساليب القذرة والقمعية. لقد جرت عدة محاولات لاختراق قوى الانتفاضة من قبل أحزاب الاسلام السياسي، بل وقاموا بتكوين تجمعات عديدة بأسماء مختلفة، ونصبوا الخيم، وأدعوا الاصلاح والتغيير وكانوا كحصان طروادة وسط المنتفضين الحقيقيين، وحاولوا زرع الشقاق وافتعال الصراعات بين المجاميع، وبعضهم كان يهدد بشكل علني، وآخرون طرحوا شعارات متطرفة بهدف زرع الفتنة.

وتشير المعلومات المتوفرة الى "ان رئيس الوزراء العراقي وفريقه المدني والعسكري يسعون الى اختراق فعلي لقوى الانتفاضة من خلال تشكيل جماعات مؤيدة لهم أولاً، والدخول بنقاشات مع بعض قوى الانتفاضة لعزلهم عن البعض الآخر ثانياً، وبالتالي إضعاف وخلخلة قوى الانتفاضة وإنهاء الحملة الاحتجاجية والانتفاضة الباسلة" [7].

3 - كان لانتشار جائحة كورونا أثرها السلبي على مسيرة الانتفاضة، إذ استغلت بعض الجهات الخارجة على القانون حالة الوباء لتمارس أساليب القتل والاعتقال والاختطاف، وللأسف بتواطؤ مع الحكومة، ما أدى الى انحسار الانتفاضة لحين.

**مستقبل الانتفاضة وطموحات شعبنا**

الانتفاضة لم تنته؛ فالعوامل والأسباب التي شخصناها لانطلاق الانتفاضة ما زالت قائمة، فلا نظام المحاصصة والفساد قد زال، ولا الفقر والبطالة، ولم يتم القصاص من القتلة والمجرمين وسراق المال العام والمخربين، رغم محاولات اجهاضها ووأدها. ويتطلب من المنتفضين الحذر من مناورات ودسائس القوى المتنفذة وما يحاك ضدهم. فرغم كل ما تعرضت له لكنها زرعت الأمل بالتغيير، فمن نعت المنتفضين بالعمالة هم من كشفت الانتفاضة عن وجوههم الحقيقية.

بالمقابل، خلقت الانتفاضة وعياً سياسياً واجتماعياً وثورياً بين أبناء الشعب كافة، بعد فترة سبات طويلة، وكشفت عن قدرات كبيرة لدى أبناء شعبنا واستعدادهم للتضحية والفداء، وخصوصاً في جيل الشباب الجديد. كما كشفت عن قدرات كبيرة في القيادة والابداع في الفن باختلاف أشكاله من رسم وغناء ومسرح، وفي مجال الأدب من شعر وخطابة وغيرهما.

من جهة اخرى، اتهمت السلطات الحكومية الرسمية "طرفا ثالثا" وحملته كل الجرائم التي ارتكبت ضد جماهير شعبنا خلال الانتفاضة، وهو اقرار بعجز الدولة عن الحفاظ على أبناء شعبها، لكن الحقيقة هي التواطؤ وخضوع الأجهزة الأمنية العراقية لإرادات القوى المتنفذة. وعجزت الحكومة عن نزع سلاح الميليشيات المنفلتة، بل حتى هي كانت مهددة من قبلهم بمن فيهم القائد العام للقوات المسلحة.

كشفت الانتفاضة عن ضعف أداء السلطات التشريعية وتواطؤها مع القوى المتنفذة.

كما أجبرت الانتفاضة السلطات كافة على التراجع واعادة حساباتها من جديد، بل وقدمت عدة تنازلات، رغم عدم جدية معظمها.

وأيقظت منظمات المجتمع الدولي المختلفة، بما فيها الأمم المتحدة لتنتبه الى ما يتعرض له بلدنا من دمار، بسبب سلطة المحاصصة والطائفية والفساد. وقدمت العديد من هذه الجهات الدعم والتضامن والتأييد

للمطالب العادلة، وكذلك وقفت العديد من الدول والأحزاب الديمقراطية في دول العالم مع الانتفاضة.

خلاصة القول: ان الانتفاضة لم تنته لأنها انتفاضة شبابية سلمية ديمقراطية وهي "حركة لا تحقق أهدافها بضربة واحدة أو معركة، فهي ليست انقلابا عسكريا أو حزبيا أو عشائريا، بل هي حركة شبابية شعبية تتسع باستمرار، وتمتد في الزمن لتحقق الأهداف أو تنتزعها الواحد تلو الآخر..." [8].

**مستقبل العراق السياسي**

- إن الانتخابات هي لتدوير سلطة المحاصصة والفساد، وليس لتحقيق إرادة الشعب. الانتخابات أدت الى تدهور الأوضاع أكثر، والمخاطر ازدادت اليوم؛ فالقوى الماسكة بالسلطة لا تتقبل الهزيمة أو حتى تقليص سلطاتها ونفوذها.

- ما زال العامل الخارجي يلعب دوراً كبيراً في الوضع السياسي في العراق، لما يملكه العراق من اقتصاديات وموقع جغرافي مهم، لذا فالتدخلات كثيرة وكبيرة من دول الجوار والولايات المتحدة وحتى الدول الأوربية.

- أوجدت الانتخابات ظرفا جديدا لصالح المنتفضين، فهناك عدد لا بأس به من النواب الجدد، من الذين كان لهم دور معروف خلال انتفاضة تشرين؛ فهؤلاء سيكونون صوتا من داخل البرلمان، وسيكون المنتفضون خارج البرلمان عامل ضغط وعونا وداعما لهم. وهذا يحتاج الى المتابعة والتنسيق وتوحيد الجهود، مع القوى المدنية والديمقراطية والتقدمية لتغيير ميزان القوى لصالح قوى التغيير الفعلي.

- الانتخابات كشفت وهم التغيير للذين كانوا يعولون عليها، بل العكس ان الانتخابات كانت عامل إنقاذ للقوى المتنفذة التي كادت تحتضر بفعل انتفاضة تشرين.

- لم تتمكن السلطات العراقية حتى الآن من كشف ومحاكمة قتلة المتظاهرين، ولم تتمكن من نزع السلاح المنفلت من الميليشيات والعشائر التي بات بعضها يملك أسلحة متوسطة وثقيلة.

- لم تتمكن السلطات العراقية حتى الآن من تقديم ومحاكمة الفاسدين الكبار والذين هم وراء خراب البلد.

- لم تتمكن السلطات العراقية حتى الآن من تقديم ومحاكمة المسؤولين عن سقوط المحافظات العراقية وعن جرائم سبايكر، بل ما زالوا هم المتنفذون بالواقع العراقي، ورشحوا أنفسهم بالانتخابات الأخيرة.

- لم يتم تفعيل قوانين مهمة كقانون الأحزاب، وقانون انتخابات عادل، وما زال مشروع الاحصاء السكاني العام على الرفوف. ولا توجد قوانين عادلة في التعيينات والرواتب والتقاعد....الخ.

- ما زالت أساليب المماطلة والتسويف والوعود هي سيدة الموقف.

- اليوم تشكلت عدة أحزاب وتيارات تدعي المدنية وترفع شعارات تشرين، وهي فصائل وجهات تابعة لنفس الأحزاب المتنفذة والمسببة لكل التردي بالواقع العراقي.

- ما زالت القوى المدنية والديمقراطية مشتتة، ولم تجمع قواها وتتوحد لإيجاد عمل سياسي حديث، وتتقارب وتوحد جهودها مع منتفضي تشرين. وتبدو اليوم هذه المهمة ملحة جدا ولا بد من المضي فيها بسرعة لتوحيد الجهود والانطلاق لتهيئة الشارع

العراقي لما هو قادم؛ فقوى الاسلام السياسي لم تعد قادرة على قيادة البلاد كالسابق، فما زالت سياسة المحاصصة هي السائدة.

- لا بدّ من فصل الدين عن الدولة، وبناء نظام مدني وطني، ينبذ الطائفية والمحاصصاتية.

- على القوى المدنية الديمقراطية، الاعتماد على الجماهير وتعبئتها لأجل تحقيق مصالحها وأن نثق بالجماهير، بل ونتعلم منها ونعلمها. هذا لا يعني ان الجماهير منزهة كما يشير تروتسكي: "ليست الجماهير، بالطبع، منزهة لا تشوبها شائبة على الإطلاق. إن تقديس الجماهير أمر غريب عنا. لقد رأيناها في ظروف مختلفة وفي مراحل مختلفة، وأثناء أكبر الصدمات السياسية كذلك. لقد لاحظنا جوانبها القوية وجوانبها الضعيفة. إن عزمها القوي واستعدادها للتضحية بالنفس والبطولة تظهر دوما في أوقات النهوض الثوري"[9].

- اليوم العراق بحاجة الى تغيير جذري وليس اصلاحيا، وان يعاد بناء الدولة على أسس جديدة تؤسس لروح المواطنة، وتعيد بناء القوات الأمنية والمسلحة بروح حب الوطن وخدمة الشعب وبالروح المهنية، واستقلال القضاء التام بعيدا عن التأثيرات الحزبية وغيرها، وقبل كل هذا وذاك عدم فسح المجال للتدخلات الخارجية في شؤونه الداخلية والخارجية، أي الاستقلال الحقيقي والتام.

**الهوامش:**

1- فارس كمال نظمي، دروس ثورة تشرين التي باتت تنضج تباعاً، 04 /12 /2020.

2- الناشر مجلة الاشتراكية الثورية، مجلة الاشتراكي، المقال منشور يوم السبت 1 أبريل 2000، متاح للقراءة على الرابط التالي: https://revsoc.me/theory/ltnzym-lthwry-wljmhyr/، تاريخ الدخول 7/ اكتوبر/ 2021.

3- القائد الماركسي الثوري الإيطالي، / التنظيم الثوري والجماهير، متاح للقراءة على الرابط التالي: https://revsoc.me/theory/ltnzym-lthwry-wljmhyr
تاريخ الدخول 1/ اكتوبر/ 2021.

4- أنطونيو جرامشي في كتابه (أطروحات ليون)، من مقال متاح للقراءة على الرابط التالي:
https://revsoc.me/theory/ltnzym-lthwry-wljmhyr/ تاريخ الدخول 2/ اكتوبر/ 2021.

5- مدونات/ الدروس الثورية لكتاب لينين (ما العمل)، متاح للقراءة على الرابط: تاريخ الدخول 9/ اكتوبر/ 2021.
https://leftorg.com

6- لينين، حول عمل الحزب بين الجماهير، دار التقدم، موسكو، ص18.

7- د. كاظم حبيب، الانتفاضة التشرينية 2019 في العراق، دار الرواد المزدهرة، 2021، ط1، ص167.

8- د. كاظم حبيب، الانتفاضة التشرينية 2019 في العراق، المصدر السابق، ص220.

9- الدروس الثورية لكتاب لينين- (ما العمل) الحوار المتمدن، العدد: 6916 - تاريخ 2021/6/2، من مؤلف تروتسكي Trotsky, Their Morals and Ours

# تأثير الدولة القومية على العلاقات العربية والكردية

د. علي مهدي

ظهرت الدولة القومية في البدء مع بدايات القرن الرابع عشر عندما تمكنت بعض الدول كفرنسا واسبانيا من إخضاع الكنيسة والإقطاع لسيطرتهم ما أدى لان يكون للملوك دور كبير في إرساء دعائم الدولة، وشاع مفهوم الدولة القومية بعد التوقيع على معاهدة ويستفاليا عام 1648 التي وضعت حداً للحروب الأوربية المتناحرة وتدشين بداية مرحلة الدولة القومية، والتي اعترفت بحدود الدول القومية، وأقرت الاحترام المتبادل لسيادة هذه الدول على أراضيها ومواطنيها، باعتمادها على نظام ملكي مطلق وجيش وطني ونظام ضريبي، وانتشرت في العالم حتى أصبحت النمط السائد في النظام السياسي للدول[1] التي تميزت بتجميع السلطات في يد حكومة واحدة، تملك الوسائل المادية والقانونية، بما يمكنها من السيطرة على الإقليم من دون منازعة من أية سلطة أخرى. ومن عوامل نشوء الدولة القومية نمو المدن التي تحولت إلى مراكز للنشاط التجاري والسياسي والاجتماعي والثقافي ونشوء النقابات وتبلور اللغات القومية والوعي القومي والشعور القومي وكذلك ظهور الحركات الفكرية التي ساهمت في تشكل الفكر السياسي وانسلاخه عن الفكر

الكنسي وبروز السلطات الزمنية على حساب السلطات الدينية، وظهور الحركات الفردية وحرية الفرد والعقيدة وانبثاق فكرة المواطنة بمعناها الحديث، وان من مظاهر هذا الانتقال: ضرورة أن تكون الأمة كوحدة اجتماعية للقضاء على الهويات الإقطاعية، الوحدة السياسية القومية، الأداة هو دولة مركزية قومية تعتمد على جيش جماهيري من خلال التجنيد الإلزامي. إن دول العالم الثالث كانت تعمل على بناء الدولة القومية بإقامة مؤسسات وظيفية، ومن ثم تكوين الشعور بالذاتية القومية. إن الدول الغربية فرضت قسرا نموذجها في بناء الدولة القومية، وتأسيس مبادئ السيادة، وسيطرة الدولة على إقليمها الجغرافي والمعترف به من قبل الدول الأخرى. ومن ذلك التاريخ، كانت مهمة الدولة الرئيسية تكمن في ضبط الحدود الإقليمية وتمثيل مواطنيها في

المؤسسات الشرعية العالمية. وإن الدولة القومية ستبقى على قيد الحياة في المدى المنظور بغض النظر عن توحد الاقتصاد عالميا.

**الدولة والأمة:**

الدولة هي كائن معنوي تتكون من مجموع الشعب، الذي يستقر في اقليم معين، وتكون لها سلطة سياسية عليا ذات سيادة، تفرض على الشعب. والدولة هي حقيقة قانونية قوامها سلطة سياسية، يخضع لها أفرادها. إما الأمة: فهي مجموع الأفراد الذين تجمع بينهم وحدة روحية تشكلها عوامل مختلفة، أبرزها اللغة والتاريخ المشترك. وتؤدي بهم هذه الوحدة الروحية إلى الرغبة في العيش والحياة معا. وهي أيضا، حقيقة اجتماعية ونفسية قوامها التجانس والارتباط القومي، نتيجة لخصائص ومقومات مشتركة تجمع بين أفرادها.

ان ما يميز بين الدولة والأمة هو وجود السلطة السياسية في الدولة والتي تفتقدها الأمة، وكذلك تسبق الأمة وجود الدولة عند الأمم التي كانت خاضعة للإمبراطوريات، وكافحت من اجل استقلالها، لتكوين دولها الخاصة بها لتعبر عن روحها الوطنية والقومية

إنّ معيار التمييز بين الدولة والأمة يكمن في السلطة السياسية التي هي من خصائص الدولة دون الأمة، فالتلازم بين الدولة والأمة ليس حتميا. فهناك دول يتكون شعبها من أفراد ينتمون إلى أجناس أو أمم مختلفة فلا يشترط أن يكون شعب الدولة متجانسا، وقد أعطى لنا التاريخ الكثير من الأمثلة التي فيها دول ذات شعب غير متجانس كالولايات المتحدة وسويسرا.

**الأسس التي تقوم عليها الأمة**

اختلف الباحثون في الإجابة عن الأسس التي يعتمد عليها مفهوم الأمة التي هي ظاهرة تاريخية تتعدد وتتنوع العوامل التي تؤدي إلى تكوينها. وغالبا ما تكون هذه الأسس تتفق وسياسة الدولة التي ينتمون إليها.

فإن معظم المفكرين الألمان يتبنون نظرية وحدة الأصل أو الجنس كأساس للأمة وسبب ذلك يعود الى الحاجة لوحدة الأمة الألمانية التي كانت مجزأة إلى دويلات عديدة. بينما تبنى المفكرون الفرنسيون نظرية المشيئة أو العيش المشترك معا، كأساس للقومية بسبب الرغبة الفرنسية بضم المستعمرات. وهناك من يعتقد أن أساس الأمة هو العقيدة الدينية كالدولة الإسلامية في صدر الإسلام أو إسرائيل.

إن الاتجاه العام يرى ان الجماعة البشرية المسماة شعبا، يمكن أن تتحول إلى امة إذا ما أحس أفرادها بالرغبة المشتركة في العيش معا، نتيجة ما يجمع بينهم من روابط كاتحاد الجنس واللغة والدين والعادات والمشاعر والذكريات ووحدة الآلام والآمال. ولا يشترط توافر كل هذه العوامل دفعة واحدة؛ فقد تشكلت أمم رغم عدم توفر كل تلك العوامل، كما هو حال الأمة السويسرية أو البلجيكية [2]، وهناك دول نشأت واستمرت ولكن شعبها يتكون من عناصر أو قوميات مختلفة مثل حالة الولايات المتحدة الأمريكية، التي لم تتشكل من قومية واحدة، إنما جاء تشكلها من خلال جماعات تنتمي لأصول أممية مختلفة (انجليزية وفرنسية وايطالية وأسيوية...)، ولا شك أن الدولة التي يتكون شعبها من امة واحدة، يمثل ذلك عامل تماسك ووحدة، وهذا ما يميزها عن الدولة التي تفتقد

التجانس الأممي، وقد تحتاج إلى فترة من الزمن وتوالي الأحداث، ليدخل بعد ذلك عامل التاريخ المشترك والتحديات المشتركة ليصنع من جديد أمة واحدة، فتتكامل عناصر الشعب، ويتولد بينهم الإحساس بالرغبة في العيش معا[3]، ومن الجدير بالذكر، أن دول العالم اليوم مكتظة بالأعراق والإثنيات ولا تتسم بالتناسق والتجانس حيث لا تتعدى الدول المتجانسة في العالم قاطبة 9 % من بين 132 دولة مستقلة (وقت إجراء الدراسة) ولا توجد في العالم سوى 12 دولة فقط، تتمتع بالتجانس الثقافي، وتتكون من عرق واحد بنسبة 90 % كالصومال واليابان[4].

**اثر تشكيل الدولة العراقية على العلاقات العربية الكردية**

كان العراق ومنذ القدم مركزا للحضارات المزدهرة، كالحضارة البابلية والآشورية والكلدانية والتي بزوالها، فقدت بلاد ما بين النهرين استقلالها ودخلت مرحلة الانحطاط وانهارت حضاراتها وبقي الوضع كذلك حتى ظهور الإسلام، حيث أصبح العراق يخضع للدولة العربية الإسلامية وبظهور الخلافة العباسية 750 – 1258 أصبحت بغداد عاصمة لها، حتى سقوطها على يد هولاكو وانتهاء الخلافة العباسية.

احتلت الدولة العثمانية بلاد ما بين النهرين بصورة متدرجة والتي ابتدأت من انتصار القوات العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني في معركة جالدران في عام 1514 ضد الفرس حتى دخول بغداد بصورة سلمية على يد السلطان سليمان القانوني في عام 1534. وقد استمر حكم العثمانيين على العراق حوالي أربعة قرون. وكان العراق يحكم لفترة ثلاثة قرون من قبل الاستانة بصورة مباشرة، ومن ثم قسم إلى ثلاث ولايات: ولاية بغداد وولاية الموصل التي أنشئت عام 1879م، وولاية البصرة التي أنشئت عام 1884م.

لقد وظفت السلطات العثمانية الدين الإسلامي بشكل انتهازي، لبقائها هذه الفترة الطويلة، وجعلوا من الدين وسيلة لتحقيق نواياهم التوسعية حيث مارسوا سياسة الخداع والتظليل مع الشعوب المتدينة والمتمسكة بالإسلام، منهم الكرد والعرب، وتم استغلال أبناء الشعوب القاطنة تحت ظلال الخلافة في الزج بهم في حروبها الدائمة؛ إما للدفاع ضد هجمات الدول الأخرى أو لتوسيع رقعة الإمبراطورية المترامية الأطراف.

ومن عوامل بقاء هذه الإمبراطورية لفترة طويلة وخضوع الشعوب لسيطرتها، هو سيادة الفكر الديني، وان الخليفة السلطان هو المدافع عن حياض الإسلام من هجوم المسيحيين الكفار، والضعف في الشعور والوعي القوميين الذي هو في الأصل نتاج المجتمعات التي تنتقل من العلاقات الإقطاعية القائمة على الإنتاج الزراعي إلى العلاقات الرأسمالية القائمة على الإنتاج البضاعي الصناعي القائم على وجود المدن والمناطق الصناعية حيث وجود المعامل والمصانع والمصارف والمدارس والجامعات والمسارح.

ولقد بدأت بذور الفكر القومي مع أفول دولة الخلافة الإسلامية التي كان يطلق عليها بالرجل المريض، وكان ذلك داخل مثقفي الشعب التركي أولا ولدى الطلبة والمثقفين من الشعبين العربي والكردي والشعوب الأخرى، رغبةً في التخلص من نظام الحكم

المطلق الذي لم يعد ينسجم مع التطورات السياسية والاجتماعية في أوربا والعالم، وبالأخص بعد قيام الثورة الفرنسية لسنة 1789 وانتشار قيمها، وتصاعد هذا الشعور مع تنحية السلطان عبد الحميد بعد الانقلاب العسكري من قبل جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم سنة 1908، والتي تبنت سياسة التتريك لشعوب الإمبراطورية. وكرد فعل على تلك السياسات، تعاظم الشعور القومي لدى الكرد والعرب، والذي تجسد من خلال تشكيل العديد من التنظيمات السرية والنشاطات الثورية.

وعند قيام الحرب العالمية الأولى كانت الفرصة مواتية للشعبين العربي والكردي من بين الشعوب العديدة التي خضعت لنير الإمبراطورية العثمانية، لنيل الحرية والانعتاق التي انتهت بانتصار بريطانيا وفرنسا وهزيمة ألمانيا والسلطة العثمانية التي خاضت الحرب بالتحالف معها.

**إرهاصات التحرر من النير العثماني**

كان العرب يتطلعون للاستقلال من الإمبراطورية العثمانية، واستطاع الانكليز جر العرب لإعلان الثورة ضد الأتراك، واعدين إياهم بتحريرهم من هيمنة الاستعمار العثماني، ومنحهم حريتهم واستقلالهم. وكان على رأس أولئك (الملك الحسين بن علي) ملك الحجاز، الذي أعلن الثورة العربية ضد الأتراك، اثر اتفاق (مكماهون) عام 1916، وقاتل إلى جانب بريطانيا، اعتمادا على التعهد الذي قطعته له بضمان استقلال البلاد العربية، وتنصيبه ملكا عليها بعد الحرب، لكن الانكليز كانوا قد رتبوا أمورهم، وتقاسموا النفوذ والسيطرة على البلاد العربية في ما بينهم بموجب معاهدة (سايكس بيكو) السرية عام 1916، ومن ثم بموجب معاهدة (سان ريمو) في عام 1920[5].

انتعشت آمال الكرد بشكل عام في كل مكان بما فيها آمال كرد العراق لفترة من الزمن، بعد التوقيع على معاهدة (سيفر) في العاشر من آب 1920 والتي تضمنت في المواد (62، 63، 64) حق الأكراد في تشكيل دولتهم المستقلة، وحق أكراد ولاية الموصل في الانضمام إلى هذه الدولة المنتظرة، إلا أن رفض تركيا لهذه المعاهدة ورغبة بريطانية في وضع العراق بأكمله تحت الانتداب، فضلا عن صراع المصالح بين الدول الكبرى، أبقت هذه المعاهدة حبرا على ورق [6]، إلا أن المعاهدة كانت عاملا في تنامي النشاط والوعي القوميين لدى الأكراد. وقد تبددت تطلعات الكرد عند إبرام معاهدة (لوزان) عام 1923، حيث تم الاتفاق على تقسيم كردستان بين تركيا وإيران والعراق مع بعض التدخلات في كل من أذربيجان وسوريا.

**الاحتلال البريطاني للعراق**

استكمل البريطانيون احتلال العراق بالدخول إلى مدينة الموصل مركز الولاية في 8 تشرين الثاني 1918 التي كانت تخضع لها مدن اربيل، السليمانية دهوك رواندوز، وعند انهيار الدولة العثمانية فان الأتراك فوضوا إلى الزعيم الشيخ محمود الحفيد أمر إدارة منطقة السليمانية وحاميتها التركية على ان يحكمها باسم الدولة العثمانية، غير أن الانكليز استطاعوا أن يقنعوا الشيخ محمود بتسليم الحامية التركية إليهم عملا بشروط هدنة (مدروس) المنعقدة في 30 /11 /1918

وتعيينه حاكماً لمنطقة السليمانية وتعيين بعض رؤساء قبائل المنطقة حكاما للوحدات الإدارية المجاورة في المنطقة [7].

أصيب الشعب العراقي بمرارة بعد أن اتضحت مخططات البريطانيين برغبتهم في حكم العراق بشكل مباشر من قبل القادة العسكريين، بدل الولاة العثمانيين، فأخذت حالة الرفض والامتعاض تتعاظم بين صفوف المتعلمين والدعوة إلى الثورة والانتفاضة والتي كان أخطرها ثورة النجف في آذار 1919 التي دامت 45 يوما، وكذلك في السليمانية حيث اندلعت ثورة الشيخ محمود الحفيد في ايار 1919 بعد إن أدرك ان الانكليز غير عابئين بحقوق الشعب الكردي، وسوء النوايا تجاهه، حيث كانت السلطات الحقيقية بيد المستشار الذي عينه الانكليز.

وهذه التحركات المناهضة للبريطانيين قد تسارعت بعد الإعلان عن صك الانتداب على العراق في 17 حزيران 1920، وتم تتويجها في ثورة العشرين التي اندلعت بالرميثة في 30 حزيران 1920 وامتدت إلى الكوفة، الحلة وغيرها من المدن والتي كبدت القوات المحتلة العديد من الخسائر والأرواح، وشارك الشعب الكردي في هذه الثورة من خلال المعارك التي دارت في السليمانية وعقره وكفري، حيث تمكنت قوى الثورة في كفري بقيادة إبراهيم خان من الاستيلاء على المدينة.

بعد استقدام قوات كبيرة، استطاع البريطانيون إخماد الثورة، لكنهم توصلوا إلى قناعة، وهي صعوبة حكم العراق بشكل مباشر كما هو في الهند، وأقدموا على تشكيل حكومة عراقية مؤقتة وتنصيب الأمير فيصل ملكا على العراق، على أن تكون حكومته ديمقراطية تمثيلية دستورية خاضعة للقانون.

لقد تضمن صك الانتداب بعض البنود التي يراعي القانون الأساسي تضمينها وهي: الأخذ بنظر الاعتبار حقوق الشعب ورغبته في ضمان الحريات والشعائر الدينية. ان يضمن عدم التفريق بين أبناء الشعب، وان اختلفوا لغة وجنسا ودينا. ان يضمن حقوق كل طائفة في بناء مدارسها والتعليم بلغتها. وعند مناقشة مسودة القانون الأساسي دارت مناقشات حول الحقوق القومية للأكراد، وحقهم في التدريس باللغة الكردية في مدارسهم [8].

**بدايات تشكيل الدولة العراقية**

كان الشغل الشاغل للعراقيين كيفية إدارتهم شؤون العراق الذي تشكل حديثا، والشروع بتنظيم مؤسساته وكذلك حسم تبعية لواء الموصل وترسيم الحدود مع تركيا التي تطالب بالموصل، وكذلك الصراع مع البريطانيين بإمكانياتهم الكبيرة وعلى مختلف المستويات، الذين بيدهم صك الانتداب والوصاية على الشعب العراقي، ورغبتهم في الحصول على امتياز التنقيب واستخراج النفط. في ظل تلك الأجواء كانت هناك مطامح للشعب الكردي في نيل حقوقه بإعلان قيام دولته، التي تعقدت بسبب رفض تركيا لمعاهدة سيفر واستبدالها بمعاهدة لوزان التي لم تأت بذكر للأكراد والتنصل من كل الحقوق التي تم الإعلان عنها، وان الشعب الكردي سيقسم بين تركيا وإيران والعراق وقسم منه في سوريا وأذربيجان، فقد أيدت الحكومة البريطانية في البداية قيام كيان

كردي ذي حكم ذاتي، إلا أن ظهور النفط في الأقاليم الشمالية للعراق، قد أدى بدوره إلى تخلي بريطانيا عن وعدها وتأييدها الوحدة الجغرافية للدولة العراقية الحديثة، ومقاومة نزعات الأكراد الانفصالية، ضمانا لاستثمار السيطرة البريطانية على الثروة البترولية الوليدة في العراق[9]. وكان للانكليز دورهم المعروف في سياسة "فرق.. تسد" بين مكونات العراقيين لاستمالة احدهم لضرب المكون الآخر. وقد كانت سياستهم منصبة على الاستحواذ على العراق، رغم الأساليب الملتوية التي مارسوها من تخدير الكرد ببعض الوعود البراقة والتي كانوا يلوحون بها لغرض اخذ التنازلات من الأتراك أو الحكم الوطني الجديد في العراق لإدامة وجودهم الفاعل والسيطرة على ثرواته.

**البريطانيون والتعامل مع الأكراد**

تعامل البريطانيون بخصوصية بالغة مع الأكراد وبالأخص في الفترة الأولى لتأسيس الدولة العراقية من خلال العلاقة مع الشيخ محمود الحفيد الذي قاد أربع انتفاضات في سنوات ( 1919، 1922 - 1927، 1930 - 1931، 1941) والذي يتمتع بمزايا سمحت له بفرض سياسة الأمر الواقع وتحقيق بعض المطالب ذات الطابع القومي، بما لم يسمح للآخرين، وذلك لمكانته في المنطقة، وقدرته على تعبئة وجهاء وأبناء المنطقة في التصدي لسياسة الانكليز. وكان التعامل مع لواء السليمانية يتم من خلال المندوب السامي بشكل مباشر لفترات متقطعة. وله الفضل الكبير في إنماء الفكر القومي وتقديم العديد من المطالب والتي من أهمها: تشكيل حكومة كردية في المناطق الكردية الممتدة من زاخو حتى خانقين على أن تكون هذه الحكومة تحت الانتداب البريطاني، وتحت تلك الضغوطات أقرت الحكومة العراقية في عام 1930 قانون اللغة الكردية الذي صادق عليه مجلس الأمة.

وقد ساهم الملا مصطفى أيضا في النضال التحرري لنيل حقوق الشعب الكردي من خلال مناشداته للسلطة الحاكمة وتقديمه عددا من المطالب، وقد توج نضاله في ثورة بارزان ما بين عامي 1943 - 1945.

**النضال المشترك بين الشعبين**

انخرط المثقفون والعمال والطلاب من أبناء الشعب الكردي في النضال السياسي في فترة الأربعينات وما بعدها من القرن الماضي كجزء مكون من الحركة الديمقراطية العراقية. ساهموا في نضال الشعب العراقي في معاركه الوطنية والطبقية ضد السلطات الملكية المدعومة من قبل الاستعمار البريطاني، فكانوا ضمن الطلائع المتقدمة عند إضراب عمال النفط في كاورباغي الشهير عام 1946، فقد كان محامي العمال هو السيد مكرم الطالباني، وكذلك مشاركتهم في وثبة كانون عام 1948، وفي انتفاضة تشرين عام 1952، حيث كان احد قادتها السيد بهاء الدين نوري من أهالي لواء السليمانية، والمشاركة في فوز 10 نواب من مرشحي الجبهة الوطنية لانتخابات عام 1954 ومنهم شريف الشيخ من أهالي عنه عن لواء السليمانية [10]، ومظاهرات الشعب العراقي للتضامن مع مصر ضد العدوان الثلاثي عام 1956. وفي مجرى هذا النضال اقتربت الكثير من القوى الوطنية، من متبنيات الشعب الكردي وتطلعاته، فقد

تصدر شعار استقلال كردستان الصفحة الأولى لأول عدد من جريدة كفاح الشعب الصادرة في عام 1935، ومنذ الخمسينات تم رفع شعار الحكم الذاتي للشعب الكردي كشعار مرحلي ينسجم مع حق تقرير المصير في ظل موازين القوى القائمة آنذاك، وتم عقد تحالف سياسي بين الحزب الديمقراطي الكردستاني والحزب الشيوعي العراقي في سنة 1957، وقد تكللت هذه النشاطات المشتركة بثورة الرابع عشر من تموز عام 1958 الوطنية التحررية، والتي من ثمارها النص في الدستور المؤقت (إن العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن) الذي صدر في 27 تموز 1958، وهذه البادرة، شكلت أول اعتراف بالأكراد على صعيد المنطقة كشركاء أصيليين في البلاد، ما أغاض هذا الموقف الجديد، دول المنطقة التي يسكن فيها الأكراد، وتحاملهم على الثورة وحياكة المؤامرات ضدها وتحيّن الفرص للانقضاض عليها.

ومن الجدير بالذكر أن تشكيلة مجلس السيادة[11] وهو أعلى سلطة دستورية في البلاد، كانت من رئيس وعضوين، وان احدهما كردي، ويوجد تمثيل للأكراد في الوزارات التي يتم تشكيلها طيلة فترة حكم عبد الكريم قاسم، وقد سمحت الثورة بعودة الملا مصطفى البرزاني ورفاقه إلى الوطن، وكان استقبالهم محط ترحيب رسمي وشعبي كبيرين، يعكس المكانة الكبيرة التي يحتلها الشعب الكردي بين صفوف الشعب العربي. وعند اندلاع ثورة أيلول سنة 1961 التي كانت في البدء تحرك (للاغوات) الاقطاعيين المتضررين من قانون الإصلاح الزراعي لسنة 1958، والذي تطور إلى نزاع مسلح. وعلى اثر ردود الفعل المبالغ بها ذات الطابع العسكري من قبل السلطات الحكومية، تم تبنيه من قبل قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني، وعلى ضوء ذلك اشتدت المعارك العسكرية، وقد دافعت القوى الديمقراطية عن الحل السلمي في كردستان، من خلال توقيع العرائض المطالبة بإنهاء العمليات الحربية، وعلى هذا الموقف تم اعتقال الكثيرين من أبناء الشعب العربي وزجهم في المعتقلات والسجون.

قد أخذت العلاقة بين الشعبين العربي والكردي في العراق طابعا محوريا في السياسة العامة للبلاد، طيلة فترة الستينات والسبعينات والثمانيات وحتى انتفاضة الشعب العراقي في ربيع 1991 من القرن الماضي، وكان الصراع سجالا بين حكومات تأبى تلبية الحقوق للشعب الكردي وحركات سياسية تحاول استغلال الأحداث للانقضاض وتتحين الفرص لفرض حقوقها، وقوى إقليمية ودولية تتربص لعموم الشعب، وتستغل التناقضات القائمة في تحقيق مآربها، ما يوقع الأطراف جميعا في خسائر لا تحمد عقباها، وهذا ما حدث بعد الانقلاب الدموي الذي قاده البعث في يوم 8 شباط من سنة 1963، والأحداث السياسية التي أعقبتها، والتي تميزت بين اتفاقات سياسية قصيرة المدى، والعودة لاستخدام السلاح، ما بين قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني والحكومات المركزية في بغداد حتى الإعلان عن اتفاق 11 آذار لسنة 1970 والتي سميت اتفاقية الحكم الذاتي.

فبعد سقوط حكومة عبد الكريم قاسم وسيطرة حزب البعث العربي الاشتراكي في 8 شباط 1963 تم تشكيل "المجلس الوطني

لقيادة الثورة"، وهو الهيئة الدستورية العليا في البلاد، الذي يملك السلطات التشريعية وتعيين رئيس الجمهورية والوزارة، والذي ضم البعث والقوميين، ومنها احتكر هؤلاء السلطة الحقيقية في البلاد واستبعاد أي دور لممثلي الشعب الكردي عن عملية صنع القرارات، وبقي دورهم هامشيا في تشكيلة بعض الوزارات حتى سقوط النظام عام 2003، ما عدا فترة ما بعد إعلان اتفاق 11 آذار، الذي انتهى بإعلان الحكومة المركزية قانون الحكم الذاتي من طرف واحد في آذار 1974.

من الجدير بالقول: أصبح أبناء الشعب الكردي محط الشبهات في العديد من مفاصل الدولة العراقية المهمة كالدفاع والداخلية والخارجية والمؤسسات الأمنية، التي تم تعريبها وإجبار المنتسبين اليها على الانتماء إلى حزب البعث. وهذه السياسة لم يتبعها حتى النظام الملكي الذي كان رئيس الوزراء ورئيس أركان الجيش من الشعب الكردي عند سقوطه.

وكانت فترة الثمانينات من اعقد صور المواجهة ما بين نظام ديكتاتوري شوفيني عدواني والقوى المسلحة الكردستانية والتي ساهمت فيها أعداد كبيرة من العرب ضمن تشكيلات قوات الأنصار للحزب الشيوعي العراقي. وقد توجت هذه المواجهة باستخدام الأسلحة الكيماوية سنة 1987 - 1988 المحرمة دوليا من قبل النظام الحاكم ضد أبناء الشعب الكردي في حلبجة وعدد من القصبات الكردستانية وتهجير مئات الآلاف من أبناء قرى كردستان، إما إلى خارج الحدود أو السكن في معسكرات الإيواء والمحاطة بالحراس والأسلاك.

ان انتفاضة آذار عام 1991 التي اندلعت شرارتها في البصرة وسرى لهيبها إلى قصبة رانية واربيل، تعد تجسيداً حياً لوحدة نضال الشعبين وترابط مصيرهما ضد الأنظمة الديكتاتورية، حيث وفرت الانتفاضة حالة من الاستقرار في كردستان وانتخاب برلمان وتبني شعار الديمقراطية للعراق والفيدرالية لكردستان. هذا الشعار الذي حظي بقبول القوى السياسية العربية أثناء فترة النضال المشترك.

لقد فشلت النظم السابقة القائمة على الحكم الفردي والديكتاتورية ونظام الحزب الواحد الشمولي، من بناء المواطنة العراقية المرتكزة على الهوية الوطنية الواحدة والتي يعلو فيها الولاء للوطن، فوق الانتماءات القومية والطائفية.

ومن جهة أخرى تصدى لمسؤولية الدفاع عن حقوق الشعب الكردي في العراق شخصيات ثورية، تحملت عبء المسؤولية وهي من أصول عشائرية معروفة وبيوت دينية عريقة، قدموا اعمالا جليلة لا تنسى في خدمة القضية الكردية، لكنها لم توفق في قراءة المناورات والنوايا البريطانية والأمريكية وتحركات الدول الإقليمية سيئة النية من جانب، وسوء تقدير الإدارة للأمور وعدم تجاوبها وروح العصر من جانب آخر.

**العلاقة ما بعد الاحتلال وسقوط النظام الديكتاتوري**

لقد صاغ القادة السياسيون من خلال مجلس الحكم المشكل بعد الاحتلال قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، والذي هو بمثابة الدستور المؤقت للبلاد، والذي تضمن القواعد الأساسية لبناء الدولة الجديدة من خلال تبنيه النظام الديمقراطي النيابي

البرلماني والتداول السلمي للسلطة عبر انتخابات دورية. وتم إرساء أسس للنظام الاتحادي من خلال الإقرار بتمتع كردستان بالفيدرالية، والتي كانت قائمة بفعل الأمر الواقع وبحماية دولية. وهذا يمثل أفضل الحلول المطروحة للتعددية في العراق ولقضية الشعب الكردي. وهذا ما تم إدراجه في دستور سنة 2005 والذي نال ثقة الشعب عبر استفتاء شعبي.

أتيحت الفرصة للقوى السياسية العراقية بعد احتلال الولايات المتحدة للعراق في نيسان 2005، ان تتشارك في إعادة النظر في طبيعة النظام القائم والذي جلب الويلات والدمار لأبناء الشعب كافة، والذي لم ينج منه أحد لا من العرب ولا الأكراد، وقد تم الأخذ بالديمقراطية التوافقية التي تعني المشاركة الواسعة في صنع القرار والإدارة الذاتية والتمثيل المتوازن لممثلي المكونات في إدارة مؤسسات الدولة وحق النقض للأقلية لضمان الحضور الفاعل لكل مكونات المجتمع ومنها ممثلو الشعب الكردي كإجراء متبع لدى العديد من الدول ذات التركيب الاجتماعي غير المتجانس ويتسم بالخلافات السياسية بين ممثلي مكوناته الرئيسية وكإجراء مؤقت حتى تتشكل الهوية الوطنية الجامعة قولا وفعلا.

ان الدولة القومية الحديثة تبنى من خلال الاعتراف بالتعددية بكل اشكالها الفكرية والسياسية والمجتمعية والثقافية واحترام خصوصية كل شعب او مكون وبالأخص لمجتمعنا الذي يسوده عدم التجانس والخلافات السياسية، جراء السياسات السابقة. الدولة القومية الحديثة تبنى من خلال تبني النظام الديمقراطي القائم على الانتخابات الدورية والتداول السلمي للسلطة، وفي ظل أجواء الحرية والتنافس وتطبيق مبدأ سيادة القانون على كل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الدائرة في المجتمع، ووجود نظام قضائي مستقل، وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص والمساواة بين العراقيين دون اي تمييز على أساس العرق او الدين او اللغة وفي كل المجالات. وان خيار الفيدرالية يشكل الطريق المناسب لتعايش القوميتين العربية والكردية جنبا إلى جانب مع المكونات الأخرى، وكذلك تبني الإدارة اللامركزية والتي هي شكل من أشكال الإدارة الذاتية للتشكيلات الإدارية في البلاد وإشباعها بالصلاحيات التي تؤمن نجاح عملها في توفير الخدمات العامة للمواطنين، وكذلك الاهتمام بالمكونات الأخرى في التمتع بحقوقها التي كفلها الدستور.

ان توفير هذه المستلزمات الضرورية وغيرها والعمل الدائم من اجل نهضة المجتمع وتطوير بنيته التحتية وتجاوز التحديات والصعاب من خلال الحوار والنقاش المفتوح والاحتكام للقانون والقضاء عند أية خلافات او منازعات تنشأ في مجرى الحياة اليومية هي الكفيلة لولادة الأمة العراقية المتدرجة بشكل متدرج وسلمي، وبالإرادة الطوعية الذاتية للشعبين العربي والكردي وسائر مكونات الشعب العراقي.

**الاستنتاجات**

1 - إن ظهور القومية والدولة القومية هو ظاهرة أوربية حديثة، جراء تحلل النظم الإقطاعية بفعل نمو العلاقات الرأسمالية التي تبحث عن سوق موحدة عبر عوامل اللغة والتاريخ والثقافة والمصالح المشتركة.

2 - تقسيم دول المنطقة وتشكيل الدول العراقية بحدودها المعروفة، جاء برغبة

القوى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، واستجابة لتطلعات قسم من أبنائها في الاستقلال.

3 - صعوبة إجراء تغييرات جدية في الوضع القائم بخصوص تطلعات الشعب الكردي في الاستقلال دون موافقة الدول الأربعة التي ينتشر فيها الأكراد في المنطقة والقوى الدولية.

4 - إن النظم الفردية والديكتاتورية والحزب الواحد والسياسة المركزية الشديدة، أساليب قد فشلت في بناء دولة المواطنة القائمة على الهوية الوطنية العراقية.

5 - ما زال للدولة دور قائم في بناء الوحدة الوطنية وتشكيل معالم الهوية العراقية من خلال ثبات عمل المؤسسات الدستورية والمشاركة الفاعلة للقوى الاجتماعية من كلا الشعبين فيها.

6 - إن الديمقراطية واعتماد الفيدرالية واللامركزية الإدارية ضمان للتطور الحر في البلاد وأفضل الحلول للتعددية القائمة في البلاد.

7 - إن من مستلزمات قيام الدولة القومية الحديثة هو العلاقة المتكافئة بين الشعبين العربي والكردي دون أي إبعاد وتهميش لأي مكون من المكونات.

8 - أهمية المشاركة الفاعلة في تسيير أعمال الدولة من قبل جميع المكونات، وكلما كان هناك استئثار بالقرار من طرف دون الاطراف الأخرى، فان ذلك سيعمق من حالة الانقسام، وبالتالي يضعف اللحمة الوطنية.

9 - ضرورة اعتماد الحوار والشفافية عند وجود أية إشكاليات قائمة وإتباع الوسائل القانونية والدستورية، ولاسيما إن جميع القوى قد ساهمت بشكل فاعل في صياغة الدستور والتصويت عليه.

---

**الهوامش:**

1- د حامد سلطان، أصول القانون الدولي، القاهرة، 1975، ص 551.

2- حسين عثمان محمد عثمان، النظم السياسية، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، 2012، ص 85 - 88.

3- د محمد رفعت عبد الوهاب، النظم السياسية، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، 2009، ص33.

4- (بهاء الدين مكاوي محمد قيلي، اثر التعدد العرقي على الاستقرار السياسي، رسالة دكتوراه ( الخرطوم، كلية الدراسات العليا - قسم العلوم السياسية بجامعة النيلين، 2002)، ص 301.

5- حامد الحمداني، صفحات من تاريخ العراق الحديث، الكتاب الأول، فيشو نميديا كرونبري- السويد، الطبعة الأولى، 2005، ص 26.

6- القاضي الدكتور محمد عمر مولود، الفدرالية وإمكانية تطبيقها كنظام سياسي ( العراق نموذجا)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2009، ص 369.

7- المصدر السابق، ص 372.

8- علي محسن مهدي، الإجراءات الشكلية والموضوعية لتعديل الدستور العراقي، دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2014، ص 35.

9- Derk Kinnane, THE KURDS AND KURDISTAN, London,1964,p 36

10- جريدة الزمان الدولية بتاريخ 14 - 8 - 2021

11- كان يتولى مهام رئيس الجمهورية، تشكل على اثر قيام ثورة 14 تموز 1958، وهو يتألف من رئيس وهو السيد نجيب الربيعي وعضوية كل من الشيخ محمد مهدي كبة من العرب الشيعة وخالد النقشبندي من الكرد السنة.

# الدولة العراقية وتناقضات بنيتها السياسية

**لطفي حاتم**

**كاتب وباحث عراقي حاصل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي/ تاريخ ونظرية الدولة والقانون، عميد كلية القانون والسياسة في الاكاديمية العربية المفتوحة في الدانيمارك. له عشرات البحوث المنشورة في مجال العلاقات الدولية. صدرت له عدة كتب: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية؛ آراء وافكار حول التوسع الرأسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية الوطنية، المنظومة السياسية للدولة الوطنية والاحتجاجات الشعبية، العولمة الرأسمالية والكفاح الوطني الديمقراطي. كما نشر الكثير من البحوث في مجلة (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة.**

ليس هناك من دولة عربية عانت من التبدلات والتغيرات في بنيتها السياسية مثل الدولة العراقية، وليس هناك تشكيلة اجتماعية عانت من التبدلات والاضطهاد السياسي لمكوناتها الطبقية والسياسية مثل الدولة العراقية.

استنادا الى تغيرات البنية السياسية للدولة العراقية نحاول متابعتها انطلاقا من طبيعة نظمها السياسية وقوى تشكيلتها الاجتماعية المتحكمة في نموها وتطورها عبر مراحل ثلاث، الأولى منها الدولة العراقية في العهد الملكي، وثانيها طبيعة السلطة وتشكيلتها الاجتماعية في العهد الجمهوري الأول، وأخيرا الدولة وتشكيلتها الاجتماعية في العهود الجمهورية اللاحقة.

**أولاً- الدولة الملكية وبنيتها الاجتماعية**

من المعروف ان الدولة العراقية الناشئة لم تتفق على تسمية شخصية عراقية لقيادة نظامها الملكي بسبب التناقضات المذهبية الحاكمة في تشكيلتها الاجتماعية، لذلك عمدت الكولونيالية البريطانية الى تسمية الملك فيصل الأول الوافد من الحجاز لقيادة المملكة العراقية الجديدة.

بهذا المعنى لم تكن تسمية الملك الوافد الا نتيجة لاستعصاء التناقضات الطبقية بين القوى الاجتماعية العراقية.

استناداً الى ذلك شهدت سلطة الدولة الوليدة تناقضات بين قاعدتها الاجتماعية تبدت بتقاسم مراكز الحياة الاقتصادية - السياسية بين المذهبين: السني الذي تزعم

القيادة السياسية عبر هيمنته على المؤسسة العسكرية والاجهزة الإدارية المساندة للملكية، وبين الطائفة الشيعية التي احتكرت التجارة الداخلية ورفضها للمؤسسة الملكية الوافدة.

اتسمت الفترة الملكية بتعايش التناقضات الوطنية حيث شهدت الفترة المشار اليها كثرة من السمات نشير الى أهمها:

1 - تطور التشكيلة العراقية عبر قوى جديدة منها تطور مكانة الطبقة العاملة السياسية قبل الطبقة البرجوازية بسبب احتكار الكولونيالية البريطانية للتجارة الخارجية والداخلية ومنها قيادة الطبقة العاملة للكفاح الوطني، جامعة بذلك نضالها الوطني ومصالحها الطبقية في تيار اجتماعي واحد.

2 - تخلف البرجوازية الوطنية عن قيادة الكفاح الوطني بسبب اعاقة نموها من الوافد الكولونيالي المحتل.

3 - تبوء المؤسسة العسكرية مكانة كبيرة في التأثير على التطورات الداخلية وبهذا المسار لا بد من التأكيد على انتشار النزعتين الانقلابية والوطنية في المؤسسة العسكرية بسبب هيمنة القوى الأجنبية والوافدة والتي تعارضت مصالحها مع الوطنية العراقية.

4 - الدولة الوليدة لم تكن انعكاساً لمصالح طبقاتها الاجتماعية، بل كانت في تناقض واضح مع مكوناتها الاجتماعية بسبب تمثيلها - الدولة الوليدة - لمصالح الطبقات الكمبورادورية والاقطاعية، اما طبقة البازار الشيعي فكانت رافضة لها بسبب عدم اعترافها بشرعية الدولة الجديدة وسيطرة المذهب السني على المؤسسة العسكرية والاجهزة الإدارية فضلاً عن رفضها للتبعية والوفادة الخارجية لقيادة العراق.

**تلخيصا لسمات المرحلة الملكية يمكن تأشير الدالات الاتية:**

- شكلت بيروقراطية الجهاز الإداري في الدولة العراقية ومؤسساتها العسكرية القاعدة الاجتماعية لسلطة الدولة السياسية.

- عكست السلطة السياسية الملكية جهازاً ضامناً لمصالح البيروقراطية ومصالح الطبقة الاقطاعية الناشئة في الدولة العراقية.

- اندماج الدولة بالسلطة السياسية الملكية في نسق واحد وانعدام تمثيلها لطبقات التشكيلة العراقية الناهضة.

**ثانيا- الجمهورية الأولى وتشكيلتها الطبقية**

افضى انهيار الملكية وانتصار ثورة تموز الوطنية الى تعديل تمثيل السلطة السياسية لطبقات التشكيلة الاجتماعية العراقية حيث مثلت السلطة السياسية الطبقات المنتجة المتشكلة من – الشرائح البرجوازية الوسطى، فضلا عن الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة.

* اقدمت الثورة على القيام بإجراءات اقتصادية - سياسية لصالح الطبقات الاجتماعية المنتجة في محاولة منها لتعديل التركيبة الطبقية للدولة العراقية، ومنع القوى الطبقية السابقة من العودة الى قيادة سلطة البلاد السياسية.

* أطلقت ثورة تموز الوطنية حرية العمل السياسي العلني حيث برز اليسار الاشتراكي في مقدمة القوى السياسية التي لعبت دورا كبيرا في صيانة الثورة الظافرة ودفعها لاتخاذ إجراءات وطنية لصالح الاستقلال الوطني وصيانة الثروة الوطنية.

* لم تستمر الإجراءات الوطنية لثورة

تموز طويلا حيث تمت الإطاحة بنظامها السياسي وعودة القوى السياسية المبعدة، ممثلة بقواها العسكرية الى دفة الحكم.

**ثالثا- الجمهورية الثانية وتبدلات سلطتها السياسية**

لم يكن الانقلاب العسكري ضد الجمهورية الاولى بمعزل عن القوى الخارجية ومناهضته لمصالح الطبقات الفقيرة، حيث اتسم الحكم الجديد بسمتين أساسيتين، أولاهما معاداته لمصالح طبقات التشكيلة الاجتماعية المنتجة واحزابها السياسية. والثانية التعاون مع الخارج الرأسمالي بهدف المحافظة على مواقعه في السلطة السياسية بسبب ضيق قاعدته الاجتماعية.

ولغرض قطع الطريق على القوى اليسارية والديمقراطية المناهضة لسلطة البعث الأولى أقدمت القوى العسكرية القومية على الإطاحة بالانقلاب البعثي الأول وإعادة بناء السلطة السياسية على ضوء حماية مواقعها القيادية.

بالمقابل، لم تستمر سلطة الجمهورية الثانية بماركتها القومية طويلا الا وعاد حزب البعث الى قيادة السلطة السياسية (بانقلاب قصر) وحاول رغم طابعه الدكتاتوري القيام بإجراءات وطنية وأخرى اقتصادية بهدف التقرب من القوى اليسارية والديمقراطية.

لقد اتسمت السلطة الجديدة بقيادة حزب البعث بسمات كثيرة أهمها:

1 - حزبية وهامشية القوى الاجتماعية الماسكة بالسلطة السياسية.

2 - تحالف القوى الانقلابية وبيروقراطية الجهاز الإداري مع القوى الهامشية لقيادة السلطة السياسية.

3 - اقتران التحالف السياسي الجديد بروح إرهابية معادية للقوى اليسارية والديمقراطية، وما نتج عن ذلك من اضعاف للقوى الوطنية الديمقراطية.

4 - القيام بإجراءات اقتصادية - سياسية مناهضة للخارج الرأسمالي، خاصة في قطاع النفط عبر التأميم الوطني لشركات النفط الأجنبية.

إن إجراءات القوى اليمينية القائدة في حزب البعث المهيمنة على السلطة السياسية لم تمنع من تأييد القوى اليسارية للإجراءات التي اتخذتها الحكومة البعثية ومهدت الطريق لقيام الجبهة الوطنية عام 1973.

كما ترافق اعلان التحالف الوطني وحملة ارهابية معادية للأحزاب الديمقراطية واليسار الاشتراكي، تكللت بانهيار التحالف بين الحزب الحاكم والحزب الشيوعي وانتقال الأخير الى مقاومة الحملات البوليسية برفع السلاح بوجه الحملة الإرهابية.

وافضى استمرار الكفاح المسلح والحرب العراقية - الإيرانية الى كثرة من التدخلات الخارجية حرمت القوى الديمقراطية من بناء سلطة سياسية، تلبي المصالح الوطنية.

من جهة اخرى، أنتجت الحرب العراقية - الإيرانية كثرة من المصاعب الوطنية منها زيادة حدة البطالة وآلاف القتلى مترافقاً وعشرات الآلاف من المعوقين، الأمر الذي أدى الى اشتداد الازمة الوطنية الشاملة.

وبهدف الخروج من الازمة الوطنية أقدمت السلطة الإرهابية على اجتياح الجارة الكويت وضمها الى العراق، وما رافقها من سطو مسلح على ثروات البلاد النفطية تحت مبررات تاريخية زائفة.

استناداً الى تلك السياسة الارهابية استطاع العدوان الأمريكي الهيمنة على العراق

واسقاط الحكم الاستبدادي.

فتح الاحتلال الأمريكي الابواب امام حكم القوى الطائفية السياسية على أساس المحاصصة الطائفية – القومية المناهضة للديمقراطية السياسية والشراكة الوطنية.

بالرغم من اتشاح الدولة العراقية بالديمقراطية وفصلها بين السلطات الثلاث التنفيذية – التشريعية - القضائية الا ان المحاصصة أصبحت الناظم السياسي لطبيعة السلطة العراقية.

ان استمرار مبدأ المحاصصة السياسية بتشكيل أجهزة الدولة أوقع البلاد بحزمة من الإشكالات أهمها ضعف سلطة البلاد السياسية وانتشار التشكيلات العسكرية الطائفية والارهابية.

**رابعاً: الهيمنة الطائفية السياسية وتغيرات البنية الطبقية**

افضت الانتخابات التشريعية الى تصدر الأحزاب الطائفية للعملية السياسية ونتيجة لذلك فقد هيمنت الأحزاب الطائفية السياسية على السلطات الثلاث في الدولة العراقية.

افضى اعتماد أسلوب المحاصصة الطائفية تدريجيا الى ضعف الدولة الوطنية المتجسد بالمفاصل الاتية:

- اعتماد الأحزاب الطائفية على مليشيات مسلحة موازية للمؤسسة العسكرية الوطنية.
- امتلاك المليشيات العسكرية أجهزة أمنية موازية للأجهزة الامنية في الدولة العراقية.
- ترافقت الجوانب السياسية المشار اليها وتغيرات في البنية الطبقية للتشكيلة الاجتماعية العراقية، تمثلت بتصدر الطبقات الفرعية للعملية الاقتصادية وابعاد الطبقات الأساسية.
- انقسام التيار الطائفي الى مرجعيتين مرجعية إسلامية متضمنة صيانة الاستقلال ومناهضة الخارج الأجنبي، ومرجعية ولائية مساندة لتوجهات دولة الفقيه الإسلامية.
- تعدد المرجعيات الفقهية يحمل مخاطر الصراعات الاهلية وتقسيم البلاد الى أقاليم طائفية.

ان التغيرات السياسية والاقتصادية المشار اليها أدت الى تفكك الروح الوطنية بسبب عدم تجانس الأحزاب الطائفية واضعافها لسيادة الدولة الوطنية.

**خامساً – الشرعية الديمقراطية وإعادة بناء الدولة العراقية**

ان محاصرة الطبقات الفرعية ومنع تفكك الدولة العراقية وما ينتجه من نزاعات طائفية يتطلب من القوى الوطنية الديمقراطية اعتماد برامج وطنية ديمقراطية ترتكز على:

1- اعتماد الشرعية الديمقراطية للحكم واستبعاد المحاصصة السياسية التي تسعى الى تفتيت الدولة العراقية.

2- خوض المنافسة السلمية في الانتخابات الوطنية على اساس برامج وطنية – ديمقراطية تعني بتقوية وتطوير الدولة العراقية وتشكيلتها الطبقية.

3- حل المليشيات المسلحة وادماجها في المؤسسة العسكرية تحت قيادة سلطة الدولة السياسية.

4- ارتكاز المنافسة السلمية في الانتخابات الوطنية على أساس وطنية البرامج الانتخابية واستبعاد السمة الطائفية.

ان الموضوعات المشار إليها ربما تشكل دالات كفاحية تنفع القوى السياسية في كفاحها المناهض للتبعية والتهميش.

# المدونات التاريخية والنصب التذكارية ودورها في تجسيد الرمزية الوطنية والقومية والإنسانية *

**أ.د. إبراهيم خليل العلاف**
**أستاذ التاريخ الحديث المتمرس – جامعة الموصل – العراق**

ابتداء أشكر الاخوات والاخوة في (منظمة حكماء العراق للعدالة الانتقالية) على اقامتها هذا المؤتمر العلمي الدولي للعلوم الانسانية* وبعنوان (العدالة الانتقالية: آفاقها وسبل تحقيقها في العراق والمنطقة)، وبالتعاون مع عدد من الجامعات والمؤسسات العلمية والقانونية والنقابية. واحيي الاخ الشريف البروفيسور خالد بن ناجي المنسق العام للمنظمة على جهوده الطيبة واتمنى له ولرفاقه النجاح والتقدم.

واقول ان الاخوة في هذه المنظمة الكريمة كلفوني بكتابة ورقة بعنوان (دور المدونة التاريخية والنصب التذكارية في حفظ ذكرى الفظائع الوطنية). وقد سعدت جدا بهذا التكليف نظرا لان هذا الموضوع مهم وضروري لتحقيق العدالة الانتقالية بعد سلسلة من التجاوزات على الانسان وكرامته ودوره في الحياة.

من المؤكد ان الشعوب ومنذ ان وجد الانسان على ظهر هذا الكوكب تبحث عن ان توثق لما تمر به من تحديات ونكبات وهزائم بنفس القدر الذي تحرص فيه من اجل ان توثق لما تمر به من انتصارات ونجاحات. والقصد في كل هذا ان تظل تذكر الاجيال بما وقع لها وما مرت به.

ونقصد بالنصب التذكارية (مونيومنتا Monument) بناء او موقع او تمثال يشيد لكي يخلد حادثة او شخصا بقصد التذكير القومي للشعوب بأحداث مؤلمة او سعيدة.

أما المدونات التاريخية فهي السجلات التي تكتب لتوثيق ايام وحوادث ووقائع مرت بها الشعوب او الدول عبر تاريخها القديم او الوسيط او الحديث او المعاصر.

ويقينا، ان ما تُسجله (المدونات التاريخية) وما تجسده (النصب التذكارية) يظل قائما كوسائل مهمة وضرورية لتنشيط وحث الذاكرة الانسانية، ليس بقصد الثأر والانتقام وانما بقصد اتخاذ العبرة ومنع حدوث كوارث وفظائع متشابهة.

ويبدو ان اقامة مثل هذه النُصب والتماثيل قد تكون وسيلة من وسائل التفاهم الانساني من الطرفين. واضرب مثلا على ذلك النصب التذكاري لجنود مصريين قتلوا في الحرب الاسرائيلية - العربية الاولى سنة 1948 والموجود في مدينة اشدود جنوبي اسرائيل، والذي اقيم سنة 1989 وقد ذكرت صحيفة (جيروزاليم بوست) الاسرائيلية ان النصب التذكاري المصري اقيم سنة 1989 في ذكرى مرور عشر سنوات على توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وانه مصنوع من الجرانيت المصري الأحمر، ومنقوش عليه بأربع لغات هي: العربية والعبرية والإنجليزية والهيروغليفية.

وهذا النصب التذكاري المصري يأتي تخليدا لذكرى أربعة جنود قتلوا في معركة "الفالوجة" في حرب سنة 1948، وهم: أحمد عبد العزيز، وأحمد بيومي، وإبراهيم السيد، وأبو حسين عيسوي. واشارت الصحيفة إلى أن حرب 1948 وهي التي تسميها اسرائيل بـ(حرب الاستقلال) شارك خلالها أكثر من 2500 جندي مصري، حاولوا الوصول إلى مدينة تل أبيب، آنذاك، ولكن قتل منهم 2000 مصري.

اليهود هم من الذين حاولوا توثيق ما مر بهم من فظائع خلال الحرب العالمية الثانية من خلال حديثهم وتوثيقهم لما اسموه (الهولوكست) اي (الهشواء أي الشي او الشواء) وتعني باللغة العبرية (الكارثة) ويقصدون الابادة التي تعرض لها ما يقارب الستة ملايين يهودي على ايدي النظام النازي.

واذا ما عدنا الى الفيتناميين فإنهم جسدوا بطولاتهم عبر متحف التاريخ العسكري في العاصمة (هانوي). وأرخ الفلسطينيون كفاحهم ضد الاحتلال الاسرائيلي في نصب تذكارية عديدة انتشرت على مساحة واسعة من الميادين العامة في الأراضي الفلسطينية، وخصوصاً في قطاع غزَّة. ومن أشهر هذه النُصب (الجندي المجهول)، والذي أُقيم وسط مدينة غزَّة في سنة 1956، وبحسب المؤرّخ الفلسطيني سليم المبيض، فإن الاحتلال الإسرائيلي دمَّر هذا النُصب، ثم أُعيد بناؤه، فعاود الاحتلال تدميره سنة 1967، واعادت السلطة الفلسطينية بناءه بإيعاز من الرئيس الفلسطيني الراحِل ياسر عرفات، الذي أزاح الستارة عنه في السنة 2000، وقد تمّت إضافة مجسّم لجندي مجهول يعتلي القبر.

وكما هو معروف فإن تكرار نُصب الجندي المجهول في عددٍ من البلاد العربية والأجنبية ومنها العراق، هو احترام وتقدير لتضحيات الجنود الذين ضحّوا بأرواحهم من أجل بلادهم وماتوا من دون أن تُعرَف قصصهم وهويّاتهم.

وفي متحف مدام توسو أي متحف الشمع في لندن، رأيت جانبا من جوانب ما تعرض له اليهود على يد هتلر، وبطريقة تجعل الزائر يشعر بالرعب.

كما انهم جسدوا في المتحف ايضا من قتل بالمقصلة في ايام الثورة الفرنسية سنة 1789 وبطريقة مثيرة للرعب حقا.

وفي مدينة السليمانية زرت (المتحف الاحمر) حيث مقره هو (مديرية امن السليمانية السابق)، وفيه الغرف التي كانت تشهد حفلات التعذيب للمناوئين للنظام السابق 1968 - 2003، وكذلك الامر في نصب شهداء حلبجة والمسمى بالكردية (مونومينتي هه له بجه)، وهو تمثيل وتذكار لجريمة مروعة حيث استخدم السلاح الكيماوي خلال الحرب العراقية – الايرانية عندما قُصفت حلبجة. وراح ضحية القصف اكثر من 5000 شهيد و10 الاف جريح، فضلا عن تدمير البلدة.

النصب التذكارية، ليست الا تجسيد لرمزية وطنية بهدف ترسيخ هذه الرمزية في نفوس الاجيال، واعطاء الانطباع بديمومة النضال من اجل الحرية والتقدم والسلام.

واريد ان اقول ان كل الشعوب المحبة للسلام والتقدم في العالم تسعى الى ان تضع في ساحاتها ومدنها وميادينها نصبا تذكارية، تذكر بما مرت به تلك الشعوب في حياتها.. في اميركا وروسيا واليابان والصين وفي كل مكان.

وغالبا ما تقام النصب التذكارية من النحاس، وقد تقام من الكونكريت. ويحاول الفنانون ان يخرجوا بما يصنعونه من نصب الى الشوارع والساحات العامة، ليشركوا اكبر عدد ممكن من ابناء الشعب في تعميق الاهتمام بالعدالة والنضال من اجل الحرية.

من هنا، يمكننا القول ان النُصب ليست فقط أعمالا فنية بقدر ما هي اعمال انسانية تحثّ على أهمية أن تتمتّع جميع فئات المجتمع بحقوقها. وهنا يرتبط الفن بالتاريخ ويصبح الفن هو المؤرّخ صاحب الذاكِرة الأقوى في تدوين ليس فقط الماضي وانما الحاضر وبطرق مختلفة وحتى يترك كل هذا للأجيال القادمة التي من حقّها أن تعرف ما وقع على هذه الأرض من انتصارات وانكسارات.

وبقدر ما يكون للنصب التذكارية من دور في تذكير الاجيال بما حدث، فإن للمدونات التاريخية المتمثلة بالوثائق والكتب والمذكرات الشخصية والرسائل الخاصة والصحف والمجلات والموسوعات، دور في توثيق ما جرى؛ فالمؤرخ الحصيف هو من يعيد تشكيل الحدث كما وقع وبدون ان يزيد او ينقص. وهذه الرؤية هي من نتائج تحول التاريخ في القرن الثامن عشر وعلى يد المؤرخ والمفكر الفرنسي فولتير الذي انقذ التاريخ من ايدي رجال الدين والمتسلطين من الحكام، ليجعله تاريخا للشعب، وهو اول من تحدث عما سماه فلسفة التاريخ والتي كان من نتائجها ان المؤرخين ومنهم كولنجوود في كتابه (فكرة التاريخ) بدأ يتحدث عن السنن والقوانين والاحكام التي تتحكم في احداث التاريخ، كما تتحكم السنن والقوانين والاحكام في احداث الطبيعة.

وقد بدأنا نرى ان المؤرخين الكبار وخاصة في اوربا قد انصرفوا لوضع مدونات تاريخية وطنية تجسد ما مرت به شعوبهم. فهذا توماس بابنجتون ماكولي

(1800 – 1859) يكتب تاريخ انكلترا وهذا فرانشيسكو غيتشارديني (1486 - 1540 ) يكتب تاريخ ايطاليا، وهذا هنريش فون ترايتشكه يكتب تاريخ المانيا. وهذا جول ميشليه يكتب تاريخ فرنسا ووضع اوزوالد شبنغلر كتابا عن الحضارة الغربية، والّف ارنولد توينبي كتابا عن الحضارات الانسانية، وانتقلت الكتابة التاريخية لتصبح تصويرا جديدا للماضي وسبيلا من سبل التقدم نحو الحرية والعدالة والتقدم.

يقول كولنجوود ان الفيلسوف (كانت) اعتقد ان هناك قيمة واحدة فقط لا يمكن ان تتعدد وهي قيمة مستقلة عن خدمة الاغراض الانسانية، تلك هي القيمة الاخلاقية لإرادة الخير والسلام.

باختصار اقول: اننا لكي نستذكر الفظائع الوطنية وغير الوطنية في العراق لا بد لنا من احصائها وانتقاء منها ما يساعدنا على تخليد نماذج منها من خلال تدوينها وتوثيقها رقميا وكتابيا واقامة نصب تذكارية لضحاياها قبل 2003 وبعد 2003 وخلال سيطرة عناصر داعش على عدد من المحافظات العراقية بين 2014 و2017، لما لذلك من تأثير معنوي ايجابي على الناس وخاصة الضحايا وتأسيس ما يعرف بالذاكرة التاريخية الجماعية.

بوركت جهودكم من اجل تعميق مفاهيم العدالة الانتقالية وتهيئة المناخ الملائم لها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

**• عقد المؤتمر في مدينة اربيل عاصمة كوردستان العراق بين 12 - 13 شباط – فبراير سنة 2020.**

# نصوص قديمة

# معينُ أملٍ لا ينضب *

**دولوريس ايباروري**
**رئيسة الحزب الشيوعي الإسباني**

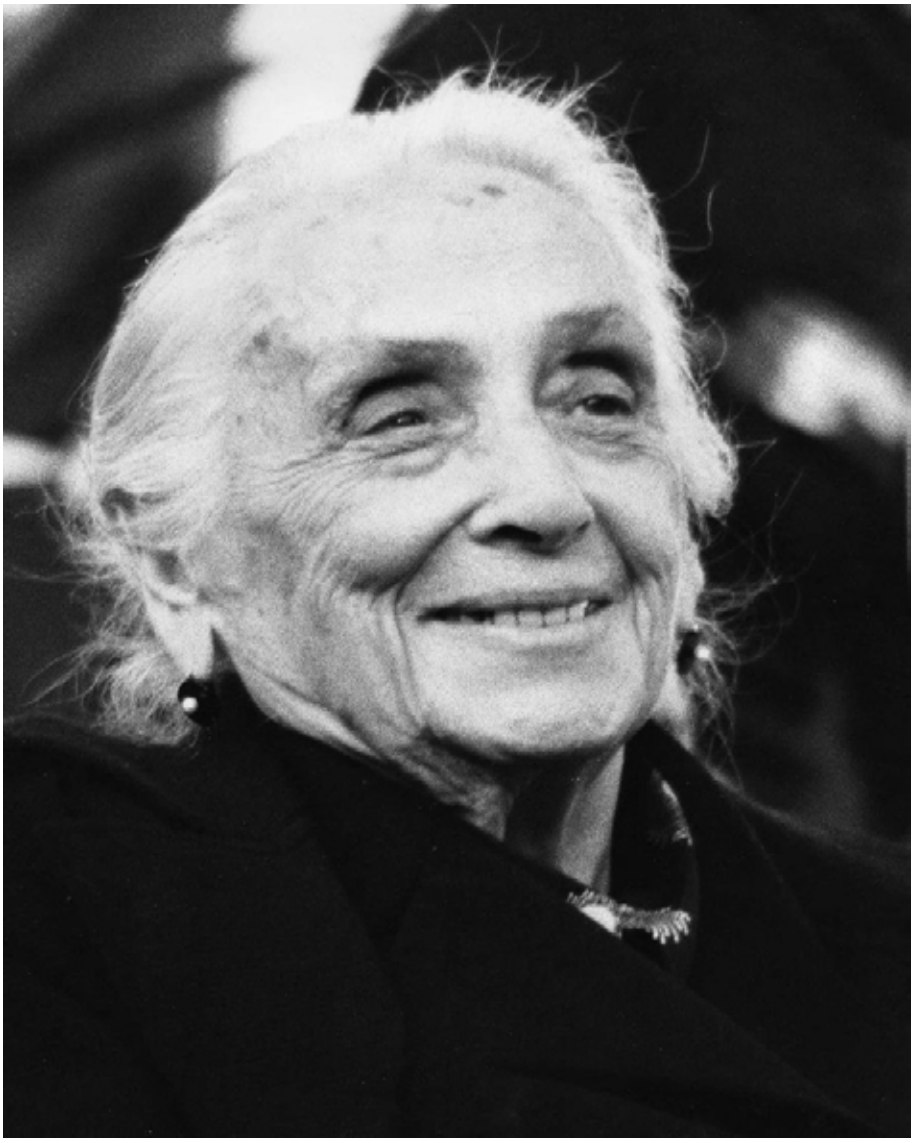

**إنّ اسم دولوريس ايباروري معروف على نطاق واسع خارج اسبانيا. فحياتها في النضال الثوري رديفة للإخلاص لقضية تحرير الشغيلة، قضية الطبقة العاملة. وفي سنوات الحرب الوطنية الثورية في اسبانيا والحرب العالمية الثانية وما بعدها كانت نداءات باسيوناريا (اسمها الحركي – المحرر) النارية تلهم الالوف العزمَ على محاربة قوى الرجعية.**
**في كانون الاول (ديسمبر) 1985 بلغت ايباروري التسعين من العمر. وننشر هنا ما قالته في مقابلة أجرتها معها مجلة "قضايا السلم والاشتراكية".**

**- شهدتم تطورات كبيرة حدثت في هذا القرن وشاركتم فيها، وساهمتم بقسط كبير في النضال من اجل التقدم وبناء حياة افضل للشغيلة، وفي سبيل المُثل الشيوعية. كيف تعتقدون ان هذه المُثل أثّرت في التطور الاجتماعي التاريخي؟**

• ان مُثلنا، المُثل الشيوعية لتحرير الشغيلة اجتماعيا اضاءت كل حياتي المكرسة بأكملها للنضال. وفي كتاب "الطريق الوحيد" اوضح ما عناه انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا بالنسبة لي. ففي ذلك الحين لم أكن قد ادركت تماما بعد جسامة هذا الحدث وأثره على مستقبلي ومستقبل ملايين الناس والبشرية جمعاء.

ومع ذلك شعرت بالفطرة انه كان أمرا عظيما لا يسبر غوره. ولم أستطع حينذاك ان أفكر بشيء سوى تلك البلاد التي اصبحت منذ تلك اللحظة قريبة إلينا جميعا. وطبعت كلمتان في ذاكرتي الى الأبد، تاركتين أبلغ الاثر في قلبي وعقلي: "روسيا ولينين".

لقد مرّ زهاء 70 عاما منذ ذلك الوقت. وظهرت على خارطة العالم منظومة كاملة من البلدان الاشتراكية الخالية من الاستغلال الرأسمالي. ونفضت عشرات البلدان عنها نير الاستعمار لتصبح سيدة مصائرها. كما شرع وطني - إسبانيا حيث انتفضنا قبل نصف قرن ضد الفاشية - في السير على طريق الديمقراطية بعد سنوات العذاب الطويلة في ظل دكتاتورية فرانكو الملطخة بالدماء، مع ان ذلك لم يكن بالأمر الهين.

لهذا السبب مازالت مُثلنا مرشدا ومعينا من الأمل لا ينضب للمقهورين وغاية للنضال مهما بلغت الاتجاهات الاجتماعية – التاريخية الراهنة من تعقد وتنوع.

**- انضممتم الى الحزب الاشتراكي ثم الى الحزب الشيوعي قبل ما يربو على ستة عقود. وبعد أن ذقتم مرارة الحياة التي كان عمال المناجم الاسبان وعائلاتهم يعيشونها في المعركة من أجل التحرر الاجتماعي للطبقة العاملة، من اجل حاجاتها وحقوقها. كيف تبدو اهمية هذه الاسباب بالنسبة لك الآن؟**

• الحق ان الكثير قد تغيّر في غضون هذه العقود الستة، لكن المبادئ ظلت واحدة، تغير تركيب الطبقة العاملة من بعض النواحي واتسعت صفوف حلفائها، ولم تتناقص نتيجة الثورة العلمية التقنية. وأصبحت أشكال النضال بالغة التنوع في الوقت الحاضر. بصرف النظر عن ذلك كله فإن هدفنا الدائم هو خدمة تطلعات وحقوق ومصالح الشغيلة. وبمعنى أوسع سائر المتأثرين بسياسات رأس المال الكبير. كما برزت بعض الظواهر الجديدة ومنها ما

يعرف بـ "الحركات الاجتماعية الجديدة": الحركات الايكولوجية والأنثوية، الخ، وهي، رغم انعدام تجانسها وافتقارها في بعض الاحيان الى الآراء المحددة بوضوح، حركات معادية للرأسمالية من الناحية الموضوعية واندمجت في موجة احتجاج عارمة تعكس وجود أزمة اجتماعية عميقة مكملة للأزمة الاقتصادية الراهنة. ولكن التناقض الرئيسي ما زال التناقض التناحري بين العمل ورأس المال، بين المضطهَدين (بالفتح) والمستغلِين (بالكسر). لذا ما زالت الطبقة العاملة هي المحرك الرئيسي وراء التغير الاجتماعي الحتمي بأوسع ما في الكلمة من معنى.

**- كونكم من المناضلين القدامى في الحركة الشيوعية العالمية ما رأيكم بدورها وموقعها في عالم اليوم؟**

• إنني من دون اطلاق أية تعميمات اعتقد بصفتي رئيسة الحزب الشيوعي الإسباني، أحد فصائل الحركة الشيوعية العالمية، إنها تضطلع بدور كبير في عالم اليوم لأسباب متعددة منها وجود بلدان بضمنها دول كبرى مثل الاتحاد السوفيتي والصين، تقودها أحزاب شيوعية. كما ان بلداناً اخرى سلكت طريق التطور الاشتراكي بسمات خاصة.

يضاف الى ذلك ان حركتنا مهما بلغت من تنوع وتباينت ظروف عمل الاحزاب المختلفة وجذورها التاريخية، الخ، ترص صفوفها على اساس احترام كل حزب واستقلاله في صياغة استراتيجيته وتكتيكاته وعدم التدخل في شؤون بعضها البعض.

لقد اظهرت التجربة التاريخية لنا ضرورة الابتعاد عن النظرة الجامدة الضيّقة شريطة ان نكون مخلصين اخلاصا تاما للنظرية الماركسية التي نراها تتطور باستمرار مواكبةُ روح العصر. انني معجبة بعبقرية لينين، وأيدتُ دائما موقفه الذي اعاد للماركسية زخمها الثوري، واثبت ان بالإمكان تطوير افكار ماركس وأنجلس في العصر الجديد – عصر الامبريالية. وفي الوقت نفسه فان ما يرتدي أهمية كبيرة بالنسبة للحزب الماركسي الثوري هو ان يعتمد سياسة تحالفات سليمة تعني الآن على مختلف جبهات النضال وحدة العمل او التقرب من الاشتراكيين والاشتراكيين الديمقراطيين والمسيحيين التقدميين وغيرهم وكذلك من الحركات الاجتماعية الجديدة التي سبق ان اتيتُ على ذكرها.

**- إن اسمكم يقترن بسنوات المقاومة ضد الفاشية والتصدي لقوى الرجعية والحرب. فما هي برأيكم الدروس الرئيسية لتلك السنوات؟ وما هو شعوركم بمناسبة حلول الذكرى الخمسين في وقت لاحق من هذا العام لانطلاقة الحرب الوطنية الثورية في اسبانيا؟**

• ان العبرة الرئيسية لتلك الفترة، كما أراها، هي ان الشعب المناضل الموحد من اجل قضية عادلة والمصمم على تحمل كل المشقات شعب لا يقهر. لقد كان شعارنا "لن يمروا!" وعلى الرغم من هزيمتنا التي كان من اسبابها الرئيسية سياسة ميونيخ التي اتبعتها الدوائر البريطانية والفرنسية الحاكمة، فقد كان النصر حليف العدالة في غمرة نضال الشعب الاسباني من اجل الديمقراطية: لقد كان النصر حليف الشعب.

وبالنسبة لي فإن الذكرى الخمسين لانطلاقة الحرب الوطنية الثورية في اسبانيا تستعيد في المقام الاول ذكريات البطولة التي ابداها شعبنا الذي ضرب مثالا لأوربا والعالم اجمع

بصموده على امتداد ثلاث سنوات تقريبا، أمام هجمة العصاة الفرانكويين المدعومين بغزو قوات هتلر وموسوليني.

لقد عملت سياسة الجبهة الشعبية التي انتهجها الحزب الشيوعي الاسباني، على توحيد القوى الديمقراطية التي كانت دعامة المقاومة ضد الفاشية. ولم يتوقف القتال على الجبهة: إلا حين افلح المتخاذلون في فصم عرى هذا التحالف الشعبي بذريعة واهية هي الحاجة الى "سلام مشرف" رغم استمرار المقاومة ضد فرانكو، بوحي من حزبنا بالدرجة الرئيسية، على شكل عمل مسلح في البداية، ثم من خلال اقامة حركة عمالية وتضافر قوى الشغيلة والطلبة ومجموعات أخرى في المطالبة بإصدار عفو عام وإطلاق الحريات الديمقراطية.

**- لقد اظهرت سنوات النضال الذي خاضه الشعب الاسباني ضد الهجمة الفاشية بشكل ساطع القوة الجبارة للأممية البروليتارية والتضامن الأممي للشيوعيين وسائر القطاعات التقليدية والديمقراطية في التصدي لمخططات القوى الإمبريالية والرجعية العدوانية وصيانة السلام والديمقراطية. ما هي في رأيكم أهمية هذا التضامن الآن؟**

• الحق ان التضامن الأممي للشيوعيين وسائر القوى التقدمية مع اسبانيا الجمهورية في نضالها ضد الفاشية المحلية والعالمية تجلى بأروع صورة في تلك السنوات. ومآثر الفيلق الأممي لن تنسى. ومنذ ذلك الحين أبدى الشيوعيون الاسبان في اكثر من مناسبة تضامنهم الأممي مع الشعوب المناضلة من اجل تحررها: مع فيتنام التي تصدت للامبريالية الأمريكية، مع كوبا التي واجهت بشجاعة الحصار والتدخل الأمريكي، مع الشعب الفلسطيني – ضحية العدوان الاسرائيلي، والآن مع شعب نيكاراغوا الذي يتعرض الى تهديدات واشنطن. وباختصار إننا، كشيوعيين، أمميون حقيقيون أيضا وبذلك نرد قسطا من دين التضامن الذي قدم لنا بثبات لا في خلال السنوات الثلاث من النضال المسلح فحسب، بل وفي فترة المقاومة ضد دكتاتورية فرانكو.

**- كنتم في الثلاثينات عضوا في البرلمان ونائبا لرئيسه. وكان لخطاباتكم أثر بالغ في الجمهور وقد ألهمت الديمقراطيين الاسبان للنضال ضد الدكتاتورية. ما هو في رأيكم "السر" في الطريقة التي يؤثر فيها الخطيب أو الشخصية الاجتماعية في الجماهير؟ هل مازالت ثمة حاجة ملحة لأن يعمد القائد السياسي الى مخاطبة الناس بصورة مباشرة؟ هل طغى التلفزيون على هذا الفن؟**

• يتوقف تأثير الخطيب او السياسي في الناس على أمر في غاية البساطة لكنه لا يتحقق بسهولة، وهو المقدرة على الارتباط بهم ومشاطرتهم مشاعرهم والحديث بلغة يفهمونها (من دون تبسيط) عن القضايا التي تهمهم. وحين تخاطب جمهوراً كبيراً تشعر على الفور ما اذا كانت الكلمات استعصت على فهم الناس أم لم تستعص، ولا توجد وسائل خطابية تقليدية تعوض عن هذا الفن. وكان شاعرنا العظيم انطونيو ماتشادو يقول: "أن اتحدث كما يتحدث الشعب: ماذا يمكن ان اتمنى اكثر من ذلك"!

ولا ريب في ان التلفزيون وغيره من اجهزة الاعلام السمعية – البصرية العصرية قد جاءت معها بوسائل جديدة مما يؤسف له ان البرجوازية تستخدمها للتعتيم على الناس

وتضليلهم لا لتنويرهم. ولكن ما من تقنيات مهما بلغت من تقدم تستطيع ان تحل محل الكلمة الانسانية المنطوقة، كلمة الشعب المصمم على دفع عجلة التاريخ باتجاه التقدم. وما زال من المتعذر الاستعاضة عن الحوار المباشر بين القائد السياسي بل وأستطيع القول بأن الناس يزدادون خبرة وتطلبا. وهو يدركون على الفور ما اذا كان القائد السياسي صادقاً ام مزيفاً.

**- بوصفكم امرأة وأماً عانيتم الكثير من المحن – فأولا امتدت يد الفقر والمرض اللذين ابتليت بهما عائلات عمال المناجم، لتخطف منكم بناتكم ثم استشهد إبنكم في معركة ستالينغراد وهو يقاتل الفاشيين. ما الذي تتمنونه للنساء في مختلف البلدان؟ ما هو دورهن في عالم اليوم؟**

• ماذا يمكن أن أتمنى للنساء في مختلف البلدان؟ بادئ ذي بدء، السلام وإزالة خطر نشوب حرب نووية من المؤكد انه لن يكون فيها غالب او مغلوب. لن يكون أي شيء ممكنا من دون سلام. والنساء، كما تعلمنا حركة السلام الواسعة (والتي تكتسب في اسبانيا شكل حملة ضد حلف شمال الاطلسي ومن أجل حل التحالفات العسكرية في آن واحد ونزع السلاح وانتهاج سياسة حياد ايجابي) قوة كبيرة ليس من الناحية العددية فحسب، بل وبسبب تفانيهن بلا تحفظ في سبيل قضيتهن. وسيكون الفشل مآل كل تغيير ثوري اذا ما اخفقنا في ان نزج فيه جماهير النساء بطاقاتهن التي لا تنضب وبحكمتهن وتفانيهن.

**- ما هي السمات التي تعتقدون أنها مميزة وهامة في الشيوعيين؟ وما الذي تتمنونه للشباب، للأجيال الجديدة من الشيوعيين؟**

• أعتقد أن من سمات الشيوعيين البارزة هي اخلاصهم التام في خدمة مصالح الشغيلة والمقهورين ومعارضتهم لأي شكل من أشكال اللامساواة الاجتماعية، صمودهم في الملمات والخطوب، احساسهم التضامني. هذا على وجه التحديد هو الخلق الشيوعي المستند الى مبادئ اخلاقية سامية والناجم عن قناعات شخصية وليس عن نمط من السلوك يفرضه عليك شخص آخر. واشعر ان لهذا الخلق أهمية بصفة خاصة فيما نعرفه بـ"المجتمع الاستهلاكي" الذي أوقع الناس في شباك من القيم الزائفة بالمعنى الحر للكلمة.

وإني اذ اتوجه الى الشباب كافة وبالتحديد الى الاجيال الفتية من الشيوعيين أتمنى لهم ان يواصلوا ارث الاجيال الثورية السابقة والحفاظ على هذا التقليد في النضال من اجل عالم أفضل وأكثر عدالة، تلك القضية التي وهب الكثير من الاخيار حياتهم من أجلها. واني اذ اقول ذلك لا أنطلق من مشاعر الامومة وحدها لأنني اريدكم ان تكونوا قادرين على بناء مجتمع يتناغم مع عصركم.

أتمنى أن تبقوا مخلصين لقضية الاجيال السابقة من الشيوعيين وألا تبقوا مشدودين الى الماضي وإنما ان تسيروا بثبات الى الامام في طموحكم، وان تقدموا الحلول وفقا لما تمليه افكاركم من المتطلبات الجديدة لهذا العالم الفسيح المتغير على الدوام.

* مجلة (الثقافة الجديدة)، العدد 175/ تموز 1986، ص 119 – 123.

# نصوص مترجمة

# السكان والسياسات الطبقية
# نظرية الهيمنة لغرامشي.. اقتراب من قضية الهجرة

بقلم: أليكس ديميروفيتش
ترجمة: رشيد غويلب

**أليكس ديميروفيتش من مواليد 1952 في مدينة دارمشتات – المانيا، فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، وأحد ممثلي النظرية النقدية. عمل، بين أمور أخرى، أستاذا في جامعة فرانكفورت / ماين وجامعة برلين، وهو رئيس المجلس الاستشاري العلمي لمؤسسة روزا لوكسمبورغ، وزميل في معهد المؤسسة للتحليل الاجتماعي وعضو مؤسس لمجلة روزا لوكسمبورغ، وعمل في العديد من الجمعيات والمؤسسات البحثية، وله عدد كبير من المؤلفات، والبحوث في مجال اختصاصه. الترجمة للمحورين الأول والثاني من بحثه المنشور في عدد مجلة روزا لوكسمبورغ الفصلية أيلول 2018.**

أليكس ديميروفيتش

**الهجرة كتحد لليسار**

منذ صيف عام 2015 حين فتحت الحدود الألمانية أمام العديد من اللاجئين، وخاصة من مناطق الحرب في سوريا، الذين تقطعت بهم السبل في المجر والنمسا وكذلك في دول البلقان، كان الراي العام الألماني يناقش بانفعال مرة أخرى قضايا اللجوء والهجرة، ويختلف بشأنها. لقد شهدت أوائل التسعينيات خطابا وحرب خنادق مماثلة. بعد التوحيد غير الديمقراطي للدولتين الألمانيتين، من الواضح أن عدداً كبيراً من طالبي اللجوء، وخاصة من أوروبا الشرقية، استغل من قبل الأحزاب المحافظة والحكومة لخلق مزاج قومي. ونتيجة لذلك، أُلغي حق اللجوء الأساسي فعلياً في عام 1993 (تعديل قوانين اللجوء في سياق السياسات الليبرالية الجديدة للمستشار السابق غيهرد شرودر- المترجم)؛ بموجب هذا التعديل، تمت الموافقة على أقل من واحد بالمائة من 600 ألف طلب لجوء قُدمت في عام 2017 (جريدة تاتس في 9 آب 2018). في عام 2015، كان تصريح ميركل في 31 آب "يمكننا انجاز ذلك"، يعبر عن جديد، وتعامل إيجابي مع استقبال اللاجئين، وأن الأوساط المهمة في الحزبين الديمقراطي المسيحي وشقيقه الاجتماعي المسيحي، تعترف الآن بوجود الإسلام في ألمانيا، وكانت صديقة للاجئين لفترة وجيزة، وأن حزب "البديل من أجل ألمانيا" اليميني المتطرف، الذي دخل في أزمة بعد تأسيسه في نيسان 2013، تمكن، في هذه الفترة، من خلال تصعيد العنصرية ضد اللاجئين، ترسيخ وجوده. واشتكى ناشطو المساعدات الإنسانية ودعم اللاجئين من أن السلطات غالباً ما تكون مرهقة ولا تستطيع تقديم المساعدة المطلوبة، بعد تقليص البنية التحتية الواسعة لمساعدة اللاجئين، والتي كانت موجودة في التسعينيات، بشكل كبير، إثر إقرار اتفاقية دبلن (إعادة اللاجئين القادمين عبر بلد ثالث – المترجم). ولهذا تولت منظمات المجتمع المدني والعديد من المساعدين المتطوعين مهام (المشورة، الإمدادات الغذائية، المبيت). وانتقد المحافظون واليمينيون الحكومة، واصفين تصرفها بـ "غير المسؤول"، وانها سلمت الدولة لتوغل اللاجئين بطريقة خارجة عن السيطرة. ويجب ألا يتكرر صيف 2015 مرة ثانية، أي أن على الدولة أن تكون قادرة في المستقبل على صد اللاجئين عند الحدود، إذا لزم الأمر.

كان تقديم المساعدة وإبقاء الحدود مفتوحة كما هو مطلوب بموجب القانون الدولي ضروريين لإنقاذ حياة الناس، ومدعومين (حتى اليوم) من قبل غالبية السكان الألمان. هذه الأكثرية التي اذهلتها التغطية الإعلامية، التي أثارت مرارا فضيحة مقتل

اللاجئين الفارين من مناطق الحرب، والمهاجرين الذين غرقوا في البحر الأبيض المتوسط. وكان الاستقطاب في المناقشات، قد بدأ منذ تشرين الأول 2014، بسبب التظاهرات الأسبوعية في مدينة درسدن التي نظمها القوميون الأوربيين ضد اسلمة الغرب وضد اللاجئين، وهو مشهد اهتمت به وسائل الإعلام بشكل مفرط. وفي التقارير الإعلامية، في التعليقات، في البرامج الحوارية أو في تصريحات السياسيين، غالباً ما تتم تغذية العنصرية والعداء للاجئين تحت غطاء تفهم مخاوف الناس والمواطنين. ونتيجة ذلك، تمكن حزب "البديل من أجل ألمانيا" اليميني المتطرف من تحقيق نجاحات انتخابية، وخصوصا ترويج وسائل الاعلام بشكل كبير الأحداث التي وقعت في كولونيا عشية رأس السنة الجديدة 2015/2016، وانتقاد ميركل والطبقة السياسية، وتحميلها بشكل متكرر المسؤولية الشخصية عن الهجمات وأعمال العنف التي قام بها مهاجرون ولاجئون، منح حزب البديل من أجل ألمانيا صدى هائلاً ومكّنه من التعبير عن استياء واسع النطاق من الحاكمين. وبدعم نشط من عدة جهات فاعلة محلية وأجنبية، شملت الدائرة الاتحادية لحماية الدستور (المخابرات الألمانية - المترجم) تحت قيادة هانز جورج ماسن (رئيس المخابرات الألمانية 2012 – 2018، احيل على التقاعد بسبب تعاطفه مع اليمين المتطرف – المترجم)، وكذلك شخصيات في محيط حزب الشعب السويسري (حزب محافظ شعبوي يمتلك الكتلة الأكبر في البرلمان السويسري- المترجم)، نجحت في تكثيف وجعل التناقضات الاجتماعية المختلفة في ملف الهجرة سببا وهميا؛ ودعت إلى إغلاق الحدود، وإعادة المهاجرين واللاجئين إلى حد استخدام الأسلحة النارية والترحيل الصارم. وقد تبنت عمليا الحكومة الألمانية وكذلك الاتحاد الأوربي الكثير منه. ووقع الاتحاد الأوروبي معاهدات مع تركيا وليبيا لمنع اللاجئين والمهاجرين من دخول البلاد ومغادرتها. ويحاول الاتحاد منع وتجريم المساعدات الإنسانية المقدمة للاجئين وتطوير فرونتكس (وكالة اوربية تملك إمكانات عسكرية كبيرة مهمتها غلق الحدود البرية والبحرية الأوربية - المترجم) لتصبح قوة بوليسية أوروبية. عبر اتفاقات مع حكومات أفريقية، وبالاستناد إلى أحدث تقنيات المراقبة، يتم إنشاء انظمة مراقبة واسعة النطاق للحدود والطرق بالإضافة إلى معسكرات مؤقتة في مناطق بعيدة، وصولا الى مناطق جنوب الصحراء الكبرى من أجل إعاقة أو منع الهجرة الى ابعد حد ممكن. ويتم جمع اللاجئين في النقاط الساخنة ومنعهم من مواصلة رحلتهم.

وهنا يبقى الكثير منهم عالقين في مجمعات إدارية، في مكان ما لشهور طويلة. ويتم احتجاز طالبي اللجوء في الموانئ، حتى يتم اتخاذ قرار بشأنهم، بحيث يمكن ترحيلهم بسرعة إذا لزم الأمر. وعلى نحو متزايد، يتم الإعلان عن العديد من الدول "الآمنة" للقيام بعمليات الترحيل. وحتى الذين تم دمجهم لغوياً ومهنياً، يتم ترحيلهم على الرغم من النقص الواضح في الايدي العاملة. ويتحدث ممثلو الحكومة بطريقة مهينة عن اللاجئين والمهاجرين:

"لحوم بشرية"، "غزاة"، "مجرمون غير شرعيين"، "سائحو اللجوء"، ويُشوه داعمو اللاجئين بوصفهم "سيارات أجرة المنظمات غير الحكومية" أو "صناعة مناهضة للترحيل"، وتتأجج المخاوف وبالتالي يتم تشجيع الابتعاد عن التضامن وسوء المعاملة والاعتداءات الجسدية.

كان اليسار ولا يزال منقسماً حول كيفية التعامل مع ملفات اللجوء، والهجرة. وقوانين حقوق الإنسان والقانون الدولي ليست مطروحة للنقاش. وبعض اليسار يشير إلى أن قدرات الدولة ومواردها مثقلة بأعباء ثقيلة، أي سلطات منح الموافقات، والبلديات التي يتعين عليها تقديم المساعدات المالية، والسكن، أو دورات اللغة، والمدارس والمعلمين. يُخشى من أن تكون هناك منافسة على فرص الإسكان والعمل، خاصة بالنسبة لذوي الدخل والمؤهلات المتواضعة، لأن الكثير من المهاجرين واللاجئين هم من ذوي التأهيل البسيط. ويدور الخلاف حول ما إذا كان من الممكن المطالبة بإبقاء الحدود مفتوحة وقبول جميع القادمين، أو ان هناك حاجة إلى وضع سقف للقبول، وتجاوز الصيغ القانونية السابقة، وان هناك حاجة لقانون للهجرة. وهناك خشية من ان ترك الأمور مفتوحة يمكن ان يشجع المزيد من الناس على الهجرة.

ومن منظور أبحاث الهجرة، وبعيدا عن الكثير من اللغط، لا يمكن توقع ذلك، لأن الكثير من الناس لا يهاجرون أصلا، أو يهاجرون فقط إلى المناطق المجاورة. ولكن ليس واضحا أيضاً متى ستصل بلدان المهاجرين الام إلى وضع تنخفض معه معدلات المهاجرين منها. وحتى لو كان من الممكن قبول عدد أكبر من الناس، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما العدد الممكن، في حال توفير دولة الرفاهية الدعم المطلوب، وان لا تترك الهجرة ببساطة لعمليات سوق العمل أو الإسكان.

على أية حال، لا يهاجر الناس لأسباب سياسية أو دينية فقط أو لأنهم في عوز محدق، ولكن لأنهم لا يرون أية آفاق مستقبلية لهم ولأطفالهم في بلدانهم الأصلية، يمكن مقارنتها بتلك الموجودة في بلدان المهجر،

بسبب الافتقار إلى التنمية الاقتصادية والتخلف الثقافي، أو العلاقات القائمة على التبعية وعدم المساواة. تحتاج مجموعات المهاجرين هذه إلى طرق هجرة آمنة، وتغيير في الممارسات الإدارية، وتأهيلهم لسوق العمل الألماني ودمجهم فيه، حتى لا يتم تدمير الأفراد وآفاق حياتهم. يجب أيضاً الاعتراف بأن بعض المهاجرين يريدون أيضاً العيش في مجتمعاتهم الخاصة، أي ما يسمى بالمجتمعات الموازية، وتطوير اقتصادهم هناك، وأن لديهم بالفعل مؤهلات وأن اكتساب اللغة ليس ضرورياً تماما للاندماج الناجح. وبالنسبة للمجتمع الألماني، فإن المهاجرين الموجودين في أوطانهم في العديد من البلدان ليسوا ضررا، كما زُعم في حالة لاعب كرة القدم أوزيل (نجم الماني سابق تركي الأصل - المترجم)، بل هم مفيدون، لأنهم وسطاء اقتصاديون، سياسيون وثقافيون.

ان قانون هجرة قائم على التضامن من شأنه أن يحد بالضرورة من الهجرة. لذلك فإن العديد من اليساريين لديهم شكوك حول ما إذا كان تنظيم الهجرة هو النهج الصحيح، لأنه مرتبط دائماً بمجموعة مختارة من الناس. لهذا يتبنون جعل الحدود المفتوحة ويرفضون أي شكل من أشكال التسلط على الحدود الأوروبية. ومع ذلك، هذا لا يكفي لتحديد سياسة يسارية. لأنه في هذه الحالة أيضاً، يكون القرار بشأن تحديد من هو المهاجر "أعمى" إلى حد ما. وعليه لم يعد الحاسم هو القوانين المتفق عليها ديمقراطيا، إدارات او شركات، بل يتم اتخاذ القرارات من قبل العديد من الأفراد أو داخل العائلات التي تقرر الهجرة والتي يمكنها توفير الموارد المطلوبة بطريقة ما. وايضا لا تتجاوز الهجرة الطابع الطبقي لبلدان المهجر، وسيكتشف المهاجرون عاجلاً أم آجلاً طابعها عالي الحداثة، الذي يتحرك خلف واجهة مجتمع يؤدي وظائفه بشكل جيد، ويجب عليهم أن يدركوا، انه على الرغم من كل الجهود التي يبذلونها، يظلون، هم وأطفالهم، أسري مواقع طبقية اجتماعية. وليس اليسار بمفرده يطرح السؤال عن كيفية التعامل، من وجهة نظر تحررية، مع نظام غلق الحدود. فما دامت هناك دول، هناك حدود. يتم توصيف الدول، من بين أمور أخرى، من خلال تعريف السلطة على السكان والمساحة. والحدود ليست مفتوحة. ولا يمكن للمطالبة بحدود مفتوحة إلا بفتح نسبي لحدود الدولة، وإلا فإن الوضع المقصود، هو ان تعيش البشرية معاً كوحدة واحدة وبدون جنسية، وأن تزال الحدود الدولية. وإذا كانت الدولة شكلا من أشكال الحكم، فيجب أيضاً التمييز بين الذين ينتمون إلى الدولة، ويتمتعون بحقوق معينة، ويشكلون

جزءا من توازن القوى الاجتماعية القائم، وبين الوافدين اليها، ولكن وبالاستناد الى قواعد محددة ـ يمكنهم الانتماء إليها او عدمه ـ فان الاعتراف بالمواطنة والحقوق المرتبطة بها، هو دائما توافق يجري الصراع بشأنه بين الطبقات الاجتماعية. والقومية والعنصرية هما نمطان أيديولوجيان في هذه النضالات من أجل المواطنة. ويجب محاربة هذه الأنماط لأنها موجهة أيضاً ضد اليسار واهداف التحرر. وبدءا فان السؤال المطروح يتعلق بالسياسة التي ينتهجها اليسار تجاه المهاجرين الذين يعيشون في ألمانيا كدولة مهجر. ويجب ان يتم التركيز على كيفية كسب هؤلاء لمشروع اشتراكي – ديمقراطي. والمهم بالنسبة لمثل هذه السياسة، امتلاك تصور حقيقي. من هم هؤلاء المهاجرون، ماهي اهتماماتهم، كيف ينظمون سياقات حياتهم، وكيف ترتبط بسياقات الحياة في مجتمع بلد المهجر.

**الهجرة ونظرية الهيمنة عند غرامشي**

يمكن ان يكون تناول أفكار أنطونيو غرامشي في المناقشة الحالية محفزا، لأن غرامشي يشير إلى جوانب معينة من الهجرة يتم دفعها حالياً إلى الخلف بسبب الخلاف حول نظام الحدود. يتعامل غرامشي مع الهجرة الداخلية في إيطاليا والهجرة الى خارجها. لقد بحث في قضايا الطبقة والسياسة الطبقية، وكذلك علاقتهما بالعنصرية. وكمهاجر من الجنوب الإيطالي إلى الشمال الصناعي، تعلم غرامشي كيف تتم عملية التمييز ضد المهاجرين، وكيف يتم استخدامهم من قبل الحكام ضد اليسار الإيطالي في الشمال، وكيف يمكنهم التضامن مع بعضهم البعض. لقد جعل بوضوح مسألة تركيبة السكان ووظيفة الهجرة في إيطاليا أحد الموضوعات الرئيسية في "دفاتر السجون" (غرامشي 1991، 67).

كان الهدف الأساسي لفلسفته في الممارسة هو التدقيق الجذري في التقاليد البرجوازية والاشتراكية، فكلاهما لم يفهم المعنى الكامل لتلك النظرة العالمية الجديدة التي أعطاها ماركس زخماً حاسماً، والتي تقف في قلبها الممارسة التاريخية الملموسة للمعرفة والتشكيل النشط والواعي للعالم الطبيعي والمجتمعي من قبل جميع الناس. ينتقد غرامشي حقيقة أنه في هذه الممارسات التاريخية، يُنظر إلى حيوية القدرة على العمل والكفاءات الفكرية لمعظم الناس فقط على أنها أدوات تنفيذية متاحة لإرادة أقلية من أجل الوصول الى أغراضها. ان نتيجة هذه السيادة المتاحة على ثروة عمل التابعين، يجب ان تبقى أفكارهم ومشاعرهم غير موحدة، ومتعارضة. وهذا مرتبط بالتطور التقدمي لأجهزة

الإنتاج، والسيطرة التقنية على الطبيعة. لكن كل شيء يتم تنظيمه من قبل الحاكمين بحيث لا يستطيع التابع أن يطور تفكيره وشعوره بناءً على عمليات العمل المتقدمة. ولذلك يظلون متخلفين عن أشكال الحياة الحديثة في كثير من النواحي. وتفكيرهم وشعورهم متعارض، وحسهم السليم غريب، إنهم رجال كهوف ومعاصرون للغاية في ذات الوقت. "إذا لم تكن النظرة إلى العالم نقدية ومتماسكة، بل عرضية وغير مترابطة، فإن المرء ينتمي، في الوقت نفسه، إلى عدد كبير من الناس، وتتكون شخصيته بطريقة غريبة: تحتوي على عناصر من انسان الكهوف ومبادئ العلوم الأكثر حداثة وتقدماً، والأحكام المسبقة من جميع المراحل التاريخية الضيّقة الأفق السابقة والمحلية والحدس لفلسفة المستقبل التي ستكون مشتركة بين الجنس البشري الموحد في جميع أنحاء العالم. إن انتقاد المرء لوجهة نظره إلى العالم يعني، جعلها موحدة ومتماسكة ورفعها إلى النقطة التي وصل إليها التفكير الأكثر تقدمًا في العالم" (غرامشي 1994، 1376).

يربط غرامشي فلسفة الممارسة، كرؤية جديدة للعالم مع التوقع أنها ستساعد في التغلب على التمييز العالمي التاريخي بين العمل الذهني واليدوي. وتبدو الحضارة ونمط الحياة الجديدان، بالنسبة له، ممكنين ومرغوبين؛ حيث تتاح لجميع الأفراد الفرصة لإيصال أفكارهم ومشاعرهم إلى أرقى مستوى من التطور الاجتماعي وبالتالي تمكين أنفسهم من المشاركة في تشكيل الحياة المشتركة وعدم الانقياد للآخرين. ولا ينبغي ان يكون هناك تابعون، ولا قادة ولا مدراء. "فلسفة الممارسة [...] ليست أداة الحكومة التي تستخدمها الجماعات الحاكمة لتحقيق الإجماع وممارسة الهيمنة على الطبقات التابعة؛ إنها تعبير الطبقات التابعة التي تريد تربية نفسها على فن الحكم والمهتمة بمعرفة كل الحقائق، وتجنب الاحتيال غير السار و (المستحيل) للطبقة العليا، وأكثر من هذا تجنب ذاتها" (غرامشي 1994، 1325). وعندما يحكم الناس بأنفسهم، فستكون هناك أيضاً علاقة بين من يقود ومن يقاد، بين من يحكم ومن يُحكم، لذلك لن يكون هناك أي هيمنة أيضاً، لأن الأفراد يحكمون أنفسهم ذاتيا.

استنادا الى تجربة رقاص فوكو (نسبة الى الفيزيائي الفرنسي ليون فوكو 1819 - 1868 – المترجم) يلاحظ اليوم صحة نقد الليبرالية الجديدة، في انها تستخدم تقنية سلطة قيادة القيادة الموروثة من التقاليد المسيحية. ويشمل ذلك أيضاً تقنيات قيادة الذات، التي بواسطتها يوجه الأفراد أنفسهم طوعياً وبقناعة عقلانية كاملة واهتمام بأنفسهم، مع مراقبة واختبار ذاتيين، استشارة، توجيه أو دعم علاجي،

لتطوير وتعزيز وتكثيف الخصائص الجسدية والنفسية والاجتماعية التي تسمح لهم بمواءمة ذواتهم مع متطلبات الاستغلال الرأسمالي المكثف: أي ممارسات العمل، وأنماط الاستهلاك، والسلوك الترفيهي، وعادات الأكل، والأنشطة الرياضية، والرعاية الصحية. على الرغم من أن غرامشي يضع كل هذه الجوانب في الاعتبار أيضاً، إلا أنه بعيد جداً عن مثل هذا المعنى الليبرالي الجديد للمصطلح. ان القدرة على التحكم في الذات تعني: ان لا تكون تابعا، وعدم السماح للآخرين بأن يسيّروك وفق منافعهم، ولكن تنظيم جهاز الإنتاج الاجتماعي والعمل الاجتماعي وتقسيم العمل والعادات والمعرفة والمشاعر التي يمكن أن تحدد نمط الحياة مع الآخرين.

عندما يعالج غرامشي أشكالاً معينة من تقسيم العمل، فإن هذا يتضمن دائماً شكلاً معينًا من توزيع السكان - وهي مشكلة يصفها غرامشي بمفهوم النسب العقلانية لتركيبة السكان. ان هذا المصطلح أكثر جوهرية من مصطلح سوق العمل، لأن سوق العمل لا يمثل سوى آلية محددة، وهي آلية رأسمالية وغير عقلانية لتركيبة السكان، وعلى الرغم من كل محاولات التوجيه (يؤدي إلى العمالة الزائدة، ويولد أشكالًا مختلفة من الزيادة السكانية. يخرج أجزاء من السكان من التنسيق والتقسيم الاجتماعي للعمل، وغالباً لا يأخذ في الاعتبار تقسيم العمل بين الجنسين). ووفق رؤية غرامشي، يتطلب كل نظام اجتماعي تقسيماً وتوزيعاً محدداً للسكان في التقسيم الاجتماعي العام، وليس التقسيم الاقتصادي للعمل فقط،" لكل نظام قانونه الخاص للنسب المعينة في التكوين الديموغرافي، وتوازنه الأمثل واختلالاته التي، إذا لم يتم تصحيحها بالتشريعات المناسبة، يمكن أن تصبح في حد ذاتها كارثية لأنها تجفف مصادر الحياة الاقتصادية المحلية، وبصرف النظر عن كل عنصر آخر من عناصر الانحلال" (غرامشي 1999، 2068). يشير غرامشي إلى عدة عناصر لتركيبة غير عقلانية للسكان: الهجرة طويلة الأمد من إيطاليا، والهجرة الداخلية من جنوب البلاد إلى الشمال الصناعي، وانخفاض نسبة النساء العاملات أو اختلال التوازن بين الأجيال بسبب انخفاض معدلات الولادة. ويشدد بشكل خاص على العلاقة غير الملائمة بين السكان النشطين والسلبيين. وبالنسبة لتحليله للفاشية، هناك نقطة حاسمة، هي أن نسبة كبيرة من السكان في المجتمعات الأوروبية تحصل على دخل معاش تقاعدي. ويعني غرامشي بذلك، بعض موظفي الدولة في إيطاليا والعديد من مواطني المدن الصغيرة الذين، بصفتهم ملاكين، يؤجرون الأرض للفلاحين بأسعار باهظة، ويعيشون على هذه المعاشات

التقاعدية. ”نعم، يمكن القول، انه كلما تقدم تاريخ بلد ما، زاد عدد هذه الودائع من الحشود الأكثر ارهاقا، والأكثر حماقة، وعديمي الفائدة من المتقاعدين في التاريخ الاقتصادي، الذين يعيشون من ”ميراث الأجداد“ (غرامشي 1999، 2065). لا ترغب هذه المجموعات في إجراء التغييرات اللازمة على جهاز الإنتاج، بل ترغب في الحفاظ على البنية الديموغرافية والاجتماعية، التي عفا عليها الزمن في أوروبا، بينما تدخل في الوقت نفسه عناصر من الشكل الحديث للإنتاج وطريقة العمل، والتي يصفها غرامشي بـ”الفوردية“، الوافدة من الولايات المتحدة الامريكية (طريقة لتنظيم عمليات الإنتاج ظهرت عام 1908 على يد هنري فورد (1863 - 1947) مؤسس شركة فورد الأمريكية – المترجم). وبصراحة، كانت أوروبا تود أن يكون لدى كل رجل برميل مليء بالخمر وزوجة سكيرة، وأن تحصل على كافة المزايا التي توفرها الفوردية لقدرتها التنافسية، مع الاحتفاظ بجيش من الطفيليين الذين يستهلكون قدرا هائلا من فائض القيمة، يزيد من نفقاتها الأولية، ويضعف من قدرتها على المنافسة في السوق العالمية (غرامشي 1999، 2064). وعلى النقيض من هذا الموقف المستند الى الوضع الراهن، كما تمثله على وجه الخصوص دولة الشركات الفاشية، فإن غرامشي كان لديه انطباع بأن العمال الإيطاليين، كما مثلتهم جماعته ”النظام الجديد“ (أصدرت مجلة بنفس الاسم- المترجم) بعد الحرب العالمية الأولى، يؤيدون تجديد وتحديث الهيكل الاجتماعي والاقتصادي. ”أن العمال الايطاليين لم يعارضوا في أي وقت من الأوقات، معارضة ايجابية أو سلبية الابتكارات التي تؤدي إلى خفض التكاليف، وترشيد العمل، أو الأخذ بأشكال أفضل للأتمتة والتنظيم التكنيكي للمجمع الصناعي، بل العكس. وإن كان هذا قد حدث في أمريكا وأدى إلى تصفية النقابات الحرة ليحل محلها نسق من تنظيمات المصانع المنعزلة بعضها عن بعض. ان تحليلا مدققاً للتاريخ الايطالي قبل 1922، الذي لا يخدعه الكرنفال الخارجي، بل قادر على الإمساك باللحظات الجوهرية للحركة، ينبغي أن يتوصل، إلى الاستنتاج أن العمال بالذات، هم الذين طرحوا أكثر متطلبات الصناعة جدّة وحداثة، وأيدوها بحماس بطريقتهم الخاصة“ (غرامشي 1999، 2078).

ان مسألة التركيبة السكانية، بالنسبة لغرامشي مرتبطة بمسألة الهيمنة. فعندما يؤكد أن هناك هجرة من الريف الغني بالأطفال إلى المدن الصناعية ذات معدل الولادات المنخفض، فإنه يشدد على العمليات الاجتماعية المرتبطة بها. لأن ”معدل المواليد

الحضري المنخفض [يتطلب] جهداً مستمراً وهاماً لتدريب أولئك الذين يدخلون باستمرار إلى التحضر، ويجلب معه تغييراً مستمراً في التكوين السياسي والاجتماعي للمدينة، الأمر الذي يطرح باستمرار مشكلة الهيمنة على أسس جديدة" (غرامشي 1999، 2078). لقد استوعب غرامشي مهمة الهيمنة هذه على أنها مهمة جوهرية لليسار من أجل منع الانقسام في المجموعات العمال المختلفة. تناول في "مسألة جنوب إيطاليا" التجربة التي مفادها أن البرجوازية قبل وأثناء الحرب، نشرت أيديولوجية عنصرية بين جماهير شمال إيطاليا ضد المهاجرين من جنوب إيطاليا. وفقا لهذه الأيديولوجية، فإن المهاجرين هم الذين يمنعون التقدم الأسرع لإيطاليا لأنهم أقل منزلة من الناحية البيولوجية، وبحكم التصنيف الطبيعي، فإنهم شبه برابرة أو برابرة كاملون. "إذا كان الجنوب متخلفًا، فلن يتحمل مسؤولية النظام الرأسمالي أو أي سبب تاريخي آخر، بل الطبيعة هي التي خلقت الجنوبيين كأشخاص كسالى، وأغبياء، ومجرمين، وبرابرة" (غرامشي 1955، 9). إن عنصرية الشمال البرجوازي هذه ضد صغار الفلاحين والعمال الزراعيين في الجنوب، وضعها في تعارض مع إمكانية "هيمنة البروليتاريا". وقد مكن هذا أن تصبح البروليتاريا "الطبقة القيادية والحاكمة إلى الحد الذي تنجح فيه في إنشاء نظام من التحالفات الطبقية يسمح لها بتعبئة غالبية السكان العاملين ضد الرأسمالية [...]، وهذا يعني في إيطاليا، في ظل العلاقات الطبقية الفعلية القائمة في إيطاليا، بالقدر الذي تنجح فيه في الحصول على تأييد جماهير الفلاحين العريضة" (غرامشي 1955، 8). في "دفاتر السجن" وضع غرامشي مفهوما شاملا للهيمنة. ويشمل الآن أكثر من تحالف بين الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين، تحت قيادة الأولى. والمفهوم، بالنسبة لغرامشي، يتضمن الآن، نوعين متضادين هما هيمنة البرجوازية والبروليتاريا. طورت الطبقة البرجوازية الهيمنة بشكل متزايد كشكل من أشكال الحكم منذ حوالي عام 1870. وهذا يعني أنها تتجاوز مجرد السعي وراء مصالحها البدائية لشركاتها الاقتصادية، وهي مستعدة وقادرة على تقديم عدد كبير من التنازلات للتابعين. من الواضح أن غرامشي يعتبر ظهور هذا النوع الجديد من استراتيجية الهيمنة بمثابة تأثير الاستعمار المعاكس على المجتمعات الأوروبية، لكنه لا يشرح ذلك بمزيد من التفصيل. هذه الدول المستعمرة تفقد طابعها "المرن". الهيمنة تعني تشكيل نظام واسع من أنشطة ومنظمات المجتمع المدني: بالإضافة إلى الأحزاب الجماهيرية والنقابات العمالية والأندية الرياضية

وجمعيات الكورال، وتعاونيات الإسكان والاستهلاك، يظهر عدد كبير من الصحف والمجلات، وعدد كبير من الجمعيات الأهلية التي تهتم بأخلاق المرأة والأسرة، الضمان الاجتماعي، الصحة أو النقاء العرقي. وتظهر المؤسسات العلمية والأكاديميات ومرافق التأهيل القريبة من الشعب. ووفقا لغرامشي، فإن هيمنة الطبقة البرجوازية تشمل كامل حياة الدولة؛ وبالتالي فهي تعيد هيكلة المجتمع بالكامل وفقا لرؤيتها في توجيه جهاز الإنتاج ومتطلبات إنتاج الثروة الرأسمالية، حتى تتمكن من إعادة إنتاج نفسها، وفق أسسها الخاصة. لم تعد الصراعات الطبقية تدور في مواجهات كبيرة، بل تتحول إلى ما يسميه بـ"حرب المواقع"، أي عدد من الصراعات المختلفة وتوازن القوة المتغيرة في خنادق المجتمع المدني المتشعبة على نطاق واسع. يأخذ المجتمع شكل كائن حي دائم الثورة، ينتقل من توازن إلى آخر. في هذه العمليات، يلعب الذين يهاجرون من الريف إلى المدن دوراً مهماً ويمثلون تحدياً هائلاً للهيمنة، حيث يجب إيجاد حلول وسط اجتماعية مع مجموعات المهاجرين الجدد، عندما يتعلق الأمر بالتأهيل المهني في الصناعة أو "التكيف النفسي الجسدي مع ظروف عمل معينة، التغذية، السكن، العادات، وما إلى ذلك [أمر ممكن] وهو ليس فطرياً أو طبيعيا يراد الحصول عليه" (غرامشي 1999، 2072). تشمل هذه العادات الحضرية والصناعية الجديدة تنظيم المعرفة والتعليم وكذلك إعادة صياغة النشاط الجنسي، والتعامل مع وقت الفراغ أو الكحول. وبالنسبة لغرامشي، فإن تحدي الهيمنة يتمثل في كسب سكان الريف، الذين يهاجرون باستمرار إلى المناطق الصناعية، لتحقيق أهداف الحركة العمالية الشيوعية والتحرر. عندما يتعلق الأمر برفع الحس السليم للعمال إلى مستوى فكري أعلى حتى يتمكنوا من الحصول على الاستقلال، والخروج من الهيمنة البرجوازية والاعتماد على المثقفين التقليديين (الكهنة) أو المثقفين البرجوازيين (المعلمين، المهندسين، الصناعة الثقافية)، ومن أجل تطوير عناصر أسلوب حياة الفرد، يجب على حسابات الهيمنة السياسية، ان تأخذ في الاعتبار تباين الإيقاع المستمر بين العمال أيضاً، نتيجة للهجرة.

كان غرامشي مدركاً تماماً أن هذا أمر صعب، وأن الهيمنة البرجوازية - أي العنصرية والسياسة السكانية وتقسيم السكان من خلال أشكال التقسيم الاجتماعي للعمل – في وضع أفضل. ويتضح ذلك من خلال أفكاره في مسألة المثقف. وفق رؤيته لكل طبقة مثقفيها. وتقع عليهم مهمة تنظيم هيمنة الطبقة، أي طريقة تفكيرها وشعورها ونمط حياتها. لكن التابعين، منذ البداية،

في وضع غير مواتٍ، بسبب الإجبار على ممارسة العمل البدني، وبسبب الفرص النادرة المتاحة للتخلص من نوع وسعة العمل الاجتماعي، وأيضاً بسبب عدم امتلاكهم أية وسيلة ومورد للإنتاج الثقافي، مثل الوقت، والمفاهيم أو المعرفة المتقنة، وبالكاد تتاح لهم الفرصة لإنتاج مثقفيهم، لكنهم يعتمدون على جذب المثقفين البرجوازيين الذين يدخلون في علاقة تمثيلية عضوية مع التابعين. وتأتي التبعية أيضا، ضمن أمور أخرى، من فهم العالم والعلاقة به وبذواتهم بطريقة تحددها طبقة أخرى ومثقفيها. وفقاً لغرامشي، فإن الأمر يتعلق بالتحرر من التبعية وتنظيم الانشقاق عنها، لأن جميع البشر، تبعا لإمكانياتهم مثقفون، وبالتالي يمكنهم التعامل مع أفكارهم ومشاعرهم بشكل نقدي وتطويرها مع الآخرين إلى رؤية مستقلة للعالم. ووفقاً لرؤية غرامشي، فان عمليات الهجرة يمكن أن تجعل هذا الأمر أكثر صعوبة. لقد وضع غرامشي أفكاره حول الهجرة، بالاستناد الى عمليات الهجرة من البلدان الأوربية، وخاصة إيطاليا. لقد رأى وظيفة إيطاليا في التقسيم الدولي للعمل في ذلك الوقت بكونها منتجة لاحتياطي العمالة للعالم بأسره. وهذا يشير الى عدم قدرة الطبقة الحاكمة على "إعطاء أمة موقعا في العالم وفي التقسيم الدولي للعمل. ان الهجرة هي نتيجة لعدم قدرة الطبقة الحاكمة على توفير العمل للسكان، وليس نتيجة لفقر قومي" (غرامشي 1991، 262). لم تكن البرجوازية قادرة على خلق مجتمع متجانس نسبيا، وتقسيم عمل تكون فيه الوظائف متزامنة نسبياً ومتصلة ببعضها البعض. ولم يتم خلق وحدة وطنية أعلى. والعمال بهجرتهم، ساهموا في زيادة القيمة المضافة للرأسمالية الأجنبية. ولهذا، لم تكن هناك بطالة فقط، بل كان هناك أيضا نقص في آفاق الحياة. "ان ادخال الرأسمالية وتطورها في إيطاليا لم يتم على أساس رؤية وطنية، بل على أساس رؤية مناطقية محدودة لمجموعات محدودة، وأنها فشلت إلى حد كبير في الجزء الكبير من مهامها، وبالتالي أدى الى هجرة مرضية لم تتم إعادة استيعابها مطلقاً، وكانت دائماً ضرورية، ومن المؤكد انها دمرت مناطق بأكملها اقتصاديا. في الواقع، يجب أن يُنظر إلى الهجرة من جهة على أنها ظاهرة لبطالة مطلقة، ومن جهة أخرى، على أنها برهان على حقيقة أن النظام الاقتصادي المحلي لا يضمن مستوى معيشياً قريباً من المستوى العالمي، وأن العمال الذين تم تعيينهم بالفعل لم يكونوا يفضلون المخاطر والتضحيات المرتبطة بمغادرة بلدهم" (غرامشي 1998، 1931). وارتباطا بذلك لاحظ الاختلافات في الأشكال المتعددة للهجرة: بينما كان يفترض ان العناصر المنظمة للصناعة هاجرت

أيضاً مع الهجرة الألمانية، كانت نظرته للهجرة الإيطالية ناقدة: "في إيطاليا، هاجرت الجماهير العاملة فقط التي كانت لا تزال غير متشكلة إلى حد كبير، على الصعيدين الصناعي والروحي. وبالمقابل بقيت العناصر المثقفة، التي لم تكن متشكلة أيضا، لم تتغير، بأي شكل من الأشكال، بسبب التصنيع وحضارته؛ وكانت هناك بطالة غير عادية للمثقفين، أنتجت سلسلة كاملة من الفساد وكذلك ملامح تفكك سياسي وأخلاقي مع تداعيات اقتصادية لا يستهان بها" (غرامشي 1991، 187).

**المراجع**


Bojadžijev, Manuela, 2008: Die windige Internationale. Rassismus und Kämpfe der Migration, Münster

Demirović, Alex, 2015: Ordnung und Integration. Adornos Kritik am Gravitationsgesetz des Ganzen, in: Ulrich Bröckling u.a. (Hg.): Das Andere der Ordnung. Theorien des Exzeptionellen, Weilerswist

Gramsci, Antonio, 1955: Die süditalienische Frage, Berlin

Ders., 1991: Gefängnishefte, Bd. 1. 1. Heft, Hamburg

Ders., 1991a: Gefängnishefte, Bd. 2, Hefte 2-3, Hamburg

Ders., 1992: Gefängnishefte, Bd. 4, Hefte 6-7, Hamburg

Ders., 1993: Gefängnishefte, Bd. 5, Hefte 8-9, Hamburg

Ders., 1994: Gefängnishefte, Bd. 6, Hefte 10 und 11, Hamburg

Ders., 1998: Gefängnishefte, Bd. 8, Hefte 16 bis 21, Hamburg

Ders., 1999: Gefängnishefte, Bd. 9. Hefte 22 bis 29, Hamburg

Karakayali, Serhat, 2008: Gespenster der Migration. Zur Genealogie illegaler Einwanderung in der Bundesrepublik Deutschland, Bielefeld

Piñeiro, Esteban, 2015: Integration und Abwehr. Genealogie der schweizerischen Ausländerintegration, Zürich

# حـــــــــــوارات

# الثقافة الجديدة تحاور الدكتور حيدر سعيد

حاوره سوران قحطان

**الدكتور حيدر سعيد رئيس قسم الأبحاث بالمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ورئيس تحرير دورية سياسات عربية التي يصدرها المركز. من مواليد مدينة النجف 1970. حصل على الدكتوراه في اللسانيات من الجامعة المستنصرية في بغداد في العام 2001. وكان عنوان أطروحته "الأسس المعرفية للنظرية اللسانية العربية: بحث في الأصول". أما رسالته للماجستير فقد أنجزها في العام 1996 في اللسانيات من كلية الآداب في جامعة بغداد، وكانت بعنوان "أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة".**

**صدرت له العديد من الكتب والدراسات والأبحاث، من بينها: وضع العلوم الاجتماعية في الجامعات العراقية (تأليف بالاشتراك، بيروت، 2008)، سياسة الرمز: عن نهاية ثقافة الدولة الوطنية في العراق (بيروت، 2009)، الشيعة العرب: الهوية والمواطنة (تحرير، الدوحة/ بيروت، 2019)، وأسهم بثلاثة فصول في الكتاب الذي أصدره المركز العربي تحت عنوان تنظيم الدولة المكنّى داعش (2018)، كما أسهم في تأليف التقرير الوطني لحال التنمية البشرية في العراق لسنتي 2008 و2014. عضو مجلس تحرير مجلة الثقافة الجديدة للأعوام (2004 - 2009)**

**الثقافة الجديدة:** حلت منذ مدة، في هذا العام الذكرى المئوية الأولى لتأسيس الدولة العراقية الحديثة. فما زال العديد من المؤرخين والمختصين يربطون بين تاريخ قيام النظام الملكي وتنصيب فيصل الاول ملكا على العراق عام 1921، وبين تاريخ تأسيس الدولة العراقية الحديثة.

وانطلاقا من ان واحدة من اهم خصائص نشوء وتشكل الدولة الحديثة في بلدان الأطراف، والعراق من ضمنها بكل تأكيد، تتمثل بكونها ترتبط بهذا الشكل او ذاك، بهذه الدرجة او تلك، بالاستعمار. وكنت قد أشرت الى ذلك في مقالك المنشور في مجلة (آفاق المستقبل)، الذي جاء تحت (الدولة شر لا بدّ منه: نحو رؤية ما بعد نيوليبرالية)، العدد (3)، 2010. قائلا:".. على نحو أولي، يبدو أن السياق السياسي الذي أُنشئت فيه الدولةُ الحديثة في المنطقة، التي كانت من نتائج الحركة الكولونيالية الغربية، هو الذي وضعها في هذه المكانة".

في ذات المقال قدمت أطروحة لافتة، اشرت فيها الى التالي: "كان ثمة اختلاف فلسفي جذري في التعامل مع مسألة (التحديث) بين البريطانيين، الذين أنشأوا الدولةَ العراقية سنة 1921، والأمريكان، الذين وجدوا أنفسَهم أمام مهمة إعادة بناء الدولة سنة 2003، إذ كان البريطانيون يرون أن (الدولة) هي مصدر التحديث، في حين تعامل الأمريكان مع (المجتمع) بوصفه مصدرا له".

**هل لك ان تتوقف امام الإشكالية التي اثارتها اطروحتك هذه بمزيد من التفصيل؟**

**د. حيدر سعيد:** أنا أعتقد أن الغزو الأميركي للعراق، في العام 2003، الذي أطاح بنظام صدام حسين، رافقته رؤية نيوليبرالية، بمعنى أن الرؤية الأميركية للانتقال السياسي/ الديمقراطي في العراق (وهي الرؤية الأولى التي وجّهت هذا الانتقال) كانت تتضمن جوهراً نيوليبرالياً.

نعم، كانت هذه الرؤية تتضمن مبادئَ عامة، وعناصر كثيرة، لا ترتبط - بالضرورة - بالنيوليبرالية، يقف في صدارتها تصورُ أن الاستبداد في العراق نشأ بسبب تركز الصلاحيات. ومن ثم، ينبغي أن يتضمن برنامجُ الانتقال توزيعا لهذه الصلاحيات، سواء من خلال نموذج لامركزي، أو من خلال توزيع السلطة بين النخب الممثِّلة للمجموعات الإثنية، وقد أعيد تعريف العراق من كونه دولة - أمة، إلى أن يكون دولة تعبّر عن مجموعة من الهويات الإثنية داخلها. وقد تجسد هذا النموذج فيما يُعرَف في أدبيات العلوم السياسية بـ "الديمقراطية التوافقية".

غير أن الرؤية الأميركية لا تتوقف عند هذا "الاقتصاد السياسي للاستبداد"، الذي يفسّره بالنموذج المركزي الريعي، بل إنها كانت تصل إلى فكرة أن الدولة، بحد ذاتها، هي مصدر الاستبداد. ومن ثم، ينبغي لضمان انتقال العراق نحو الديمقراطية، الحد من الدولة قدر الإمكان، أو الوصول إلى ما تسميه الأدبياتُ النيوليبرالية "دولةَ الحد الأدنى". وهذا هو جوهر التصور

النيوليبرالي، الذي حكم الرؤية الأميركية لعملية الانتقال. ولذلك، كانت الممارسات الأميركية في العراق ما بعد الغزو غير عابئة بمصير الدولة، وقوتها، وكفاءتها.

أنا لا أتبنى فكرة أن الرؤية الأميركية هي العامل الوحيد الذي تحكم بمسار الانتقال في العراق، وأدرك أن الفاعلين المحليين كان لهم دور كبير وأساسي في مواجهة الرؤية الأميركية، وتحديد مسار الانتقال، من ثم. ومع ذلك، ينبغي القول إن هذه الرؤية كان لها تأثير شديد في عملية إعادة بناء الدولة ما بعد الغزو، في الأقل، في السنوات القليلة التي أعقبت 2003، قبل أن يتغير المسار، من خلال الدور الذي لعبته المؤسسات السياسية العراقية بعد بنائها، وتوجهات الفاعلين السياسيين العراقيين، وتغير الرؤية الأميركية نفسها، في الأقل منذ العام 2006.

كانت الرؤية الأميركية تتضمن أن الحد من الدولة سيفضي إلى تقوية المجتمع. وفي الأدبيات النيوليبرالية تصريح بأن المجتمع متى ما رُفع عنه غطاء الاستبداد، فإنه سيختار الحريةَ والأنظمة التي تعبّر عنها (يُنظَر ملتون فريدمان، مثلًا). وهذا يعني أن المجتمع هو مصدر التحديث (والتحديث السياسي، في الأقل) في هذه الرؤية، بمعنى أن التحديث عملية تبدأ من قاعدة الهرم، وليس من قمته.

وفي تقديري، كانت تجربة العراق ما بعد العام 2003 تحدياً سافراً لهذه الرؤية.

وفي كل الأحوال، تختلف هذه الرؤية - جذرياً - عن رؤية الاحتلال البريطاني للعراق، في الربع الأول من القرن العشرين، التي كانت ترى أن التحديث يبدأ من قمة الهرم، وأن الدولة هي قاطرته، وهي رؤية كانت عامة في ذلك الوقت، ولا سيما إن المنطقة شهدت إنشاء دول ومجتمعات من الصفر (بالمعنى السياسي الحديث). وفي كل هذه التجارب، ومنها العراق، مارست الدولةُ "تحديثًا قسريًا"، يتبنى نموذج الحداثة الغربية، بمعنى أن التحديث كان طريقًا باتجاه واحد: السير نحو تبني نموذج (أو مثال) الحداثة الغربية.

وهنا، أود أن أعترف بأنني لم أنجُ من التأثر بهذه الرؤية النيوليبرالية السالفة، ربما بسبب نزعة أناركية سابقة، هي - بالتأكيد - واحدة من مصادر رؤيتي لدور المثقف الناقد للسلطة باستمرار، ولكن، لأن هذه الرؤية كانت تفتح أفقًا لإمكانية تحرير المجتمع من إسار الدولة.

غير أن مسار الأمور في العراق وضعنا أمام حقيقة أن هذا المثال مثال مجرّد، وأنه أراد أن يركِّب نموذجًا نيوليبرالياً يتخفّف من الدولة، على مجتمع، لا تتشكل ثقافته السياسية على أساس دولتي statist فقط، بل إن الدولة تدخل في تفاصيل المجتمع كلها. هذا فضلًا عن أن العراق لم يتحرر من النموذج الريعي، الذي هو أحد أهم مصادر هذه الحالة الدولتية، وفضلًا عن متطلبات إعادة الإعمار، التي كانت تقتضي دورًا أساسيًّا ومركزياً للدولة.

والمهم، هنا، أن الديناميكية العراقية الداخلية، التي كانت تتعارض بنيويًا مع النموذج النيوليبرالي، كان يزامنها حديث

في الولايات المتحدة عن العودة إلى دور متزايد للدولة، إثر الأزمة المالية في العام 2008.

ولذلك، بدا لي - منذ وقت مبكّر - أن الرهان في العراق لا يتمثل في "دولة الحد الأدنى"، بل "الدولة الكفوءة". وفي هذا السياق، كتبت المقالة التي تفضلتم بالإشارة لها "الدولة شر لا بد منه: نحو رؤية ما بعد نيوليبرالية".

نعم، النموذج الدولتي/ الريعي المركزي، يحمل معه مخاطره، وليس أقلها إنتاج مجتمع سلبي استهلاكي، تصادر الدولةُ (اقرأ: النظام، أو السلطة، أو الطبقة الحاكمة) خياراتِه السياسية، وهو العائق الأهم أمام التحول الديمقراطي (لا يحضرني، الآن، بلد ريعي، نجحت فيه عملية الانتقال الديمقراطي)، ولكن معالجة هذه المخاطر ودرأها لا يكون بالتخلص من الدولة نهائيًّا.

لقد هيمن على العراق أنموذج "رأسمالية الدولة" (بحسب توصيف عصام الخفاجي للأنموذج الاقتصادي الناشئ منذ الخمسينيات وإلى السبعينيات)، الذي تسيطر فيه الدولة على سائر النشاطات الاقتصادية، وتقدّم الخدمات للمجتمع (في التوظيف، والتعليم، والصحة، وسوى ذلك)، في مقابل مصادرة الحريات المدنية والسياسية، بل إلغاء السياسة. وقد شهد هذا الأنموذج ضعفًا واضحًا في الثمانينيّات والتسعينيات، بسبب أعباء الحرب مع إيران، ثم الحصار الدولي إثر غزو الكويت في العام 1990، غير أن المفارقة أن هذه الدولة الريعية انتقلت، ما بعد 2003، إثر صعوبة تقبلها النموذجَ النيوليبرالي وفشلها في ذلك، إلى جهاز يوزّع العوائد المالية، على قطاع عام مترهل (توسّع حجمُه بثلاثة أضعاف عما كان عليه عشية حرب 2003)، من دون خدمات تقدّمها الدولة. بمعنى أن النموذج الريعي ما بعد 2003 لم يبق هو نفسه النموذج الريعي الذي بلغ ذروته في السبعينيات، غير أن وظيفة الأموال التي تعيد الدولة توزيعها بقيت هي نفسها في النموذج الريعي التقليدي: رشوة المجتمع وشراء خياراته السياسية لصالح الأحزاب الحاكمة.

وبالتأكيد، لم يقيض لهذا النموذج الناشئ الهيمنة أو السيادة والاستمرار، ذلك أنه مرتبط بالعوائد من تصدير النفط، وبسوق النفط العالمية من ثم، فمع أزمة انخفاض أسعار النفط، في العام 2014، أصبح هذا الجهاز/ الدولة غير قادر على دفع المرتبات، لقطاع عام وسّعه عن قصد، بغرض السيطرة على المجتمع. وفي تقديري، أن حركة الاحتجاج الواسعة التي انطلقت في العام 2015 كانت أولَ رد فعل مباشر على أزمة انخفاض أسعار النفط.

في دراسة سابقة عن تطور الحركة الاحتجاجية في العراق، وجدت أنه يمكن صياغة المعادلة الآتية: أن الحركة الاحتجاجية تنشط كلما ضعفت الدولة عن أداء مهماتها (وهي توزيع عوائد الريع، هنا). ومن ثم، تكون الاحتجاجات بمنزلة بحث عن الدولة.

وقد كان هذا المعنى حاضراً في

احتجاجات خريف 2019 (التي أسمّيها "ثورة"). ومع أن هذه الاحتجاجات الأخيرة كانت انعطافة مهمة في الحركة الاحتجاجية، من الطابع المطلبي إلى الطابع السياسي، انعطافة صنعها تراكمُ الفعل الاحتجاجي، فإن البحث عن الدولة ظل أحد أهم معاني هذه الثورة. وهو ما يلخصه شعارُها الأساسي "نريد وطن"، الذي ينفتح على مساحة تأويل واسعة، لكن، بالتأكيد، أحد المعاني الأساسية لهذا الشعار هو "نريد دولة". والدولة، هنا، ليست فقط "جهاز توزيع الأموال"، بل دولة الخدمات، التي افتقدها العراقيون والعراقيات، بما في ذلك خدمة الأمن، التي عجز النظام الناشئ ما بعد 2003 عن توفيرها، وبما في ذلك كونها الحامل الأساسي للهوية الوطنية، وقد كفّت عن ذلك.

**الثقافة الجديدة**: يقع عدد غير قليل من الباحثين بسذاجة او بحسن نية - مشكوك بأمرها في بعض الأحيان- في فخ الاسقاطات اللاتاريخية واللامنهجية، وذلك من خلال استنساخ فرضيات وتجارب، صيغت في ظل ظروف وملابسات مختلفة، خصوصا في بلدان المركز الرأسمالي، وذلك اعتماداً على ما يشبه القياس بالمثل. خصوصا في قضايا من قبيل الدولة والدولة الراعية، او "سياسات الهوية".

فمثلا يسعى البعض الى شيطنة الدولة، بمحاولات لا تذكرنا فقط برؤى الفوضوية أو الخيالات الما بعد حداثية، وانما هي ترتبط اساسا بطروحات النيولبرالية التي شرعت تغادر مسرح الخطاب السياسي الغربي غير مأسوف عليها منذ مدة لست بالقصيرة.

بينما يسعى باحثون آخرون، في سبيل إيجاد حلول لمشاكل التعددية الثقافية في بلدانهم، الى النقل الحرفي لفرضيات واطروحات سبكت بالاصل كي تشرعن علميا وعمليا هذا الشكل او ذاك من "سياسات الهوية". دون ان يدركوا، وهذا أولا، انها منتج صرف لبلدان تمأسست منذ مدة طويلة على قيم المواطنة وعلى دولة القانون. وثانيا، ان القسم الأكبر من هذه السياسات جاء ليمثل حلولا لمآزق سياسية وانتخابية او شعارات انتخابية شعبوية او كردود فعل لهذه الشعارات.

**السؤال المهم هنا هو: كيف يستطيع الباحث المهتم بظواهر مهمة من قبيل الدولة او التعددية الثقافية دراستها وتحليلها دون الوقوع في شراك الاسقاط او الصور النمطية لـ "سياسات الهوية"، او حتى الجوهرانية وغيرها من المغالطات المنهجية؟**

**د. حيدر سعيد:** أولاً، لنتفق على أن العلوم الاجتماعية والإنسانية، حالها حال الممارسة العلمية على نحو عام، تسعى إلى أن تكون قوانينها كلية، ونظرياتُها عامة، لا تقتصر على بيئة محددة، أو سياق محدد. وهذا هو هدف العلم النهائي، حتى وإن عمل على سياقات محددة، فإنه يسعى (وهذا مسار طويل) إلى أن تتجاوز نظرياتُه هذه السياقات.

بلا شك، الأمرُ أكثر تعقيداً في العلوم الاجتماعية والإنسانية من نظيراتها العلوم الصرفة، أو الطبيعية، ذلك أنها تدرس ظواهرَ مجردة، وقياسُها كمياً ليس بالأمر السهل. ولكن هذا لم يمنعها من أن تسعى إلى أن تطوّر منهجياتها، سواء في الوصول إلى المعطيات، أو بناء الموضوع، أو طرق تحليله. وهذا هو المسعى العام للعلوم الاجتماعية والإنسانية، منذ نشأتها.

وبهذا المنطق، ليس ثمة علم غربي وعلم شرقي. العلم واحد، وهذا ما ينبغي له أن يكون.

غير أن ما يحدث أن بعض نظريات العلوم الاجتماعية تعجز عن تفسير بعض الظواهر. ولا يكون هذا، في الغالب، بسبب خلل في الأداة العلمية نفسها، بل لأن حجم المتغيرات في الظواهر الاجتماعية كبير جداً، وتعجز هذه النظرياتُ عن إدراك ما المتغيرات المحدّدة التي أثّرت في الظاهرة.

ولكن، لا ينبغي لهذا العجز أن يقودنا إلى موقف من العلم نفسه، أو أن نفترض أنه ينبغي لنا أن يكون لنا علمنا الخاص بِنَا.

ما ينبغي لنا القيام به، بوصفنا مشتغلين في العلوم الاجتماعية، ومن موقعنا خارج مراكز الإنتاج النظري العالمي في الغرب، هو دراسة الظواهر الاجتماعية في مناطقنا، من خلال الأطر العلمية العالمية، بوصفنا الأقدر والأكفأ في الوصول إلى المادة والمعطيات، وهذا يشكّل الخطوةَ الأولى في الممارسة العلمية، ثم العودة إلى النظريات العالمية نفسها، لتطويرها من خلال العمل العلمي الذي أنجزناه محليًا.

إن هذا لا ينبغي له أن يتضمن هذا نزعة أصلانية indigenous، تقصر العمل العلمي على أبناء المناطق أنفسهم، بل إنه ينبغي أن يحدث في إطار: 1 - إيمان بعالمية العلم، و2 - أننا منخرطون في هذه العالمية، ولسنا خارجها، ولا ينبغي لنا ذلك، بل ينبغي أن نعمل جدّياً على هذا الانخراط، و3 - الوعي بالحدود العلمية لعملنا، فلا ينبغي أن يكون مادة قابلة للاستعمال السياسي، من أية جهة كانت، ولا سيما مراكز التحليل السياسي Think Tanks، التي تجعل من العمل البحثي أداة لاستخلاص "توصيات سياسية"، وفي سبيل ذلك، تنظر إلى الباحثات والباحثين في العلوم الاجتماعية في المناطق خارج الغرب بوصفهم "وكلاء محليين"، وأخيراً 4 - ينبغي أن يزامن هذا ويوازيه خروج مراكز الإنتاج النظري العلمي في البلدان الغربية من نزعة "المركزية الغربية" وإمكانية تعميم القوانين والنظريات الغربية على العالم أجمع، بغض النظر عن متغيراته، لتؤمن بأن الباحثات والباحثين في العلوم الاجتماعية في البلدان ما خارج الغرب يمكن أن يكونوا شركاء فعليين في بناء عالمية العلم.

أنا أؤمن بأن لنا أسئلتنا الحضارية، التي لا تتشابه ولا تتطابق مع أسئلة الغرب أو الأقاليم الأخرى في العالم، وأن مشروعنا - بوصفنا مثقفين - يجب أن ينطلق من

وعي هذه الأسئلة، لا من استيراد أسئلة أجنبية. في نصه الذي يعلق فيه على نص كانط "ما التنوير؟"، يعرّف ميشيل فوكو "التنوير" بأنه "وعي الآنية actuality"، لا قيم عصر التنوير نفسها بالضرورة. ولكنني حذر جدًا من أن ينسحب هذا على فهمنا للعلم، فنتصور أن هناك علوماً وأبستيمولوجيات، لا علماً واحداً وأبستيمولوجيا واحدة.

أتفق تماماً مع مضمون السؤال، بأن هناك مفارقات لاتاريخية، يحدثها "تصدير" بعض النظريات العلمية، من دون التيقن بأنها اكتست - بشكل علمي دقيق - طابعاً كليًّا. ولكنني أعتقد آن هذا لا يتعلق ببنية العلم نفسها، بل بممارسات خارج - علمية، إن صح التعبير.

وأود أن أشير، هنا، إلى حالتين أساسيتين منها:

تتمثل الأولى في النزعة الحتمية، التي تنتجها "المركزية الغربية"، فيجري التعامل مع نتائج نظرية تخص المجتمعات الغربية بوصفها مكونات تفسيرية عامة لموضوعات يحكمها منطق حتمي، ويمكن فهمه من خلال التعامل مع النموذج الغربي بوصفه نموذج هذه الحتمية. وهكذا، جرى افتراض أن الطريقة التي تطورت بها المجتمعات الغربية، كما كشفتها العلوم الاجتماعية الغربية، يمكن أن تصلح لفهم تطور المجتمعات اللاغربية. ومن ذلك، مثلًا، أن التشكل الطبقي في أوروبا في العصور الحديثة هو نفسه ما يمكن أن يتشكل في المجتمعات خارج أوروبا. وقد أحدث هذا ارتباكاً كبيراً في العلوم الاجتماعية التي مورست خارج الغرب.

والحالة الثانية، وهي أكثر خطورة، تتمثل في تحويل بعض التفسيرات النظرية إلى برامج programs قابلة للنقل والتطبيق السياسي. ولعل الإشارة التي يتضمنها السؤال إلى حالة التوافقية مثال شديد الأهمية، هنا. فالتوافقية خرجت من كونها نظرية تستند إلى استقراء التجارب السياسية لبعض المجتمعات متعددة الإثنيات، لتُصمّم من نتائج هذا الاستقراء برامجُ قابلة للنقل. لقد كانت هذه النزعةُ البرامجية حاضرة لدى منظّر التوافقية، عالم السياسة الهولندي آرنت ليبهارت.

يقع هذا النقل في خللين خطيرين: قسر تعريف المجتمعات المراد تطبيق البرنامج عليها بأنها مجتمعات متعددة الإثنيات، كما المجتمعات الغربية التي دُرست، وافتراض أن هذا النقل سيفضي إلى النتائج نفسها التي تحققت في المجتمعات الغربية.

**الثقافة الجديدة**: مع ان الهاجس الطائفي لم يفارق الدول العربية منذ لحظات تشكلها، ولكن معدلات تراكم التوترات بدأت تتصاعد منذ ثمانينات القرن العشرين، لتصل الى اعلى مستوياتها بعد 2003. وصارت بحسب وصف استقيته من احد مقالاتك تمثل "تحديا استراتيجيا" امام هذه الدول.

في هذا السياق، يبدو أحيانا في خطابك الفكري، وكذلك في كتاباتك أنك تتعامل مع 'الطائفة' وكأنها بنية اجتماعية حقيقية

او كينونة موضوعية. وليس على انها منتج او ابتكار لهندسة اجتماعية سياسية، إذا انطلقنا من أفكار ايرك هوبزباوم. أو باعتبارها جماعة متخيلة إذا اخذنا منهجية عزمي بشارة عندما طبق أطروحة بندكت اندرسن عن الامة على 'الطائفة' - كان لك مقالة ممتازة عن هذا الكتاب في دورية عمران: "دراسات الطائفية ما بعد كتاب الطائفة، الطائفية، الطوائف المتخيلة: الافاق الممكنة".

بمعنى اخر، تتعامل مع الطائفة أحيانا على أساس كونها بنية وشائجية اصيلة، هوية مطلقة، وليس باعتبارها منتجا مثاليا لـ"سياسات الهوية"، او وعيا زائفا.

**هل يمكن لك ان تسلط الضوء بشيء من التفصيل على افكارك ورؤاك بهذا الخصوص؟**

**وأيضا هل من الممكن واقعيا ان يكون هناك تجريد نظري أكاديمي حيادي، بحيث يضع خطوطا فاصلة وواضحة تفصله عن "سياسات الهوية"؟ أم ستبقى هذه الدراسات جزءا من الدراسات الإنسانية غير المحايدة؟**

**د. حيدر سعيد:** أظن أن جهودنا في دراسة الظاهرة الطائفية في المشرق لا تزال في بداياتها. هنالك اليوم مشغل كبير لدراسة هذه الظاهرة، يضم باحثات وباحثين من حقول مختلفة، وتوجهات مختلفة، وبلدان مختلفة. ولا أشك في أن هذا المشغل سينتج أدباً مهماً في فهم هذه الظاهرة.

نعم، الطائفية في منطقتنا ليست حديثة، فهي تعود - في بلاد الشام - إلى أواسط القرن التاسع عشر. وفي السبعينيات من القرن العشرين، ظهرت أدبيات عديدة عن الطائفية، عشية وغداة الحرب الأهلية في لبنان، غير أن هذه الأدبيات - في معظمها - كانت تتسم بسمتين عامتين: الأولى أنها كانت ذات طابع هجائي للطائفية، أكثر من كونها مقاربة تحليلية تفسيرية للظاهرة، وكانت بمنزلة نقد للنظام السياسي اللبناني، وللأدبيات المرافقة لنشأته، التي نظّرت للنظام الطائفي بوصفه "صيغة تعايش" في لبنان (ميشال شيحا، كمال يوسف الحاج، . .). والسمة الأخرى أن هذه الأدبيات الهجائية أنتجها اليسارُ اللبناني ومفكروه ومثقفوه (وضاح شرارة، مهدي عامل، مسعود ضاهر، . .)، الذين - بحكم موقعهم الإيديولوجي - قدّموا مقاربة إيديولوجية للطائفية، ترى فيها تعبيراً عن صراع طبقي.

وهنا، ينبغي القول إن هناك أعمالًا أكاديمية تناولت الظاهرة الطائفية (برهان غليون، ولاحقًا أسامة مقدسي، . .)، غير أنها قليلة أولاً، وقد فسّرت مناحي جزئية في الظاهرة، ثانياً، ومن ثم، لم تستطع (وربما لم تستهدف) صياغةَ نظرية عامة عنها.

ولذلك، تتطور الأفكار التي نتداولها عن الطائفية باستمرار، بما أننا في مشغل مستمر لدراستها.

وأنا، كذلك، تطورت أفكاري عن الطائفية، ولا تزال تتطور. في العام 2014،

قدّمت دراسة عنوانها "الطائفية السياسية في العراق، إنكاراً واعترافًا" (نُشرت في كتاب المسألة الطائفية وصناعة الأقليات في الوطن العربي، الذي صدر في العام 2017)، افترضت فيها أن الطائفية هي بنتُ الدولة الحديثة، وقد أصبحت هذه الأخيرةُ فضاءَ نزاع على السلطة بين الطوائف (أو النخب التي تمثلها)، بعد أن غيّرت الدولةُ مواقعَها عما كانت عليه قبل الدولة الحديثة.

أنا أمارس تاريخ الأفكار من منظور تاريخاني، أي منظور يضع الأفكار والمفاهيم في طبقاتها التاريخية، ولا يتعامل معها بوصفها جواهرَ مطلقة، أزلية، غير أن كتاب عزمي بشارة في كتابه الطائفة، الطائفية، الطوائف المتخيلة (2018) نقلَ السؤالَ عن تفسير الطائفية، إلى سؤال عن نشأة "الطائفة" نفسها: لا ينبغي أن نتعامل مع الطوائف بوصفها كيانات أزلية، فأن يكون ثمة أعداد من الأشخاص ممن يتشاركون اعتناق مذهب ديني محدد، لا يعني أنهم يشكلون "طائفة"، تستند إلى الهوية المذهبية التي يتشاركون اعتناقها. الطائفة تنشأ في سياقات تاريخية محددة، وهي تنشأ كما القومية، فيتخيل المنتمي إلى الطائفة أن هناك غيره ممن ينتمون إلى هذه الطائفة نفسها، ويجمعهم معه مصير واحد.

هذه النقلة النظرية لا تغادر فكرةَ أن الطائفية هي بِنتُ الدولة الحديثة، ولكن، ليس من جهة أن هذه الدولة غيّرت مواقع الطوائف وجعلتها في نزاع على السلطة، بل لأنها خلقت بيئة، تصنعت خلالها ديناميكية صناعة الطوائف.

ولعلي، بدءًا من دراستي "شيعة العراق وضغط الهوية الدينية" (2019)، بدأت أقدّم مقاربة جديدة للطائفية (لا أزال أعمل عليها إلى الآن). وقد كان سؤالي الأساسي في هذه الدراسة: لماذا ظل المعرّف الأساسي لشيعة العراق هو الهوية الدينية؟ وما العوامل التي فرضت ذلك؟

وقد لجأت إلى نوع من الحفريات اللغوية في هذا المجال، جعلني أكتشف أن دلالة كلمة "الطائفة" في اللغة العربية تحوّلت - في أواسط القرن التاسع عشر وليس قبل ذلك - من كونها تعني جَمْعاً من الناس، إلى أن تشير إلى "جماعة من الناس يعتقدون مذهباً محدّداً". هذا ما تكشفه المعاجم العربية الصادرة في ذلك القرن.

وقد استُعمل تعبير "الطائفة"، في البدء، للأقليات الدينية (يُنظَر، مثلًا: دليل المملكة العراقية للعام 1936، الذي لا يشير إلى السنة أو الشيعة بوصفهم من الطوائف العراقية). ولم يكتسب مفهومُ "الطائفية" مدلولَه الراهن إلا حين بدأ يُطلَق على العلاقات السنية - الشيعية، وهو أمر يرتبط ببقايا النظرة إلى التشيع بوصفه مذهب الأقلية، بإزاء معتنقي المذاهب السنية، الذين يمثلون ما يمكن تسميته "الدين العام"، أو "الإسلام العام". وبكلمة: انتقل تعبير "الطائفية" لوصف العلاقات السنية - الشيعية، مع خروج التشيع من كونه مذهباً أقلوياً في الإسلام، حين شهد اعتناقُ هذا المذهب توسعاً ديموغرافياً كبيراً، جعله ينافس الديموغرافيا

السنية، وذلك في لحظتين أساسيتين: اعتناق الدولة الصفوية التشيع مذهباً رسميًّا مطلعَ القرن السادس عشر، وتشيع إيران من ثم، وتوسّع التشيع في العراق في القرن التاسع عشر (تُنظَر أطروحة إسحق نقاش في هذا المجال). هذا التوسع سمح بأن يبدو الإسلام كأنه يضم مذهبين أو طائفتين رئيستين: السنة والشيعة، وهو أمر لا وجود له قبل العصر الحديث، ولا مصاديق عليه في التراث البتة.

في هذا الإطار، بدأت أكتشف أنه ليس من الصحيح افتراض أنه كان هناك تنافس سني - شيعي رافق تشكيل الدولة الحديثة في العراق، فلم تكن هناك طائفة شيعية متشكّلة (بمعنى الجماعة التي يشعر أعضاؤها أن يملكون هوية تجمعهم، كالهوية القومية، وأن هناك مصيرًا واحداً يجمعهم)، ولا طائفة سنية بالأحرى، وليست هناك هوية سياسية شيعية أو سنية. كان الشيعة يتبنون خيارات سياسية متعددة، لم يكن بينها تشيع سياسي، وكذلك السنة.

وفي تقديري، أن الديناميكية التي بدأت بتشكيل طائفة شيعية وهوية سياسية شيعية بدأت مع الخمسينيات. وربما بدأها تيار داخل المؤسسة الدينية الشيعية، جعل "الطائفةَ" استراتيجيةً نقيضة لعملية بناء الأمة. وقد ظلت هذه العملية تنمو، لتشهد انعطافة مهمة مع نهاية الثمانينيّات والتسعينيات، إذ ظهرت سرديات عديدة، أعادت كتابة تاريخ الدولة العراقية الحديثة بوصفه تاريخ تجاذب طائفي، بين أقلية حاكمة وأغلبية محكومة.

يربط بعض الباحثين هذه الانعطافة بانتفاضة 1991، التي كان التجاذبُ حولها طائفياً، بلا شك. وبالفعل، شهد عقد التسعينيات ظهورَ الأدبيات التي تتحدث عن الطائفية في العراق. ولكنني أعد طائفيةَ التسعينيات انفجاراً لديناميكية بدأت من السبعينيات، حين تجمعت مجموعة تطورات: قمع حزب الدعوة الإسلامية وإعدام قادته، ثم الثورة الإسلامية في إيران، وظهور خطاب يتحدث عن هوية سياسية شيعية إقليمية. ولعل من الأمور الدالة، هنا، أن الكتاب الذي بلور الدعوة الشيعية، أعني كتاب حسن العلوي (الشيعة والدولة القومية)، ظهر في العام 1989، أي قبل انتفاضة 1991 بسنتين.

ومع 2003، حدث انعطاف راديكالي، جرى من خلاله تقعيد هذه الطوائف، لتكون بديلاً على مستوى النظام السياسي لنظام الدولة الأمة، بل نستطيع القول إن الهوية السياسية السُنّية بدأت تُصنَع مع هذا التاريخ.

ولذلك، أنا لا أعد النظامَ الطائفي الذي تشكل ما بعد العام 2003، استمراراً أو نتيجة لما عرفه العراق قبل هذا التاريخ، وأُميّز – من أجل هذا - بين حقلين: حقل سياسات الهوية، وحقل النظام الطائفي. ما شهده العراق قبل 2003 هو نوع من سياسات الهوية، التي تعرفها كل بلدان العالم. والهويات التي يجري تسييسها في العالم ليست هويات دينية وإثنية فقط، بل كذلك هويات مناطقية وجهوية، ولغوية، وجندرية، وما إلى ذلك. في حين أن حقبة

ما بعد 2003 أسّست لانتقال من سياسات الهوية إلى بناء النظام السياسي نفسه على أساس هذه الهويات، وتعريف المجتمع من ثم استناداً إليها.

غير أنني أود القول، في ختام الجواب على هذا السؤال، أن ما حدث ليس مشهد النهاية. وما ثورة تشرين 2019 إلا صورة للمقاومة التي يبديها المجتمع لهذا النظام.

**الثقافة الجديدة**: كنت قد وصفت انتفاضة (ثورة) تشرين على صفحات مجلتنا في الندوة التي عقدت لمناسبة ذكرى انطلاقها الأولى وادارها الأستاذ زهير الجزائري، في العدد المزدوج 416 - 417، بأنها: "نمط جديد من الثورات، [وهي] ثورات طويلة، لا تتحقق أهدافها خلال شهر او شهرين، وتنتهي".

من الملاحظ هنا، ان انتفاضة تشرين وان لم تتمكن من ان تحدث تغييرا ملموسا في النظام السياسي، لكن واحدة من اهم إنجازاتها انها شرعت فعليا في احداث تغييرات ثقافية عميقة في المجتمع. فهي من جهة إعادت الثقة بثقافة الاحتجاج والثورة، اعادت الجماهير فعليا الى الحقل السياسي. ومن جهة ثانية، "ساهمت في غرس العديد من المعاني والسلوكيات الجديدة في الوعي الجمعي والمجتمعي العراقي، واغنت القاموس النضالي بالعديد من المفاهيم والشعارات. بل وأكثر من ذلك، كان أثر الانتفاضة كبيرا الى درجة انها ساهمت في ادراج الكثير من المفردات والدلالات في الخطاب الشفهي و/او المدون. وهذا ما بدا واضحا، من الجمل والكلمات التي أضيفت الى معجم الحديث اليومي الشعبي، والسياسي، وحتى الأكاديمي. ان كل هذا مؤشر مهم على ان الانتفاضة شكلت سرديتها الخاصة، وهي سردية عراقية كبرى لجهة آثارها ومضامينها العميقة"، كما اشّرت ذلك (الثقافة الجديدة) في كلمة العدد 426 - 427.

انطلاقا من اتفاقنا على ان عملية التغيير في العراق هي عملية ذات مسار طويل ومعقد، تجلت وستتجلى بتمظهرات مختلفة، ليس اخرها الانتفاضة. برأيك دكتور حيدر:

**هل تستطيع احداث بمثل هذا العمق، بمثل هذا الخيال الجامح الذي تجلت به تشرين، مستقبلا، ان تتجاوز او تتخلص من استحضار الراسب الرمزي التقليدي البحت، عقائديا كان أم طقسيا؟ خصوصا وان هذه الرموز، على الرغم من اختلاف مضامينها، هي علامات مشتركة بين السلطة ونقيضها. وبالتالي، فإن بقاءها هو ديمومة مجازية ورمزية للسلطة على اقل تقدير.**

**وهل بإمكان الحركة الاحتجاجية ان تبدع رموزها بذاتها في مسارات نضالها؟ وهل من مدى زمني، اجتماعيا كان ام سياسيا لإنجاز هذه المهمة المزدوجة؟**

**د. حيدر سعيد:** على الرغم من ظهور عدد من الدراسات عن ثورة تشرين 2019، أظن أنها لا تزال مجالاً غنياً للدراسة والبحث الميداني، لفهم عواملها

المختلفة والمتنوعة، وصلتها بتاريخ الحركة الاحتجاجية في العراق منذ 2010، وبأنماط الحركات الاجتماعية والاحتجاجات والثورات عبر العالم، وما إلى ذلك من مسائل. ولا تقف الحاجةُ البحثية عند مقدمات الثورة، بل ينبغي - كذلك - دراسة توابعها وتبعاتها، ولا سيما خيارات جيل الثورة وفاعليها في أعقاب توقف الفعل الاحتجاجي العيني.

وأحدُ هذه المباحث ذات الصِّلة بالثورة، دراسة بنيتها الخطابية (ملفوظاتها، وشعاراتها، وبياناتها، وتعبيراتها اللغوية)، وهو مبحث لا يدرس البنيةَ الخطابية للثورة بوصفها تعبيراً انعكاسياً جامداً عنها، بل بوصفها جزءًا من الفعل الثوري، يتشكل منه، ويشكّله أيضاً.

لقد كان واحد من أهم وظائف خطاب الثورة هو منازعة السلطة القائمة على رموزها، التي تؤسّس عليها جزءًا من شرعيتها.

كنت قد قدّمتُ، مؤخراً، ورقة عن كيفية ومعاني توظيف خطاب الثورة للرموز الحسينية، وافترضتُ أن هذه الرموز أصبحت فضاء نزاعياً: رموز يتنازع عليها الثوّار مع مستعمليها ومروّجيها من أصحاب السلطة، ليحاولوا انتزاعَها منهم، ونزعها عنهم، ومن ثم، نزع الشرعية التي أسّسها هؤلاء لأنفسهم من خلالها. ولعل الذروة في هذه المحاولة تتمثل في انتزاع "الحسين" نفسه.

وفي تقديري، كانت إحدى الاستراتيجيات الأساسية للثوّار في هذا المجال هي "تلبّس الحسين"، أي أن يماهي الثوّار أنفُسَهم بالحسين، فيكونهم، ولا يكون رجالَ السلطة. ولحظة التلبّس هذه هي لحظة نزاعية، لا تتوقف عند إثبات التماهي بين الحسين والثوّار، بل إنها تصرّح بنفي أن يكون الحكّامُ الحسينَ. نتذكر الهتاف الشهير الذي تردّد في الثورة "أنا الحسين المِن صدگ [الحقيقي]، أنت منو؟". كان هذا الهتافُ يعبّر عن نزاع، بين طرفين، أنا وأنت، الضميرين اللذين يحضران نصًّا فيه، وهما يتنازعان على "الحسين"، من يكونه. والحسين الذي يتجسد في الثائر هو الحسين الحقيقي، في حين أن الحسين الذي استعملته السلطة خلال كل تلك السنوات هو حسين مزيّف، جزء من بنيان سلطة الفساد وأداة للهيمنة.

ولذلك، تستدعي هذه الخطوةُ إعادةَ تعريف "الحسين"، بنحوه "الحقيقي"، بحسب الثائر، لا المزيف، الذي صيّرته السلطةُ مجردَ طقس، من دون مضمون أخلاقي. ولذلك، كان من أوائل الهتافات التي رُفعت في الأيام الأولى للثورة: "الحسين مو دگ ولطم/ الحسين ثورة على الظلم"، وهو هتاف تقوم بنيته اللغوية على الاستراتيجية نفسها: النفي، ثم الإثبات (مو [ليس]، هو . .)، التي تستهدف النزع، ثم التلبس، كما تقدم: نفي أن يكون الحسين مجرد طقوس عزاء، بقدر ما أنه ثورة ومطلب عدالة.

وتمضي هذه الاستراتيجيةُ التي يتضمنها خطابُ الثورة أبعدَ من عملية نزع

الشرعية عن السلطة القائمة، إلى محاولة نزع الهيمنة الثقافية hegemony، بمفهوم غرامشي، التي فرضتها السلطة، وكانت الرموزُ الحسينية جزءًا منها، إذ حوَّلتها السلطة إلى مجرد طقوس، ينتظم المجتمع من خلالها.

لذلك، فإن محاولة إعادة تعريف "الحسين" من خلال جانبه اللاطقسي، هي محاولة شديدة الأهمية والجذرية، ليتحرر المجتمع من هيمنة السلطة وإخضاعها.

وهنا، تؤسس الثورة بنيتَها الجديدة.

لقد عمل خطابُ الثورة في المجال الرمزي نفسه الذي تتقاسمه السلطة والجمهور، لا فقط لكي لا يبدو ما تريد أن تنجزه الثورةُ غريباً على الجمهور، بل لكي يعيد تعريف هذه البنية الرمزية على نحو جديد، فيسلبها من السلطة، ليبطل وظيفتها التي تستعملها السلطة من أجلها، ويطلقها لاستعمال ووظيفة جديدين. ومن ثم، تهدف هذه المنازعة إلى إحداث قطيعة وتأسيس بنية جديدة.

وأبعد من ذلك، كانت هذه الاستراتيجية (النزع، ثم الاستبدال) عصبَ خطاب الثورة، الذي هدف - في النهاية - إلى استعمال بنية رمزية تتجاوز رمزيات الطائفة، ليؤسس - من ثم - خطاباً جديداً.

وبكل تأكيد، أن استعمال رمزية "الحسين" مسألة فرعية، بإزاء الاستبدالات الأكثر أهمية التي أنجزها خطابُ الثورة، ولا سيما حين استبدل بـ "الطائفة" "الوطنَ".

**الثقافة الجديدة:** كان لديك أطروحة مثيرة للجدل، من ناحية سياسية على الأقل؛ ففي دراستك التي جاءت تحت عنوان (الأمير ما بعد الحديث) في عام 2011، أكدت على الدور المركزي للمجتمع المدني في عملية التحول نحو الديمقراطية، في العراق. وقد جاءت هذه القراءة نتيجة لملاحظتك للضعف الواضح في عملية تكون النخب السياسية. وحددت عدة مسببات لهذا الضعف: الريع، والطائفية، وأيضا بروز ظاهرة الأحزاب الانتخابية ونهاية الأحزاب الايديولوجية.

الان، وبعد مضي أكثر من عشر سنوات بقليل، يبدو أنك بدأت بالتراجع عن هذه الفكرة الى حد كبير. خصوصا بعد أن اثبت المجتمع المدني، ولأسباب متعددة، عجزه عن ان ينهض بهذه المهمة، واخفاقه في أن يكون فضاء للمشاركة السياسية، فضلا عن ان يكون بديلًا عن الأحزاب.

**فهل من تعليقات إضافية تسلط الضوء من خلالها على اطروحتك ومآلاتها الآن، خصوصا بعد الزخم الكبير لانتفاضة تشرين، واشكالية التنظيم التي برزت فيها؟**

**وهذا يقودنا ايضا الى سؤال جوهري اخر: بغض النظر عن طبيعة الأحزاب في اللحظة الملموسة، انتخابية كانت ام ايديولوجية، فهل يمكن ان يوجد نظام سياسي ديمقراطي دون أحزاب؟ بل هل يمكن ان يوجد حراك في سبيل احداث التحولات السياسية والاجتماعية دون أدوار تلعبها الأحزاب والتنظيمات السياسية؟**

**د. حيدر سعيد:** بلا شك، يلعب المجتمع المدني دوراً محورياً في عملية الانتقال الديمقراطي، ففي حين تقضي النظم السلطوية على المجتمع المدني، جزءًا من مسعاها لإلغاء السياسة، يكون إحياؤه وتفعيله عنصراً حيويًّا في عملية الدمقرطة، والنظم الديمقراطية نفسها.

هذا التصور هو رهان، في الحقيقة، ولكنه رهان قائم على استقراء تجارب الانتقال عبر العالم. ولذلك، يحتل دعمُ المجتمع المدني مكانة أساسية في برامج إعادة بناء الدول الخارجة من نزاعات ونظم سلطوية.

وبالنسبة لي، كان الرهان على المجتمع المدني أكبر مما تؤمّل هذا البرامج. لماذا؟

ليس فقط لأنه صورة من صور تمكين المجتمع بإزاء الدولة، بل لأن المجتمع السياسي - في حالة العراق - يبدو عاجزًا عن أن يكون داعماً للانتقال الديمقراطي، مع تبني العراق النموذج التوافقي، الذي تضعف فيه المعارضة والرقابة، إذ تكون الأطرافُ السياسية جميعاً جزءًا من الائتلاف الحاكم، ومع التحول العميق في البنية الحزبية في العراق: الأحزاب الإيديولوجية التاريخية كفّت عن أن تؤدي دورَها السابق، وظهر بجوارها أنموذج "الأحزاب الانتخابية"، التي تجتمع وتتشكل، لتخوض الانتخابات، وتكون جزءًا من ائتلاف السلطة، من دون رؤية سياسية (إن لم أقل: إيديولوجيا).

هذا الفراغ (الفراغ في المطالبة السياسية، والرقابة على الدولة) يمكن أن يشغله المجتمع المدني. وهذا هو الرهان على المجتمع المدني، الذي ينبغي له أن يكون، لا شكلًا من إدارة المجتمع لنفسه بعيداً عن الدولة، ولا متمحّضًا للخدمات والإغاثة وما إلى ذلك، بل معنيًا بالقضايا السياسية، بالدرجة الأولى. ومن ثم، ينبغي أن يعاد تعريف المجتمع المدني بوصفه عنصراً في المجتمع السياسي.

وما بعد 2003، شهد العراقُ نهضةً في نشاط المجتمع المدني، بعد انقطاع لعقود، فرضه النظام السلطوي، حتى في التجربة النقابية، التي أصبحت ملحقة بفلك الحزب الواحد. وقد حقق هذا المجتمعُ المدني، الناشئ والصاعد، نجاحات لافتة في دعم مسار الانتقال نحو الديمقراطية.

غير أنه لم يستمر على هذه الحال، ولا سيما مع تصاعد الأزمة السياسية في البلاد، منذ العام 2011، التي انتهت بسقوط الموصل بيد تنظيم داعش، لتدخل البلادُ في أجواء حرب، لتحرير الأراضي التي سيطر عليها التنظيم، فلم تكن البيئةُ السياسية ملائمةً أو مساعدة لنمو المجتمع المدني. هذا فضلًا عن انحسار الدعم الدولي له، الذي (ينبغي أن نعترف بأنه) لعب دوراً في نموه، ولكنه انحسر مع تراجع اهتمام الإدارة الأميركية بالعراق والمنطقة مع حقبة الرئيس باراك أوباما (2009 - 2017). غير أن هناك عاملين أساسيين لهذا الضعف، أهم من معطيات البيئة السياسية التي نما فيها: الأول هو تغول السلطة التنفيذية (وهو ناتج طبيعي وحتمي للأنموذج الريعي)، التي نمت واشتدت خلال

حقبة رئيس الوزراء نوري المالكي (2006 - 2014)، فأطلقت مسعى لمركزة القرار بيدها، فخاضت نضالاً طويلاً لإخضاع المؤسسات السياسية، ومنها البرلمان والهيئات المستقلة. وقد كان المجتمعُ المدني أحد أهداف هذا المسعى، إذ انتقل الإشراف عليه إلى السلطة التنفيذية، التي اتخذت - بدورها - إجراءات عدة لتقييده والحد من نشاطه. والعامل الآخر هو دخول أحزاب السلطة (ولا سيما الأحزاب الإسلامية) على مجال المجتمع المدني. في دراسة مطوّلة، أنجزتها في العام 2010، بعنوان "الإسلاموية والمجتمع المدني في العراق"، اكتشفت كبرَ حجم منظمات المجتمع المدني المرتبطة بالأحزاب الإسلامية الحاكمة والمؤسسات الدينية النافذة، بشكل مهيكل معلن، أو غير مهيكل ولكنها مدعومة من هذه الأحزاب والمؤسسات، إلى الدرجة التي يمكننا فيها القول إن الجزء الأكبر من ظاهرة المجتمع المدني (كمياً في الأقل) مرتبط بالأحزاب، وبالسلطة من ثم. وقد كان تقديري في ذلك الوقت أن هذه المنظمات هي أداة إيديولوجية بيد هذه الأحزاب، تستهدف من خلالها "أسلمةَ المجتمع"، بعد أن أصبح مشروع "أسلمة الدولة" غيرَ قابل للتطبيق في العراق ما بعد 2003، بسبب ما يفرضه توازن القوى القائم، إلا بشكل تدريجي، وجزئي، وبطيء، ومواربة. ومن ثم، يمكن أن توفر "أسلمةُ المجتمع" القاعدةَ لأي مشروع مستقبلي لـ "أسلمة الدولة".

غير أن هناك مجموعة من المؤشرات المهمة الراهنة، التي يهمني استعراضها هنا، وأنوي الكتابة عنها، ولكنني لم أقم بذلك بعد، فمن جهة، لا يمكن أن يكون ثمة تراجع عن دراسة المجتمع المدني (والرهان عليه كذلك)، وقد بات يندرج في مبحث أساسي تنشغل فيه العلوم الاجتماعية، منذ ثلاثة عقود في أقل التقديرات، ويشمل سائرَ أشكال النشاط الجماعي اللادولتي، ذي الطابع الاجتماعي والسياسي. ومن جهة ثانية، كان من المخرجات المهمة (وغير الملحوظة بعد) لثورة تشرين، هو النهضة الجديدة للمجتمع المدني. وهذا المجتمع المدني الجديد مختلف عن سلفه الذي نشأ بعد العام 2003. كنت قد افترضت أن أحد العوامل الكثيرة التي تفسّر ثورة تشرين هو أنها بحث عن إطار للمشاركة السياسية لجيل الشباب، بعد أن عجز نظام 2003 عن توفير مشاركة سياسية حقيقية، وحصرها بالمشاركة في الانتخابات. وإذا كانت ديناميكيةُ جيل الثورة قد قادته، في أعقاب الثورة، إلى بناء تنظيمات سياسية (وأنا أعد أن أهم مخرج لثورة تشرين سيتمثل في صناعة نخبة سياسية جديدة)، فإن الجزء المخفي (أو غير الظاهر والواضح) من هذه الديناميكية أن جزءًا مهماً من جيل الثورة قد اختار التأطر بالمجتمع المدني. وهذا المجتمعُ المدني الناشئ أكثر وعياً بأهدافه السياسية، بل إنه لا يركّز إلا على الأهداف السياسية، لأنه يعد العملَ المدني الذي انخرط فيه بعد الثورة استكمالاً لها من حيث توقفت.

قد يكون هذا المجتمعُ المدني عتبةً للتحول إلى تنظيمات سياسية، ولكنه - على ما

أحسب - سيكون مادة لإعادة صياغة ظاهرة المجتمع المدني والتفكير فيها من جديد.

**الثقافة الجديدة:** من مقالتك الموسومة (ما أصغر الدولة وما أكبر الفكرة- خطوط عن علاقة المثقف بالدولة في العراق 2006)، التي راهنت في سطورها الأخيرة على قدرة المثقف، على اعادة بناء رؤيته للدولة، وأيضا على إعادة صياغة علاقته بها؛ وحتى مثقفك اللادولتي ذو النزعات الثلاث: الرسولية، والنقدية، والفكرية، والذي صغت مفهومه في مادتك التي جاءت تحت عنوان (مولد المثقف اللادولتي – حالة العراق) 2017؛ سنوات طويلة، اجتهدت فيها كثيرا في سعيك لاكتشاف هوية المثقف ووظيفته، وبالتالي في إعادة صياغة تعريفه. خصوصا من ناحية علاقته بالشأن العام.

**ترى ما الثابت والمتحول في رؤيتك للمثقف؟ اقصد "حالة العراق" بكل تأكيد؟**

**د. حيدر سعيد:** أعترف بأن مسألة "المثقف"، وإعادة صياغة مفهومنا عنه، وطبيعة علاقته بالدولة والشأن العام، تشكّل أحدَ المباحث (والهموم) الأساسية لدي، ولا أظن أنها ستتوقف.

ومع أن المثقفين العراقيين (وأنا منهم) لم يكونوا بعيدين عن التنظير العالمي لمفهوم "المثقف" (أنطونيو غرامشي، إدوارد سعيد، وسواهما)، يبدو لي أن السؤال عن دور المثقف، عراقياً، هو وليد لحظة 2003، وليس قبلها، حين قضى النظام السلطوي على كل منافذ المجالين المدني والسياسي، فضلًا عن القيود على حرية التعبير، فيما يمكن تسميته "موت السياسة". ومن ثم، لم يكن هذا السؤال ممكناً إلا في اللحظة التي سقط فيها هذا النظام، وبدا أن ثمة أفقاً لدور مختلف، كما بدأت القوى المجتمعية المختلفة تتحرك لإعادة صياغة أدوارها.

غير أن عقود الاستبداد الطويلة خلّفت إرثًا ثقيلًا، قيّد حركةَ المثقف، وهو يتجه إلى خوض هذه الأسئلة المؤسِّسة عن دوره وهويته، فمن جهة، ورث المثقفُ تراثًا طويلًا من التبعية للسياسي، فتكوّنُ المثقفِ العراقي لم يكن بمعزل عن المجال الإيديولوجي والحزبي، فنشأ بوصفه عنصراً إيديولوجيًا. وقد قادت هذه الصيغةُ إلى أن ينمو المثقفُ وبيده عقدُ التبعية للسياسي. ومن جهة ثانية، انبنت الثقافةُ العراقية على قَصْرِ تعريف "المثقف" على الفنان والأديب، ومن ثم، عزلت المفكرين والمشتغلين في العلوم الاجتماعية والإنسانية عن هذه الدائرة. وقد انتقدتُ، في إسهام مبكّر (كنايات عن تاريخ ثقافي/ 1997)، ما سمّيتُه "التاريخ الشعري للثقافة العراقية"، ودعوت إلى كتابة تاريخ للفكر العراقي، يدمج الإسهامات المهمة التي تأتي من خارج دائرة الفن والأدب. ولدينا قائمة مهمة وطويلة في هذا المجال.

وإلى جانب الإغلاق التام خلال حقبة البعث، كان هذا العاملان قيدين ثقيلين قيّدا المثقف العراقي، وهو يسعى إلى إعادة فهم وظيفته، حتى بالنسبة للجيل الذي لم يعرف

الحياةَ الحزبية (جيلي)، ونشأ من دون علاقة حقيقية بالأحزاب، إلا إن "موت السياسة"، الذي تحدثت عنه، لم يتح له إدراك معنى "التسيّس"، على نحو جدي وفعلي.

ولذلك، كان الانهماك في الكتابة عن "المثقف" ودوره مفتتحًا لنضال طويل، لا يزال مستمراً إلى هذه اللحظة.

وبلا شك، حقّق المثقف العراقي تقدّماً كبيراً في العقدين اللذين أعقبا سقوط الاستبداد. وقد بات مألوفاً أن المثقف هو مكوّن رئيس وحيوي في كل النضال والحراك المستمر عبر هذين العقدين، من أجل القيم المدنية، والعدالة، والحريّة.

وبالنسبة لي، حاولتُ الكتابة - مبكراً - عن حركة الاحتجاج المدني، المتصاعدة منذ العام 2010، بوصفها الطريق الوحيدة لاستعادة المسار نحو الديمقراطية. وفي مقالتي "الاحتجاج المدني والدور التاريخي للمثقفين" (2010)، دعوت إلى ألا يكون المثقف بعيداً عن مجال الاحتجاج المدني، فلا ينبغي لـ "الانخراط في الشأن العام" أن يكون مجردَ فعل خطابي (بيانات، مواقف، مقالات، . .)، بل ينبغي له أن يصل إلى الشكل الأقصى (الاحتجاج السلمي الفعلي)، بما أنه مسار نحو القيم التي يؤمن بها المثقف. ومن ثم، ينبغي إزالة المسافة الفاصلة بين هذين المجالين: الاحتجاج المدني، والمثقف.

وأود أن أضيف، هنا، أنه مهما قيل من نقد في المثقف العراقي وسلبياته، فإنني أعتقد أنه لم ينجر إلى الانقسامات الطائفية والإثنية والدينية، التي نخرت المجتمع، وأنه ظل قريبًا من وعي الهوية الوطنية بوصفها الفضاءَ المشترك الذي يمكن أن يتقاسمه العراقيون والعراقيات، فوق هوياتهم الإثنية والدينية والطائفية، التي نُفخ فيها، لتتغول. لا أنكر أن هناك مثقفين انجرّوا إلى الخطاب الطائفي (وفيهم مثقفون بارزون)، ولكنهم لا يشكلون التيار العام، بأي حال.

ولا ينبغي أن يقتصر الحراك الذي يخوضه المثقف على هذا المران المستمر لوظيفته، بل ينبغي أن ينجز كذلك الأدبيات التصورية عن هذا الفهم الجديد.

وأخيراً، دعوتُ - في إسهام أخير عنونتهُ بـ "العلوم الاجتماعية والتحولات السياسية: أي موقع؟" -، ومن جهة كوني عاملًا داخل حقول هذه العلوم، وانطلاقًا من السؤال الجدي الذي شغل العلوم الاجتماعية في العالم العربي ما بعد ثورات 2011 عما يمكن أن تسهم به في سياق التحولات التي يشهدها المجتمع والسياسة، إلى أن يكون انخراطُ العلوم الاجتماعية بهذه التحولات انخراطًا ملتزماً، يتعدى الفهمَ والتفسير (الوظيفة التقليدية للعلوم الاجتماعية)، ويستعير التزام المثقف.

أدب
و
فن

# فاتحة عام جديد

حسب الله يحيى

في الوقت الذي كان قد اعلن فيه فوكوياما نهاية التاريخ؛ يتم الحديث وعلى نطاق واسع بأن العالم سيضمحل، وان النهاية قد دقت اجراسها معلنة نهاية الكون، بسبب المتغيرات المناخية غير المسبوقة التي يمر بها عالمنا اليوم.

إلا أن الوطن العربي ـ استثناء ـ من بلدان العالم، فما زال يشهد سلسلة من الصراعات والنزاعات الحادة التي نجد صورتها في العراق وسوريا واليمن وتونس والسودان و... ، من دون ان يفكر احد بأن هذا العالم يمكن بناؤه بالسلام، ذلك ان السلام، يمكن ان يعد الاساس في استعادة الحياة الرغيدة للأفراد والشعوب على حد سواء.

ولم يكن العراق، خارج المحاور الأممية التي تدق طبول الحرب على ابوابه، فيما (القوى السياسية) منشغلة كليا بإفرازات الانتخابات، وما اذا كانت ستفضي الى هذا الواقع او ذاك، وكأن الأمور تجري على وفق ما تشاء فئة سياسية ترى ان محور الكون لا يمكن ان يمضي في مسيرته من دونها!

إنّ المتغيرات التي يشهدها العالم يوميا، جديرة بأن نتوقف إزاءها حتى تبين ان طبيعة كل الاشياء تسير على وفق آليات جديدة ومواقف متغيرة وسياسات لا تستقر على قرار إلا ما يعنيها ويحقق مصالحها.

في حين نجد العراق يسير باتجاهات وتيارات مختلفة لا تفضي بالنتيجة إلا الى ذات المحور الذي انطلقت منه.

ودارت دورتها في المحور التقليدي الذي يراد فيه تحقيق رغبات فئة معينة دون سواها، وهي في الاساس لا تمتلك حتى إرادة قرارها، وإنما تتلقاه من الخارج الذي باتت أوراقه مكشوفة وهويته محروقة، ما جعله هو الآخر يتجه نحو التخلي عن عدد من شركاء الامس، ذلك ان الأمس بالنسبة إليها قد طويت صفحته، وهي الآن تتجه الى تحالفات جديدة وممثلين جدد..

وهذا ما لم تدركه العديد من الفصائل والقوى التي وضعت مصيرها بمصير قوى خارجية لا تنتمي الى الوطن، ولا يهمها ماضيه وحاضره ومستقبله.

هذا ما يجري في محور السياسة، وعن الوجه الثقافي الذي نعنيه.. وجه الثقافة، حيث لا ترى (السياسة العراقية) ما يتوجه الى سياسة ثقافية بناءة، بل هناك اتساع لرقعة الجهل والامية اللتين تغزوان المجتمع، وتنخران في جسده..

وبهدف اعلامي نجد تغييرا واضح الدلالة، حيث يتم الاعلان عن فعاليات ومهرجانات (دولية) بينما هي لا تتجاوز كونها فقرات (فنية) فقيرة في عطائها وخطاها وانتاجها،

ولا تتجاوز منطوقها المتواضع الذي لا يمكن ان يمثل الوجه الحضاري للبلاد.

إننا إذ نشهد فاتحة عام جديد، يهمنا ان نجد فيه قوى الخير والسلام والديمقراطية قد سادت البلاد، وحققت الحضور الجدير بها، واندحار قوى الظلام والتخلف والفشل والفساد، وثم الانتصار على كل هذه الظواهر التي ألحقت بالعراق أفدح الخسائر وتركت البلاد نهبا للفساد المالي والاقتصادي.. حتى اصبح البلد مرتعا خصبا للابتزاز على الاصعدة كافة.

نعم.. نحن شعب تواق الى الحرية والسيادة، والى بعث الامن المستقر والذي يسوده السلام والوئام.. والامل ان يكون عام 2022 عام خير وسلام وانتصار على قوى الظلام لتحقيق الحياة الحرة الرغيدة، بعيدا عن كل ما من شأنه ان يحول دون إرادة الشعب في الحرية والسلام والرفاه.

# لماذا كان الفن الإغريقي مصدراً للمتعة والجمال؟

مؤيد جواد الطلال* - دمشق/ خاص

الفنان الأول، صانع الأدوات المفيدة والأشكال الطوطمية البدائية، الساحر والعرّاف، قارئ مواقع النجوم والكواكب، كان يجمع في عطفيه كُلاً من طبيب الجماعة وشاعرها وزعيمها الروحي أيضاً؛ لذا فأنه في تلك المرحلة التاريخية الغابرة، يمكن أن يتحول إلى كاهن، إلى رئيس، إلى حاكم فعلي ينظم أمور الجماعة (الوحدة الاجتماعية أو القبيلة.. الخ) ويعبر عن وعيها وأهدافها. وقد كانت تلك الموهبة والمؤهلات تخوله مثل هذه القيادة والريادة.

وقد عبّر (هِرْمَن هِيسّه) عن هذا المعنى في كرياته الزجاجية حين كتب قصة (صانع المطر)، وفيها إشارة واضحة - من سطرها الأول - إلى أن الأمر قد حدث قبل آلاف السنين "في وقت كانت السيادة فيه للنساء"، بل وتشير القصة إلى أن بطله صانع المطر، أو المتحكم بالطقس، قد عاش في فترة سبقت ظهور الاديان[1]. حيث كان يسعى إلى إخضاع القوى الجبارة ومظاهر الطبيعة الخارقة عن إرادته وإرادة "المجموعة" أو القبيلة أو الوحدة الاجتماعية. وأنه كان مستعداً للتضحية بنفسه إذا لم تستجب تلك القوى الخارقة لتوسلاته وابتهالاته وأدوات صنعته ذات الطابع السحري والطقوس الجماعية التي يُسيّرها ويتحكم بها، مستخدماً جوقة الأناشيد والموسيقى والرقص.

وعلى الرغم من أنّ (هيسّه) لم يثبت مصادر بحثه أو دراسته للأمور التي استند إليها في خلق قصة (صانع المطر)، لكن مجمل ما في صفحات وسطور القصة يوحي بالرصانة العلمية وعمق وشمولية المعرفة. بل أستطيع القول إنه أمر لا يوصف هذا الذي يمزج (هيسّه) فيه الأدب بالتاريخ، أو بجزء قديم جداً من التاريخ، وأعني به تاريخ تكوّن الأسطورة وبدايات الوعي الإنساني والاتجاه نحو تكوين أفكار فلسفية وشبه دينية (خاصة التضحية بصانع المطر/ المناخ) كعقيدة وكوسيلة لطرد الشياطين والضّر الذي يمس حياة الناس جراء تقلبات الطقس، ولجلب الخير لهم ممثلاً بسقوط المطر واعتدال المناخ. ولا أبالغ إذا ما قلت إنني لم أقرأ في حياتي نصاً

أدبياً أو سرداً فيه كل هذه الأفكار العميقة والتأملات، فضلاً عن الغور في أعماق التاريخ وتقاليد الشعوب، مع احتفاظ النص بروحه الأدبية المشوقة الممتعة كما لو أنّ (هيسه) يزاوج ويماهي بين الاثنين: الأدب والفكر، مزاوجة إيجابية خلاّقة قلّ نظيرها في العالم!

**المراحل الأولى لتشكّل الفنون**

من الفنانين الأول كان من ينظم الأغاني المنغمة (الإيقاعية) التي تُستخدم في الصيد وفي الطقوس الطوطمية والسحرية ذات الرهبة العالية، تلك الطقوس التي ستتحول لاحقاً إلى اعتقاد وعقيدة، ثم إلى أساطير ميثولوجيه ودين. وتتوسع دائرة المقدس/ الديني لتتلقف كل الأساطير القديمة، المتداخلة من حيث المتن (المُعطى) ومن حيث المنطق والشكل الخارجي؛ وهذا ما يفسر تكرارها عند كل الشعوب مثل أسطورة تغيير الفصول وصراع الخير والشر أو النور ضد الظلام "هابيل وقابيل"، والتي سيتفرع عنها ما هو مناقض للموت والرغبة في حياة دائمة خالدة كما صورتها الملحمة المدونة جلجامش "هو الذي رأى"، ناهيك عن مئات الملاحم التي سبقتها في عصور ما قبل الكتابة والتدوين، كان للفنانين الأوائل دور عظيم في عملية خلقها وصياغتها بأشكال مختلفة ومنوعة!

كل هذا بالطبع قبل أن ينقسم المجتمع إلى طبقات؛ أما في مرحلة لاحقة فإنّ الفنان قام بدور المُنظّم والعاكس لأيديولوجية طبقته، والتي هي غالباً ما تكون أيديولوجية الطبقة الحاكمة لارتباطه الحتمي والضروري بهذه الطبقة صاحبة الإمكانات والامتيازات والوسائل التي تخلق وتشجع وتخلد الفن والأدب كجزء من حاجتها إلى دعم حقها المطلق أو الإلهي في الحكم والسيادة ليس على صعيد القوة المادية فقط، بل وعلى صعيد القوة الروحية متمثلة بالفنون والملاحم وكل ألوان إبداعات تلك الأزمنة التي أخذت بعداً عملياً وتاريخياً عن طريق خطوة الوصول إلى مرحلة الكتابة والتدوين.

وفي مثل تلك الأزمنة والمراحل التاريخية تصير العبادات الأولى (ومنها عبادة الأسلاف والأشكال الطوطمية المختلفة) بمنزلة البذور الأولى لتشكيلات دينية أرضية الطابع وذات أبعاد واقعية يبدأ الحكام في عملية إسباغ هوية وصيغة القداسة عليها لأنها ستصبح المبرر الأساس لواقعية تحكمهم وتسلطهم بوصفهم آلهة أو أشباه وأنصاف آلهة، أو على الأقل مخولين للتحكم في الأرض والعباد من قبل الآلهة المزعومة، وهذا هو الشكل الجنيني الأول لظهور أشكال مختلفة مما يمكن تسميته بالعقيدة أو الأيديولوجيا ضمن مرحلة تاريخية محددة.

وهنا من الضروري اعادة التذكير بما كنا قد أشرنا إليه سابقا من أن الأساطير أو الأفكار الميثولوجية للشعوب عامة كانت قد تشكلت ضمن مرحلة (الوحدة الاجتماعية الأولى للقبيلة - أي قبل الانقسامات الطبقية) وقبل مراحل مديدة/ طويلة من تشكّل الأديان؛ إذ أن الأديان ماهي إلا استعارات متطورة ومتنوعة من تلك الأفكار الأسطورية الميثولوجية بعد أن تحولت إلى أمور مقدسة. حيث إنّ الدين بكل أنواعه وصوره (الأرضي أو السمائي) هو سبل وطرائق تقديس تلك الأفكار، يتحول

تدريجياً إلى طقوس وممارسات وعبادات لها أول وليس لها آخر كما يقال في بعض التعبيرات الأدبية البلاغية!

وقد عبرت الصروح الحجرية الشاخصة والشاهقة - في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما - عن ذلك الحق وتلك القوة على نحو من الأنحاء، أي طرحت الصيغة الأيديولوجية والتبريرات العقائدية لكل ما سيطلق ماركس عليه لاحقاً اسم (البنية الفوقية)؛ إذ اختلطت تلك الصروح الحجرية والطينية العملاقة - وكل الفنون والملاحم والمنشآت والقوانين ومظاهر البنية الفوقية - بالعقائد الروحية والدينية والأساطير، أي اختلط ما هو دنيوي ومادي واقعي ملموس بالتراث غير المادي لتلك الشعوب بما يشبه البوتقة التي لا انفصال في مكوناتها وجوانبها لتعيش وتتعايش بهذه الصورة، وعلى هذا الشكل، لأطول فترة ممكنة في الحياة حتى بتنا اليوم نجد آثارها شاخصة وملموسة في المجتمعات المنغلقة البائسة فيما يسمى بدول العالم الثالث المتخلف على الرغم من كل التغييرات والتطورات التي شهدتها الكرة الأرضية منذ مراحل عصر التنوير وحتى الساعة!

إنّ الصروح الفنية بكل ألوانها وأشكالها، وكذلك أحجامها مهما صغرت أو كبرت، فهي بقدر ما كانت تعبر عن حاجة نفعية عملانية فإنها في الوقت ذاته تعبر عن مرحلة حياتية ذات أبعاد رمزية كما أسلفنا من قبل؛ ولذلك ستظل هذه الرمزية ترافق حياة الإنسان من البداية إلى النهاية.

ولا بد أن تمركز السلطة بيد الحاكم المستبد قد حوّل كل شيء، بما في ذلك الفنون الجميلة بكل أطيافها، إلى جزء من العقيدة. العقيدة التي أصبحت تأخذ طابعا دينياً مقدساً، وكل ما يناقض هذه " العقيدة المقدسة "، أو لا يتطابق معها، يصبح ثانوياً أو مهملاً إن لم أقل مُحارَباً!

بالطبع ثمة آراء تنبع من مُثّل/أفكار إنسانية نبيلة تشير إلى أن تلك الصروح العملاقة والتي تعبر عن فن وهندسة معمارية عظيمة (مثل الأهرامات والمعابد والجنائن المعلقة ..الخ) كانت قد بنيت بطرق استخدام سيّاط السخرة والاستغلال الطبقي (عرق وجهد الفقراء والعبيد)، لكننا لن نقف طويلا عند تلك الأفكار والمثل الإنسانية النبيلة في هذه السطور؛ ليس بسبب قِدم تلك الوقائع الاجتماعية والتاريخية فقط وإنما نحن في سبيل تقديم صورة بانارومية عامة لما أسميناه بالمراحل الأولى لتشكّلْ الفنون وتطورها حسب التطورات الاجتماعية والتاريخية وعلاقتها بالمنظومة الاقتصادية السياسية من جهة وتطور علاقات الانتاج من جهة ثانية. في حين سيتم تركيزنا لاحقا على الأشكال والأساليب السياسية والأيديولوجية في مراحل الاحتدام الطبقي لاسيما خلال فترة سيادة الطبقة البرجوازية وظهور الوجه البشع للرأسمالية كنمط انتاج وحياة وأنظمة وقوانين وأخلاق وعلاقات اجتماعية .. الخ.

إنّ التبدل العظيم في بنية المجتمع، وتفكك ما أسميناه بالوحدة الاجتماعية في مراحل التاريخ البشري القديمة، سيؤثر كثيرا على النظرة إلى الفن وإلى الفنان الذي ستتراجع مرتبته في التسلسل التراتبي للناس المقربين من "الحاكم المستبد"، والذي أصبح يأخذ سلطته من الآلهة السماوية وليس من الشعب بعد أن سيطرت الروح الكونية

الغيبية (ما وراء الواقع الحسي المنظور) على كل ما تحدثنا عنه من دور للفن والفنان في رؤية واقعية أو نظرة عملية بوصفه جزءاً لا يتجزأ من الوجود وضمن "وحدته الاجتماعية". ومن هذا المنطلق تصير المسافة بين الوزير الأول لما أسميناه بالحاكم المستبد مطلق الصلاحية - أو قائد قواته الحربية - هي غير المسافة مع الفنان مهما كان ملهماً أو مبدعاً أو حتى خاضعاً لأوامر تلك السلطة المركزية الاستبدادية المطلقة. ولعل هذه الصورة غير الإيجابية كانت تظهر أولاً في عصور وممالك شرقية موغلة في القِدم والعتمة، ولا توجد مصادر كافية لدراستها.

**دور الفن في التعبير عن طبيعة العلاقات الاجتماعية**

تتسم الفنون في بداية نشوئها وتشكلها كصور تعبيرية بالنفعية الاجتماعية، أو بالصفة ذات الطابع الجمعي خاصة في مرحلة العيش المشاع؛ وذلك عن طريق توظيف الفن في عمليات الصيد والحث على إنجاز الأعمال ذات الطبيعة الجماعية، فضلاً عن تأدية وظيفة في العبادات والطقوس الطوطمية - وما سيليها من عبادات مختلفة - وكذلك في السحر والكهانة لحين الوصول إلى عمليات التحنيط، وكل ما هو مادي ونفعي ملموس بما في ذلك تقوية أواصر العلاقات في النواة المجتمعية (الوحدة الاجتماعية) قبل ظهور القبائل القوية، ثم القبائل المتحاربة مع ما رافقها من أسر وسبي كأساس أولي لنظام العبودية بشكله البدائي البسيط. أي أننا نتحدث عن وظائف نفعية يقوم بها الفن قبل أن يسود مجتمع الملكية الخاصة، مع ارتباط هذه الوظائف بالنمط الإنتاجي بشكله البدائي البسيط المتدرج من مجتمعات القطف والصيد إلى مجتمعات شبه زراعية، وبداية نشوء القرى والنواة الأساسية التي تدفع المجتمع إلى التطور، ثم نشوء المدن الصغيرة وما يرافقها من تطورات في البنية الاجتماعية وعلاقات الإنتاج.

وكلما اتجه المجتمع نحو إقامة علاقات تتصف بالملكية الخاصة سيتغير وضع الفن ويوظف بما يلائم طبيعة التغيير في نمط الإنتاج، وبالتالي في العلاقات الاجتماعية؛ إذ يصير الرقص على سبيل المثال في حالة نشوء المعابد الكبيرة وهيمنة أسطورة الآلهة المتعددة وظاهرة (راقصات أو غانيات المعبد) هو غيره أثناء الطقوس البدائية الطوطمية في ظل نمط العيش المشاع، فضلاً عن حاجة الفنان الراقص للتعبير عن ذاته أكثر من التعبير عن الوحدة الاجتماعية ووحدة القبيلة. وكذا الحال فإن أغاني الصيادين والعاملين كفريق عمل واحد هي غير الأغاني في الكورال المسرحي أو الجنائزي أو الكنسي.. الخ.

ويمكن أن ينسحب مثل هذا المثل على وظائف أخرى للفنون مثل النحت والرسم والشعر والملاحم وغيرها من الفنون. أي أنّ كل تبدل في نمط وعلائق الإنتاج، وطبيعة الوحدات والعلاقات المجتمعية، سيتبعه تبدل في نوعية وظائف الفنون على اختلاف ضروبها.

من هذا المنطلق سادت الأشكال المطابقة للطبيعة ذات السمة الواقعية الكلاسيكية في الفنون لأطول فترات في التاريخ؛ لأن الحياة الاقتصادية في المجتمعات القديمة لم

تشهد ثورة جذرية عاصفة كما حصل عند نهوض وسيادة الطبقة البرجوازية التي أطلقت العنان للنزعة الفردية لتعبر عن ذاتها بالطريقة التي تريد؛ ما سبب ظهور مدارس مختلفة، منوعة ومتضاربة، في شتى ألوان الفنون والآداب ومجمل ما أطلق عليه ماركس والماركسيون اسم (البنية الفوقية).

ومن المهام الأساسية للفنون ليس التعبير عن الواقع فقط، بل محاولة الفنانين تغيير ذلك الواقع ومحاولة إعادة تشكيله من جديد ضمن الرؤية التي يطرحها الفنان عن طريق عملياته الإبداعية من جهة ومن خلال التزامه بقضايا عصره؛ ولذلك فإن أغلب الفنانين هم في الواقع سياسيون -وباستمرار تقريباً- ويقفون في صف اليسار والطبقات المسحوقة، ولعل في مفهوم المفكر الايطالي انطونيو غرامشي المتمثل بما أسماه بالمثقف العضوي خير تجسيد لهذه الحقيقة.

هل معنى هذا أن واحداً من أهم أدوار الفن وإحدى مهام الفنان المبدع والإنسان هو الخروج من ذاتيته، وحصن أناه، إلى أحضان ورؤى وهموم وإشكالات الناس الآخرين؟! هل الفن هو شكل من أشكال المرآة الملونة والمتغيّرة حسب تغيّر وتبدل الظروف والأماكن والأزمان، وحسب تبدل وتغيّر قوى وأنظمة الإنتاج والعلاقات الإنتاجية والبشرية؟! شكل من أشكال الحياة الواقعية ورغبة في تجاوزها لما هو أفضل؟!

ربما نعم؛ لأنّ الثقافة الماركسية تُركز على جوانب كهذه كونها مرتبطة بحياة الناس والمجتمع، وبشكل أدق ترتبط بالطبقة العاملة التي تريد لها مكاناً تحت وهج شمس التاريخ، تريد لها دوراً على نحو من الأنحاء، وتريد أن تشارك الفلاحين الذين لا يملكون غير قوة عملهم، وكذا الحال بالنسبة للكسبة والمعدمين والمهمشين والطامحين في سعيهم الدؤوب من أجل حياة أفضل.

هناك عشرات من الأسئلة التي يطرحها (أرنست فيشر899 –1972) حول وظيفة الفن في الفصل الأول من كتابه الذي يؤكد على (ضرورة الفن) في كل الأزمنة والأوقات. أسئلة قابلة للمناقشة والاختلاف، لكنها تظل ضمن الإطار والرؤية الماركسية لهذه القضية الجوهرية[2].

**تراكم الثروة وتطور الفنون والملاحم**

بعد التراكم الأولي للثروة العامة بيد حفنة من الحكام نتيجة لانتقال المجتمع من النمط الإنتاجي البدائي إلى النمط الأكثر تطوراً: الزراعة، وتدجين الحيوانات واستغلال مواردها، وظهور آلات زراعية بسيطة، وتنظيم الري وبناء السدود، وظهور التجارة وبعض الحرف اليدوية.. الخ. ونتيجة لوجود فائض عمل مُنتج بسيط ناجم عن بدايات استغلال تكوّن طبقة العبيد كأسرى حروب، فإن هذه الطبقة الجديدة قد كرست بعضاً من وقتها الفائض وثرواتها المتراكمة لتنمية وتطوير الفنون والآداب للتعبير عن عظمتها وهيمنتها اللامحدودة على شؤون الدنيا والدين والمجتمع في آن واحد!

من كل ذلك التراكم للثروة، وهيمنة السلطة ومركزيتها، تحققت معجزة الأهرامات الخالدة والجنائن المعلقة والمعابد والقصور والأعمال التكوينية الفنية الرائعة في كل من مصر وبابل، وغيرها من الأقطار والأمصار، وخلقت هذه الطبقة

حولها هالة من الأساطير الأدبية والفنية التي تمجدها في حياة الدنيا والحياة الأخرى اللاحقة على حدّ سواء. فعرف العالم لأول مرة شعر الملاحم الذي يستمد منابعه ومواده من حياة ومغامرات أولئك الحكام الأوتوقراطيين الكبار: كَلكَامش، الفرعون، الملك، أنصاف الآلهة. شعر الملاحم الذي سيغدو على مراحل وحقب التاريخ اللاحقة وسيلة بيد الشعراء للتكسب وحرفة ذات قيمة عالية حين تكون لصالح الشعب (والوطن)، وتهبط قيمتها كلما أصبحت لصالح الحكام الأوتوقراطيين والمستبدين. وهكذا تحولت بالتدريج قصور ومعابد الحكام إلى مسرح عظيم تُقام فيه الحفلات الرسمية والدينية، وترتل فيه الابتهالات والأناشيد مصحوبة بأصداء الموسيقى وبحركات الفنانين الممثلين[3].

بيد أن هذا الانعطاف التاريخي في حركة المجتمع والفن قد ترك أثره الكبير على شخصية الفنان ومنزلته الاجتماعية. فكلما اقتربنا من المراحل التاريخية اللاحقة نجد أن شأن الفنان قلّ واضمحل إلى درجة التلاشي؛ فحيثما تقوى قبضة السلطة الطبقية الحاكمة يتحول الفن إلى أداة وسلعة معروضة للبيع (الطلب والاستهلاك) وتستمد قوة عمل الفنان قيمتها عن طريق مقياس نقدي (كذا!!). ولذا فإن الفنان في العصر العبودي (حكم الأسرات المصرية على وجه الخصوص) أصبح من نكرات المجتمع، وكانت تأتي مكانته أدنى بكثير من مكانة الكاتب الرسمي أو مجرد العامل في الحقول -كما لاحظ كل من فنكلشتين وهاوزر- ولا تظهر شخصيته بعمله الفني أبداً؛ وذلك نتيجة لانقسام المجتمع طبقياً من جهة، وانقسام العمل الإنساني إلى يدوي وفكري واحتقار الطبقات الغنية للعمل اليدوي من جهة ثانية. إضافة إلى رغبة رؤساء الهرم السلطوي في توظيف كل شيء لصالحهم الخاص، وبمعنى أدق تحويل مُنتَج الفنان إلى مجرد شيء لصالح الحاكم المستبد.

**فن الحضارة وحضارة الفن**

أما في العصر الإغريقي، الذي يمكن عدّه حديثاً بالنسبة للعصور الموغلة في القِدم، فقد أدى التراكم الأولي للثروة الاجتماعية نتيجة فائض العمل الناجم عن سخرة العبيد وتنامي التجارة وظهور مكننة بسيطة في الميدان الزراعي خاصة وزيادة الأعمال الحرفية، وتقسيم العمل، وظهور حالة التخصص في التنظيمات الإدارية والفكرية، وسيادة الجو شبه الديمقراطي آنذاك.. الخ، أدى كل ذلك إلى تطور زاهر في الحضارة عامة والآداب والفنون خاصة، وأتاح للفرد إمكانات جديدة للتطور والإبداع الخلاق. فعرف التاريخ للمرة الأولى مثلاً الملاحم الهومرية في الشعر، كما عرف تراجيديا (أسخيلوس) العظيمة، وكوميديا (لوسين) الساخرة، وتماثيل (فيداس) الرائعة، وأفكار (سقراط)، أرسطو، أفلاطون... الخ.

وقد عَبّرَ الفن الإغريقي عن " ذلك الطابع البدائي للمجتمع" الذي ترعرع فيه هذا الفن، فكانت مواده الأولية هي الميثولوجيا والأساطير اليونانية التي تحاول أن تسيطر على الطبيعة وتخضع قواها العاتية في الوهم، بإعادة صياغة الواقع خيالياً.. ولذلك فإن الفن الإغريقي قد استغل الصياغة اللاشعورية للطبيعة وللأشكال الاجتماعية

نفسها من زاوية الخيال الشعبي، على حد تعبير ماركس(4). حيث أطلق خيال الإنسان أطلاقاً كليّاً نحو المجهول ونحو صياغة بناء الواقع وما ينبغي أن يكون عليه ميثولوجياً.

ولذلك فقد تحول الأبطال الأسطوريون، الذين هم غالباً ما يكونون ملوكاً ونبلاء ارستقراطيين، مثل أجاممنون، هرقل، أخيل، يولسيس ..الخ، إلى آلهة أو أبناء آلهة، وهذه الأخيرة بدورها قد أصبحت أكثر التصاقاً بالإنسان وقبولاً لمواصفاته العامة، فهي تنزل على الأرض وتتجسد بكيان بشري، وتمارس الفعاليات والعواطف الإنسانية كالحب والبغض والخيانة والإغواء والانتقام ..الخ.

إنّ هذا الجو الأسطوري الساحر الخلاب هو الذي بث في روح الفن الإغريقي كل هذه المتعة الحسية والذهنية الخصبة التي نعيشها في لحظات مشاهدتنا أو قراءتنا لآياته الفاخرة العظيمة. وغالباً ما تُمارس طفولة الإنسان التاريخية سحرها على أرواحنا فتعترينا الرغبة الجامحة في العودة إلى ذلك الفردوس المفقود، إلى تلك الفترة التي بلغت فيها الإنسانية "أوج تفتحها"، لاسيّما أن تلك الفترة التاريخية لم تصل إلى مرحلة تطورنا الاقتصادي والحضاري الراهن. وهذا هو سرّ عظمة وشموخ ذلك الصرح الفني العظيم في المرحلة الإغريقية الزاهرة، والذي هو بمنزلة نتاج للطابع البدائي للمجتمع أو "نتاج الشروط الاجتماعية التي لم تنضج نضجاً كافياً، والتي ولد فيها هذا الفن، والتي فيها فقط كان يمكن أن يولد" كما عبّر ماركس وأوضح هذا الأمر في الصفحات الأخيرة من كتابه (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي).

**الفن مصدر للمتعة الجمالية**

في قراءة ثانية وجديدة لكتاب (ضرورة الفن) وجدنا أن (فيشر) يعيد النتائج التي كان قد توصّل إليها كُتّاب ماركسيون من أمثال طومسن و فريفل، مرتكزاً على النص الذي ورد في نهاية كتاب ماركس (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي)، ونستعير هذا النص كاملاً من كتاب (ضرورة الفن) قبل مناقشة أفكار فيشر حول الفن الإغريقي:

"ليست هناك صعوبة في إدراك أن الفن الإغريقي والملاحم إنما ترتبط بأشكال محددة من أشكال التطور الاجتماعي. ولكن الصعب حقاً هو تحديد السبب الذي يجعل من ذلك الفن مصدراً للمتعة الجمالية حتى اليوم، بل ويجعله من بعض الوجوه معياراً ونموذجاً يصعب الوصول إليه ... لماذا لا يكون للطفولة الاجتماعية للإنسانية، الطفولة التي حققت فيها أجمل تطوراتها، سحرها الخالد بوصفها عصراً مضى ولن يعود؟ هناك أطفال يسبقون عمرهم وأطفال يتأخرون عنه. وكثير من الشعوب القديمة تنتمي إلى الطائفة الأولى. أما الإغريق فكانوا أطفالاً أسوياء. وسحر فنهم لا يتعارض مع الطابع البدائي للنظام الاجتماعي الذي نشأ منه هذا الفن، بل هو بالأحرى نتيجة له وراجع إلى أن الظروف الاجتماعية غير الناضجة التي نشأ في ظلها -ولم يكن يمكن أن ينشأ إلا في ظلها – هذه الظروف لا يمكن أن تعود "[2].

وعلى الرغم من أن فيشر يشك في حقيقة أن الإغريق القدامى يمكن أن يُعتبروا "أطفالاً أسوياء" إذا ما قورّنوا بالشعوب الأخرى، مستنداً إلى الكشوفات الأركيولوجية والأتنولوجية والثقافية،

لكنه في التحليل الأخير يقول إن الشيء الجوهري الذي أضافه ماركس أنه رأى في الفن الذي أنتجه مجتمع من المجتمعات، في مرحلة مختلفة من مراحل تطوره " لحظة من لحظات الإنسانية "، وأدرك أنه في هذا يكمن سرّ قدرته على التأثير في فترات أبعد من اللحظة التاريخية التي نشأ فيها، وبذلك كان له سحره الدائم ..."[2].

بالطبع لم يكن ماركس غير عالم من علماء الاقتصاد وصاحب نظرية إنسانية اشتراكية تحاول تفسير التاريخ، وتستنبط القوانين الاقتصادية والاجتماعية لصنع مستقبل البشرية. وحسب ما ذكره معظم كُتّابْ سيرته فإنه كان يقرأ الأدب ويهتم بالفن عندما ينتهي من عمله الأساس الذي يُفرّغْ له معظم وقته، وكامل طاقته، ولم يسع من كتاباته وتعليقاته ذات الطابع الفني والأدبي إلى صياغة نظرية محددة في هذا الشأن، كما هو الحال في علم الاقتصاد والتاريخ والسياسة والمجتمع وآفاق المستقبل. غير أن النص الذي تساءل فيه ماركس عن السرّ وراء انبهارنا وإعادة قراءتنا واهتمامنا بالنِتاج الإغريقي ما يزال مطروحاً حتى هذه اللحظة؛ لأنه يحمل دلالة نفسية تتوقف عند ما يمكن أن نسميه اليوم رغبة الإنسان في الاحتفاظ بالجانب الطفولي من روحه، أو بالعودة إلى الجانب الإيجابي من (الفردوس المفقود)، لاسيّما أن مرور الزمن يُنسيه المصاعب والآلام التي يمكن أن يكون قد مرّ بها في ماضيه، فلا يتبقى غير الطعم الحلو من ذلك الماضي. بل إن بعض علماء النفس يُغّالون في التعبير عن رغبة الكثير من الناس في العودة إلى الحضن الأمومي الدافئ الرحيم، حتى وإن كبروا وصاروا خبراءً في الحياة!

من هذا المنطق علينا أن نفهم التصوّر الماركسي الصحيح والسليم للعلاقة بين نمط الإنتاج وقوى وعلاقات الإنتاج، وإن هذه العلاقة ليست ميكانيكية ومادية محضة؛ ولذلك فقد أشار ماركس إلى وجود حالات اختلال يمكن أن ينشأ ما بين البنية التحتية والفوقية في بعض مراحل التاريخ. وهذا ما يفسر تساؤل ماركس عن السر وراء متعة نلمسها اليوم من " فن وأدب " كانا مقياساً ونموذجاً طيباً رغم كل التحولات المادية التاريخية، واختلاف العصور. ولعل هذا الفهم الصحيح للرؤية الماركسية يمكنه أن يلغي كل النقودات والآراء السلبية التي قيلت في الماركسية، لأسباب سياسية وطبقية.

**هوليود والحكايات الاغريقية**

اليوم، ومن هذا المنطلق، تستطيع صناعة السينما الهوليودية أن تسحر الملايين من البشر -ولا أشط وأقول المليارات- بإعادة إنتاجها وإعادة صياغتها لأفلام تنهل من الأدب والفن الإغريقيين، وخاصة حكايات (هوميروس). وكلنا يعلم كم هو عالم سحري أن تنزل فيه الآلهة من جبل الأولمبياد لتصفّ مع أناسٍ ضدّ أناس، وتعمل المقالب، أو أن تغار وتحقد وتحسّد، وتأخذ كامل الصفات الإنسانية – ناهيك عن قصص آلهات الحب والغرام والصبايا الحسان من أمثال (هيلين) وعشقها لباريس أحد أبطال مدينة طروادة، المدينة التي اقتحمت بطريقة أسطورية ساحرة ماكرة؟!

وقبل أن تُخلق ما يسمى الواقعية السحرية أو الغرائبية، في أدب أمريكا اللاتينية -قبل ماركيز وإيزابيل أللليندي- وقبل أن يتسابق

الناشرون لنشر كتب (باولو كويهلو) بوصفه مبدع رواية (الخيميائي)، التي هي شكل من أشكال الرؤية الفلسفية للعالم والحياة عن طريق عين طفولية. قبل كل هذا كانت (ألف ليلة وليلة) الشهيرة. وقبل أن نُعجّبْ بقصة تشيخوف (كآبة)؛ لأنّ بطلها الحوذي لم يجد غير حصانه ليبوح له بآلامه، ثم يقلده (جنكيز أيتماتوف) في رواية (وداعاً يا غولساري)، فإنّ الكثير من أدب الشعوب قد أنسن الحيوانات وجعلها تتكلم بلسان البشر كما فعل (ابن المقفع) في (كليلة ودمنة)، وكما أبدع لنا لاحقاً (هانز أندرسن) قصصه البديعة الرائعة، ثم (سانت أوكزوبري) في (الأمير الصغير) المدهش!

وقد مرّ عليّ يوماً كلام (ماركيز) في أحد لقاءاته مع الصحفيين حين قال ما معناه إنّ سرّ الواقعية السحرية موجود في طبيعة رؤية الشرقيين لأمور الحياة، بما فيهم الناس في أمريكا اللاتينية؛ أي أن حياتهم مزدوجة ويتعايش فيها الواقع مع الخيال بشكل سلس وطبيعي.

هذا هو الجانب النفسي في الإنسان، الذي لا يمكن أن يخضع لقوانين اقتصادية أو اجتماعية محضة. ولأن جوهر الماركسية يكمن في رؤيتها الديالكتيكية لتغيير الواقع وتحوله من حالٍ إلى حال، وإمكانية تحوله؛ بل وجوب تغييره، فإنها لا تؤمن بما هو مطلق وثابت ومقدس، وتتيح لمفكريها الاجتهاد والتأمل والرفض والذهاب إلى أبعد من (واقعية بلا ضفاف).

إن روائع الفن والأدب الإغريقي كانت تعبر، على نحو من الأنحاء، عن الأمن الجماعي في الوحدات الاجتماعية شبه المتجانسة من الناحية الاقتصادية قبل ظهور التناقضات الطبقية الحادة في المجتمع العبودي لاحقاً. أي هي جزء من استقرار المجتمع قبل تحوله إلى مجتمع طبقي؛ ولذلك سيظل حنين الفنان إلى الماضي (العصر الذهبي-الفردوس المفقود-وحدة الجماعة) مُستعراً وقوياً حتى الساعة على الرغم من تبدل ذلك الحنين إلى ما يشبه القضية الفردية في الحنين إلى الرحم الأمومي الدافئ، إلى حالة السكون المطلق- بل ربما سيدفع هذا الأمر لأن يستخدم الفنان المأزوم المخدرات لعدم قدرته على مواجهة ضغوطات الواقع المرة والمريرة!

هل معنى هذا أن الأدب والفن - بالمعنى الذهبي- يتجسدان حصراً في عهد الإغريق، أو في الفن والأدب الإغريقيين فقط، كما تمسك بعض المثقفين والمفسرين والشُّرّاح العرب بنظرية الشعر التقليدي الموزون (ذو التفعيلة) بأعلام وانجازات الشعراء الأوّل من العرب، ولم يقبلوا بالتجديد والتحديث؟!

لابد أنّ في دواخل معظم الناس رغبة عميقة للمحافظة وعدم التغيير، كما توجد الرغبة الثورية التجاوزية غير التقليدية عند بعضهم الآخر من الناس حتى وإن كانوا قلّة. وإذا كانت المصادر التي استند عليها الكاتب الاشتراكي (محمد مفيد الشوباشي) صحيحة وسليمة يكون الفيلسوف الألماني (هيغل) قد زعم إن العصر الذهبي للأدب انقضى بانقضاء عهد الإغريق، وإن الفن لم يعد يشبع حاجات الروح التي حاولت الشعوب القديمة تحقيقها، ووجدت بغيتها في رحابه، حيث أدى الفن الإغريقي رسالته في عصره السعيد؛ وبالتالي يرى (هيغل) بأنّ الفن كان شيئاً متعلقاً في نظره بالماضي. ويضيف

الكاتب (محمد مفيد الشوباشي) إلى سطوره ما يلي:" يبدو أن مذهب (عمانوئيل كانت) الجمالي هو الذي أشعل إعجاب هيجل بالأدب والفن الإغريقيين، وجعله يبيّن رأيه فيهما على أساس اتصافهما بالصفات الأربع التي اشترط (عمانؤيل كانت) توفرها في الجمال الخالد، وهي بعده عن أي غرض أو هدف، وعالميته وخلوده واستئثاره بالرضا التام العام"[5].

بالطبع إن الأدب والفن كإبداع بشري لا يمكن أن يكونا قوالب خالدة أو مقدسات لا يمكن تجاوزهما، مهما ارتقيا أو صعدا إلى سماء المجد والخلود والعظمة؛ لأنهما -مثلهما مثل أي نشاط بشري- لا يعبران إلاّ عن مرحلة تاريخية محددة، ولا يجسدان غير طابع النظام الاجتماعي الذي أتاح لهما الظهور والتداول والنجاح. وبهذا المعنى فإنّ مجرى نهر الحياة دافق بألوان التجديد والتغيير في كل مناحي الإبداع الإنساني، ولابد من تجاوز نظريات بالية كهذه حتى وإن وجد بين ظهرانينا من يروّج لها ويتساوق معها بلغة عصرية مخاتلة خدّاعة!

**الفرق بين "السحر" وما هما ساحر أو سحري**

ولأن الأمر مهم في طريقة تناولنا لقضية السحر كتكنولوجيا بدائية أو إجراء عملي لتحقيق أهداف روحية وذهنية يؤمن بها الإنسان، حتى وإن كانت أسطورية الطابع، فإنني أعيد التأكيد على الفارق الكبير بين السحر كفعل وعمل (الشخص الساحر) وما درج عليه الكثير من الكُتّاب ونقاد الفن والأدب في وصف كل ما هو جميل بالساحر والسحري؛ ولنا اليوم في مصطلح "الواقعية السحرية " خير دليل على هذا الخلط أو الخطأ الشائع كما يقال. إذ أن المصطلح الدقيق لمثل هذه الأعمال السردية البديعة هو "الواقعية الغرائبية" وليس الواقعية السحرية كما هو شائع؛ لأن المصطلح غير دقيق ليس بسبب التناقض بين مفهوم " الواقعية " ومفهوم " السحريّة " فقط، بل لأنّ العناصر الأخرى المكونة للجانب غير الواقعي في مجمل هذه السرديات يشكل كتلة عظيمة في جوهر البنية السردية. فعلى الرغم من وجود الجانب الواقعي بقوة في هذه السرديات، غير أن جانب الخيال والغرائبية الذي يميّز هذا الجنس الروائي ويعطيه سمات تجعله مختلفاً عن بقية الإبداعات السردية هو الأعظم والأهم أو ما يمكن تسميته بالعنصر الفعّال والغالب.

إذن، تمثل هذه الطريقة أو الأسلوب في الكتابة -أو ما يمكن تسميته مجازاً بالأداة الأدبية- خليطاً غير متجانس من الواقع (خاصة الجانب السوسيولوجي والتاريخي من المفهوم) ومن الخيال والأحلام والخرافات والأساطير الشعبية والفولكلور وبعض أساليب الفن البدائي، وكذلك عناصر الدهشة والإبهار وغرائب الأمور التي ذكرها (غابرييل غارسيا ماركيز) في رواية (مئة عام من العزلة) أو غيرها من أعماله السردية، وهذا ما ينطبق أيضاً على حكايات (إيزابيل أللندي) في بيت الأشباح وسواها من أعمال سردية. وكل ما هو مؤثر في النفس البشرية، إلى الدرجة التي تمتد بها هذه الطريقة إلى جذور من الرومانسية والرغبة في استعادة ماضٍ زائل لا يمكن أن يُستعاد، أو الفردوس المفقود الذي يحيلنا إلى

ما كان يُعرّف بالوحدة الاجتماعية المتطابقة مع الطبيعة. مع استعارات من السريالية -في الفنون التشكيلية خاصة -، بل إنّ تجمع عناصر ووحدات هذه التعددية في المنابع والمصادر التي تستقي منها هذه الأداة الأسلوبية تعطيها طابع الشعرية بالمعنى الحديث للمصطلح؛ ولذلك فربما اختار نحاتو المصطلح الأوائل والمترجمون صفة "السحرية" بالمعنى المجازي الذي يدل على ما هو بديع وخلاب وساحر وممتع وليس بالمعنى الدقيق لكلمة "سحر" الذي هو عالم إجرائي قائم بذاته كما أوضحنا في ثنايا بحثنا هذا، خاصة عندما تناولنا بالدراسة موضوع اهتمام ماركس بالجانب الطفولي والسحري في آداب وفنون الإغريق القدماء ومنهم (هوميروس) على وجه التحديد.

وعلى الرغم من أن هذه الأسلوبية "الغرائبية" ظهرت في أعمال سردية كثيرة وتنقلت ما بين كُتّاب اسبان وكتاب يكتبون بالإسبانية (أدباء أمريكا اللاتينية خاصة)، حتى وصلت أصداؤها إلى جميع السرديات العالمية، وقلّدها كُتّاب عرب ..الخ، فإنها أصبحت "حقاً طابعاً شخصيّاً، لشخص واحد هو غابرييل غارسيا ماركيز" كما عَبّرَ عن هذا الأمر (وندي بي فارس)[6].

*** كاتب عراقي مستقل مقيم في سورية**

**المصادر:**


1 - هِرْمَن هِيسّه: لعبة الكريات الزجاجية ( ص 429 ) – ترجمة وتقديم د. مصطفى ماهر / دار الكاتب العربي – القاهرة 1969م.

2 - أرنست فيشر ، ضرورة الفن – طبعة اتحاد الكُتّاب العرب في دمشق – كتاب الجيب الشهري رقم ( 109 ) في عام 2016 – ترجمة أسعد حليم، وهي طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ذاتها الصادرة في عام 1971م، وستكون اقتباساتنا اللاحقة جميعها من هذه الطبعة.

3 - سدني فنكلشتين: الواقعية في الفن - ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد.

4 - جون فريفل: الأدب والفن في ضوء الواقعية الاشتراكية – ترجمة محمد مفيد الشوباشي / دار الفكر العربي – مصر.

5 - محمد مفيد الشوباشي: الأدب الثوري عبر التاريخ ( صفحة 60)– طبعة اتحاد الكتاب العرب في دمشق – كانون الأول 2014 / سلسلة كتاب الجيب، هدية مع مجلة الموقف الأدبي.

6 - مجلة آفاق أدبية: مقالة (وندي بي فارس)،مقالة النقد الثقافي للواقعية السحرية، ترجمة فضيلة يزل، العدد الثالث، بغداد 2014م

# (حانة الحكمة)
# كولاج تأويل مدونات أدب العراق القديم

علي شبيب ورد

**منطلق:**

يحتل الأدب مكانة الصدارة في قائمة مصادر الباحثين، في سعيهم لمعرفة مقومات وخصائص حضارة بلاد ما بين النهرين، كونه يكشف للباحث، عن أهم ملامح أفكارها وتصوراتها عن الوجود والحياة والكون. والنصوص الأدبية السومرية وسواها من المدونات "وضعت في متناول أيدي الباحثين المادة الأولى في درسهم لهذه الحضارة والوقوف على عوامل نموها وتطورها وانحلالها على ضوء الأسس والاتجاهات العقلية والفكرية التي قامت فوقها"[1].

إنّ أدب العراق القديم، يمكن حصره بنوعين هما:

أولا: مدونات تتضمن الشعر، وتشمل: أصل الخليقة والوجود/ ملاحم الأبطال والملوك والآلهة/ الطوفان وأساطير ما بعد الموت/ المفاخرة والمناظرة والحوار/ أدب الحب والغزل/ أدب الرثاء/ أدب السخرية وقصص الحيوان/ أدب الصلوات والتراتيل والترانيم والابتهالات والأدعية/ بعض الرقى والتعاويذ/ وغيرها.

ثانيا: مدونات نثرية، وتشمل: الحوادث/ الرسائل/ أعمال الملوك/ الحملات الحربية/ الشرائع/ الحِكَم/ الامثال/ المواعظ/ وسواها.

ويتشكل اجراؤنا الفاحص لادب العراق

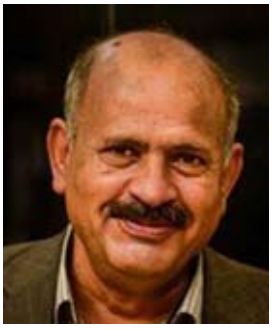

القديم، من ثلاثة كولاجات تأويل، ونتائج الاجراء الفاحص، وملحق تأويل. وكما يلي:

عينات نصّية متفرقة/ كولاج تأويل أول:-

في عينة نص أسطورة خلق الانسان، نَقرأ حوارا بين الإلهة (نامو) البحر الاول، وابنها إله الماء والحكمة (أنكي) يدور حول ضرورة خلق خدمٍ للآلهة، بعد أن ايقظته من نوم عميق. ويتوصّلان الى خلق الانسان من الطِّين وتقدير مصيره، بتعاون بعض الآلهة. وهذه الأسطورةٍ تعتبر من اهم الاساطير كونها شكلت بدايةً لسفر الخليقة على الارض، ونجد قصصا شبيهة لها في أساطير وقصص الأديان التي تعاقبت بعد الديانة السومرية.

"انهض يا بني من فراشك، من ..... واعمل ما هو حكيم

اخلق خدما للآلهة لعلهم ينتجون لهم ال ....."

ويتفكر (أنكي) في هذا الأمر ويخلق للآلهة من يقوم بأدوارهم ويخاطب أمه (نامو - البحر الأول) قائلا:

"إنَّ المخلوقَ الذي لفظتِ اسمه قد جاء الى الوجود

أوثقيه بـ ..... الآلهة.

امزجي لبَّ الطين الموجود في أعلى المياه التي لا يسبر غورها

الصُّناع المهرةُ، سيجعلون الطينَ مختمرا

وانتِ عليكِ أن تخلقي له الأعضاء

< ننماخ> إلهة أم الأرض ستعمل من فوقك

< آلهة الولادة > ستقف الى جانبك حين تخلقين

أمّاه! قدّري مصير المولود الجديد

< ننماخ > ستربط به ..... للآلهة كإنسان"[2].

- العينة المأخوذة من نص المناظرة، بين الفلاح <ايمش> والراعي <اينتين> فتبين لنا أن الأخوين يتنافسان ويختلفان حول دور وأهمية كل واحد منهما في الحياة والوجود، ويستعرضان قدراتهما وطاقاتهما أمام الإله أنليل، الذي يحسم الأمر بما هو مقدر من الآلهة، وما عليهما سوى الانصياع لذلك، بقوله:

"المياه المنتجة للحياة في جميع البلاد- (اينتين) هو الموكّل بها، إنه فلاّح الآلهة الذي ينتج كل شيء، فيا بني (ايمش) كيف ساغ لك أن تقارن نفسك بأخيك (اينتين)! بعدها انحنى (ايمش) لأخيه وصلّى له"[4].

- بينما في العينة المختارة من نص رثاء مدينة أور، بعد أن جرى تدميرها والقضاء على سلالتها الثالثة، من قبل العيلاميين والسوباريين والاموريين في (2002 ق. م). نلمس حالة الالم والحزن الذي تتضمنه كلمات المقطع الشعري المختار. كما أننا نجد فيه خطابا عاطفيا موجها لإثارة المشاعر لدى المتلقي له. وكذلك دعوة الجميع الى الوقوف مع المدينة المدمرة من قبل الاعداء، وفق فكر سلطوي شمولي يطلب من الكل القبول بالقضاء والقدر.

"رثاؤك مُرٌّ أليم أيتها المدينة

مدينة أور التي خُربتْ رثاؤها مرٌّ أليم

كم سيظل رثاؤك الاليم يُحزنُ سيدَكِ الباكي!

الربّ الذي دُمِّرَ بيته يشارك مدينته البكاء والندب

ناحت اور وشاركت الرثاء سيدها الذي خُرِّبَتْ بلادُهُ

وشاركته ننكال البكاءَ والنواحَ من أجلِ مدينتهِ"[4]

- في حين أن العينة المنتقاة من نص أيوب السومري، توضح لنا معاناة الانسان القديم جراء الحوادث والمجريات وتداعياتها في الحياة التي عاشها آنذاك. وهو في خطابه الموجه للآلهة، انما يطرح اسئلة عديدة حول المصير المؤلم الذي يواجهه، وهل من امل ممكن في قابل الايام للخلاص من هذا العذاب والحرمان؟ وها هو يرمي بأسئلته المشروعة:

"أنا الحكيم العاقل. لماذا أقيّد مع الأحداث الجهلة؟

أنا المدرك العاقل لماذا أحسب مع الجهال؟

الطعام وفير في كل مكان، ولكن طعامي الجوع.

في اليوم الذي قسّمت فيه الأنصبة،

كانت حصتي المخصصة لي، العذاب والألم)[5]

- تحيلنا عينة نص أغنية الحب والغزل

أدناه، الى أن الحب هو من أعظم المشاعر الانسانية، وهو فعل نبيل وكوني مارسه البشر منذ القدم، ومازال يمارس والى الأبد. وهو يقارب بين البشر على اختلاف انتماءاتهم وألوانهم وشتى أعراقهم، وهو معادل انساني للبغضاء والكراهية. وتكشف هذه العينة، أن العشق والهيام وصولا للغزل والاتصال بين الجنسي، هو ممارسة وجدانية أبدية بين الكائنات، من أجل الخصب والنماء، لدوام الحياة والتطور عبر الزمن.

"يا إلهي.. إن ساقية الخمر، شرابها حلو،
ومثل خمرتها، فرجها حلو، إن شرابها حلو،
ومثل رضاب شفتيها، حلو فرجها، حلو شرابها،
شرابها الممزوج حلو، شرابها حلو"[6]

- الفحص المتأمل للعينة المأخوذة من نص ترنيمة الفأس أدناه، يفضي الى أهمية الفأس في الحياة السومرية، كونها أداة بناء وازدهار من جهة، وأداة هدم وقمع واضطهاد من جهة ثانية. وهي رمز للحياة المستقرة حيث فائدتها لفتح قنوات المياه والحرث، وكذلك فهي اداة بناء تعمر البيت وازدهار المدن. من هنا نجد أنها تذكر في الكثير من الترانيم والتراتيل والادعية، وباقي النصوص في العالم القديم.

"الفأس والسلة تبني المدن
الدار الثابتة الأركان بنتها الفأس،
الدار الثابتة الأركان أنشأتها الفأس،
الدار الثابتة الأركان هي التي سببت الازدهار
الدار التي ثارت ضد الملك
الدار التي لا تستسلم لملكها
الفأس يجعلها تستسلم للملك
للرديء.... النباتات تحطم الرأس
تجتثّ الجذور تسقط على التاج
الفأس تطعن..... النباتات
الفأس قرر مصيرها الأب أنليل،
المجدُ للفأس"[7]

- لقد وفرت لنا عينة نص رسالة القرد الى أمه، فرصة التعرف على نموذج من الأدب السومري الساخر، وهي في الحقيقة رسالة انسان جائع ومظلوم الى أمه، غير أن الكاتب المدون، سردها على لسان قرد. فمنحها بعدا ساخرا ومثيرا للاهتمام، وكذلك بعدا تهكميا من الواقع الاجتماعي المرير الذي تعيشه عامة الناس، وكيف لا وهو يتلظون بلهيب جحيم نظام عبودي قائم على احتكار السلطتين السماوية والأرضية، من قبل طاغية دكتاتوري غاشم.

"الى أمي (لودي لودي) قل: هكذا يقول (أوكو_ دل- بي):
إنَّ (أور) مدينة البهجة والمسرات و (أريدو) مدينة الرخاء،
ولكنني مع ذلك أجلس وراء باب قاعة الموسيق آكل الفضلات،
فعساني ألاّ أهلك من الجوع. لمْ أذق طعمَ الخبز والجعة،
فابعثي الي برسولٍ منكِ على عجل"[8]

حول ملحمة كلكامش/ كولاج تأويل ثانٍ:

- العينة من نص ملحمة كلكامش أدناه، تكشف لنا جبروت شخصية كلكامش، كدكتاتورٍ ظالمٍ يبطش بالرجال والنساء، وسعى لخلقٍ مجدٍه الشخصي عبر الحروب. وقد أحال حياة الناس الى جحيم عبر عسكرة المجتمع، وقمع الحريات، وفرض سلطته بالقوة ولباس الدين، كونه يعتبر نفسه ممثلا للآلهة في الأرض.

"... هيئة جسمه لا نظير لها

وفتك سلاحه لا يصده شيء
وعلى ضربات الطبل تستيقظ رعيته
لازَمَ أبطالُ أوروك حجراتهم متذمرين شاكين:
لم يترك كلكامش ابنا لأبيه ولم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار..“[9]
- في العينة المنتقاة عن سدوري وكلكامش، نلاحظ أن سدوري صاحبة الحانة، بعد أن رأت كلكامش وهو بحالة من الوهن والضعف والتعب، وبهيئة يرثى لها، بادرته بالسؤال عن مسعاه، وهي مستغربة من وجوده امامها. وبعد أن عرفت منه سبب وصوله الى هذا الحال، بادرته بالنصح والموعظة والرأي السديد. وهي بهذا تكشف عن رجاحة عقل ومعرفة ونضج تجربة في الحياة، وتبين أنها امرأة حكيمة عارفة باسرار الحياة وكنه الوجود والعدم. وموقفها هذا مازال راجحا ومقبولا ولم يتمكن الزمن من البت ببطلانه واثبات عدم صحّته، لأن لغز الموت مازال مرعبا للإنسانية، ومحيرا للعلماء والفلاسفة والمفكرين.
”الى أين تسعى يا كلكامش؟
إن الحياة التي تبغي لن تجد،
إذْ لمّا خلقت الآلهة البشرَ قدّرت الموتَ على البشرية واستأثرتْ هي بالحياة.
أمّا أنت يا كلكامش فاجعل كرشكَ مملوءا
وكن فرحا مبتهجا ليلَ نهار،
وأقمْ الأفراحَ في كل يوم من أيامك،
وارقص والعب ليلِ نهارً،
واجعل ثيابك نظيفةً زاهية،
واغسل رأسَكَ واستحم في الماء،
ودلّل الطفلَ الذي يمسك بيدك،
وافرِحْ الزوجةَ التي بين أحضانك،
وهذا هو نصيب البشر.. “[10].

أهم مميزات النص السومري/ كولاج تأويل ثالث:
• الأدب القديم هو خير سجل لمعرفة ودراسة المجتمعات آنذاك، وعلى كل المستويات.
• هو أدبٌ ذو إرثٍ شفاهي، دوّن على ألواح الطينِ وبقي محفوظا.
• ظلّ أصيلا ولم تصلْه يد التحريف، كونه نقش على ألواح مدفونة عبر الزمن.
• تعرضت بعض النصوص للخرم جراء سوء الحفظ وتقادم الزمن.
• كثرة التكرار أو الاعادة، المثير للملل، والتكرار ربما حدث بسبب التدوين، بغية رأب الخلل الذي يحدثه الخرم في بعض الالواح. أو لمتطلبات الانشاد.
• استباق الحوادث ونهايات الحكايات، لأنها دونت وفق خطابٍ موجهٍ من قبلِ سلطة مركزية.
• التماثل بين بداية الحكاية ونهايتها، وفق مبدأ أن الانسانَ مجبرٌ وليس مخيرا.
• كثرة النَّسْخِ للقطع الأدبية الشهيرة، وذلك لتداول تلك القطع بين الأقوام المتعاقبة تطوريا.
نتائج الإجراء الفاحص:
• كان أدباء العراق القديم، يرون أنّهم ورثة ماض مجيد هو أشبه بعصر ذهبي يسوده الخير والسلام ”فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تنازع الانسان البقاء، وكان البشر بلسانٍ واحد يمجدون الاله أنليل، كما ورد ذلك في احدى الأساطير السومرية“[11].
• تدعونا أسطورة خلق الإنسان للقول: منذ بدء الخليقة ومنذ أول إنسان بدائي، طرح السؤال الوجودي الأول، من هو الخالق لهذا الكون؟ والذي يعني بالضرورة، من خلق

الانسان؟ وتراكمت الأجوبة في عقل الفرد ثم في المنظومة الثقافية للجماعة، بأن الخالق إما أله واحد أو عدة آلهة. وذلك عبر حركة التطور الاجتماعي، بتحولاته المتناوبة بين التعددية والتوحيد.

• أما نص المناظرة بين الصيف والشتاء، أو بين الإله الراعي (ايمش) والإله الفلاح (اينتين). فيحيلنا إلى فكرة الصراع المتواصل بين حياة الرعي والتنقل، وحياة الزراعة والاستقرار. وهذه الفكرة تتكرر في نصوص عدة، ومنها المناظرة بين الاله الراعي (دموزي) والإله الفلاح (انكميدو) في طلب يد الإلهة (إنانا).

• في نص رثاء أور، نواجه خطابا موجها من سلطة متحكمة بمقدرات الناس والبلاد، والتي تمرّست في الإفادة من المنظومة الدينية المتوارثة عبر الزمن. وهذا الخطاب يتسم بإيحائه العالي الى أن ما جرى هو قضاء وقدر، وعلى الجميع القبول به لكونه حدث بسبب غضب الآلهة.

• في نص أيوب، نلمس تذمرا بينا لدى أيوب، جراء العذاب اليومي المتواصل، وهو يطالب بالعدالة ورفع الحيف عنه، ويواجه الآلهة بأسئلة وجودية خطيرة. وكشف النص عن مدى الجور الذي طال الانسان البسيط، حيث المرض والجوع وحرمان الانسان من أبسط حقوقه، وتحكم الجهلة بمصيره ومصير البلاد.

• بينما في نص أغنية الحب والغزل، نجد وصفا جميلا لشراب الفتاة ساقية الخمر، من خلال مقارنة بين شرابها وفرجها، وبصيغة مثيرة وواخزة لمنظومة القيم الأخلاقية الآن. وكذلك بين الشراب ورضاب شفتيها، وهذا يحيلنا الى أهمية الجنس في الطقوس الدينية، لجدواه في إدامة الحياة الاجتماعية، وتواصل النسل البشري.

• في نص الفأس، نتعرف على الدور المهم الذي تلعبه الفأس كأداة للبناء والاعمار، وكذلك دورها كأداةٍ للهدم، ونلاحظ أيضا، أن النص مكتوب بأمر من الملك، لان النص يتضمن تهديدا وتحذيرا لكل من يحاول التمرد على الملك، ومن يحاول تخطي الثوابت والمسلمات المتوارثة والمتعارف عليها منذ القدم.

• في نص رسالة القرد، يتبين لنا الأسلوب الساخر الذي تبنته مخيلة السارد، الذي عرض نصه أمامنا على لسان قرد يتجاوز حدوده في التمني. اراد الكاتب أن يسخر ويتهكم، من الواقع الاجتماعي الذي كان يعيشه، ويدعو الى لفت الانظار الى ما تعانيه الطبقات المعدمة.

• في النص المختار من ملحمة كلكامش ادناه، تتكشف لنا شخصية كلكامش، كحاكم دكتاتور وكطاغية مارد لا يعرف سوى لغة القتل والدمار. كما انه عسكر المجتمع وحوله الى ما يشبه الثكنة، من خلال تحكمه بكل تفاصيل حياة الناس وحريتهم الشخصية، وبث الرعب بينهم، كي يظل مهيمنا على الدوام.

• إنّ حوار سدوري مع كلكامش الوارد في نص الملحمة، يحمل أكثر من دلالة، فهي تفوهت بنصيحة وموعظة، ساهمت في ارشاده، الى أن خلود الانسان يكمن في عمل الخير الذي يخلف له الذكرَ الطيب. ونود الاشارة هنا الى ما يلي: النصيحة الحكيمة خرجت على لسان امرأة، وليس على لسان رجل، كما أنها خرجت من حانة، وليس من معبد. وهذا ما كشف لنا عن مكانة المرأة

المرموقة آنذاك. بالمقارنة الى ما تعاني منه المرأة الآن. ويكشف لنا أيضا، أن مكانة الحانة كانت مرموقة آنذاك، قياسا بنظرة المجتمع لها الآن. لذا نتساءل: ما سبب ذلك؟ هل السبب في المرأة أم في المجتمع؟ لِمَ سادت النظرة المتدنية للحانة؟ مقابل نظرة التقديس للمعبد؟ من أين خرج الارهابيون؟ من الحانة، أم من المعبد؟

ملحق رؤيوي:

بعد ما مرّ أعلاه، نؤكد أن اسهامتنا هذه، تتصدى الى عينات نصوص، من أدب العراق القديم، وتحاول تأويلها، مع مراعاة أنها من انتاج المنظومة الفكرية والاجتماعية آنذاك. لذا فان أغلب هذه النصوص، دونت بأمر السلطات المتنفذة وعلى اختلاف أزمنة تدوينها. وأنها مثلت في الألواح بأزياء دينية، لتفرض شرعية وجودها وتأثيرها على مر السنين. وأن هذه النصوص جاءت منسجمة مع الانساق (الدينية/ السياسية) الفائتة والمتعاقبة. والفاحص الجاد والمتأمل، يلمس تأثير الديانة السومرية وثقافتها، على ما تلتها من ديانات وثقافات والى الآن.

وأن الكاتب السومري هو (ناصٌّ عليم) يدون نصوصه وفق مخيلة لم يغادرها تأثيرُ النسقِ الديني والسلطوي آنذاك. وبالتالي نرى، أنَ سدوري، هي شخصية مهمة، كونها لعبت دورا بيّنا في التأثير على مسار الأحداث، وكانت حقا ذات عقل راجح ومؤثرٍ على شخصية كلكامش المارد والمتسلِّط. وهيَ تمثل المرأةَ، بكل ما تملكه من أهمية وجودها الانساني في المجتمع القديم، سواء على مستوى الإخصاب المفضي لدوام النسل البشري، أم على مستوى رجاحة عقلها في التأثير على الرجل وامتصاص غضبه وجنونه.

إن سدوري هي صاحبة حانة المعرفة والحكمة، وحانة الدعوة لحياة الاستقرار

**الهوامش:**

1- (كتاب أدب العراق القديم) طه باقر/ دار الحرية للطباعة/ بغداد 1976/ ص5.
2- (كتاب الأساطير السومرية) صموئيل نوح كريمر/ جمعية المترجمين العراقيين/ بغداد 1971/ ص115.
3- (كتاب من ألواح سومر) صموئيل كريمر/ ترجمة طه باقر/ دار الوراق للطباعة والنشر/ بيروت 2010/ ص229 .
4- (كتاب أدب العراق القديم) ص214 .
5- (كتاب من ألواح سومر) ص211.
6- (كتاب من ألواح سومر) ص368.
7- (كتاب الأساطير السومرية) ص82.
8- (كتاب أدب العراق القديم) ص183.
9- (كتاب ملحمة كلكامش) ترجمة طه باقر/ دار الوراق للنشر/ عمّان 2006/ ص38.
10- (كتاب ملحمة كلكامش) ص79.
11- (كتاب أدب العراق القديم) ص35.

# التجارة والاستهلاك.. ومسألة الثقافة

ياسين طه حافظ

سأتحدث في مسألة ثقافية قصدَ التوسع في كشفها. ومسألة في التجارة والاستهلاك لعلاقتها بالأولى، وسأقرأ عليكم شريطاً صحفياً مما كشفه صحفيون شجعان فضحوا كيف تُشترى وكيف تُستلب ادمغة الشعوب وعقول نخبها على التعيين. واخطر ما يدعونا لنشر ما كان هو أن تعرف اوساط الناس ماذا وراء ما يُعلن وماذا وراء ما يقال ...

بالنسبة للثقافية، فما بين الثلاثينيات والستينيات، كان الرسم الحديث وحركات التجديد في الشعر والراوية ضمن حيوية اليسار الامريكي، المؤسسة الأمريكية، أو الرسميين الأمريكان، كانت تزدري هكذا رسوم وهكذا كتابات. ثم انتبهوا إلى أن أولئك الفنانين والكتاب لهم جماهيرهم، وكتاباتهم ولوحاتهم تبشر بفكر لا يرضيهم ويسهمون اسهاماً واضحاً في منح اليسار حضوراً شعبياً واسعاً وأهمية ثقافية. هم يمتلكون ويوظفون مزايا الثقافة الجديدة والحداثة في الفنون.

هذا الادراك بدأ واضحاً في 1947 واستمر مما نبه الرسميين الثقافيين في الحكومة الأمريكية إلى ضرورة عمل ضخم ومهم لايقاف ربح الخصوم وايقاف تقدم اليسار فلا يتقدم. بل ان يطرح اسلحته. فصار القرار الرسمي بتأسيس المتحف الوطني ليستقبل، بعد أن كانوا يزدرون، ضمن ما يستقبل الرسامين الحداثويين والواقعيين اليساريين والتجريبيين، فهم في هذا المتحف، الرسمي،

يعرضون لوحاتهم مجاناً وتتاح لهم فرص اكثر لبيع لوحاتهم وباثمان أفضل. تلك كانت خطوة أولى وكانت مهمة. الخطوة الثانية كانت الشروع بتأسيس فرع "امريكي" من المنظمة الدولية لحرية الثقافة باسم اللجنة الأمريكية للثقافة والتي أعلن عن اكتمال انشائها في 1951 وكان سيدني هوك الذي يعمل مع C.I.A كمستشار متعاقد، يعمل ويديرها بحماسة. المدير التنفيذي ارتنج كريستول – الذي حلّ محله من بعد وصول ستالين وجاء تعيينه مباشرة من هيئة استعلامات الولايات المتحدة – وقد كان يعمل في وحدة خاصة بالتحليلات الايديولويجة.

واضح من اسم هذه اللجنة ان كلمة حرية – في الاسم- عدائية باعتبار غياب الحرية في الاتحاد السوفيتي.. المهم ان مبالغ طائلة وضعت في خدمة هذه المنظمة اسهم فيها كل من C.I.A والملياردير جنكي وتبرعات هوليوود والخارجية الامريكية ومؤسسة

فارفيلد. وكان اللولب وسكرتير المنظمة هو الامريكي روسي الاصل نابوكوف وهو المعتمد الأول في التفاهم مع الشعراء والكتاب ومع الموسيقيين لأنه كان روائياً وموسيقياً.
كانت مراكز قيادة معاداة الستالينية الاحترافية هي: اللجنة الامريكية لحرية الثقافة والمجلات، التي محرروها اعضاء في مجالس ادارتها هي تحديدا Commentary, New Leader, Partisan Review رئيس تحريرها إليون كوهن مستشار مؤسسة لوس للمطبوعات الخاصة بالشيوعية والشديدة العداء.
وللإيضاح أقول حينما أوشكت الأخيرة، البارتيزان على التوقف، كتب سيدني التماساً إلى هولند سارجنت، مساعد وزير المالية في 10 أكتوبر 1952، يدافع عن تاريخ بارتيزان رفيو كمنبر مؤثر لمحاربة الايديولوجية الشيوعية في الخارج وبخاصة بين المثقفين. معنى ذلك أن تلك لم تكن سياسة طارئة.
لاسكي يقول ما نصه:
إن مادة الحرب الباردة ثقافية. وهناك كان يكمن أعداء السياسة الخارجية الأمريكية، الذين استغلوا الثغرة في البرنامج الامريكي وهي ثغرة حقيقية وخطيرة – الثغرة التي اشار لها لاسكي lasky هي الفشل في اكتشاف الطبقات المتعلمة والمثقفة، والتي تقدم على المدى البعيد القيادات الاخلاقية والسياسية للمجتمع وللقضية الأمريكية.
ولذلك جندت لاسكي وجوسلوسون ونابوكوف "ليقفوا على الحافة الحادة" لما سوف يصبح تحت اشرافهم و"هي احدى العمليات السرية الأكثر طموحاً في الحرب الباردة .."
والطموح المشار اليه هو كسب النخب الثقافية الغربية لحساب الطرح الأمريكي. واضح هو الدور الذي لعبوه في فرنسا (باريس) وفي المانيا وبريطانيا (عن مجلة بيرمونت) ليتمددوا إلى الشرقين الأوسط والأقصى وليؤكدوا لهم نقاط ارتكاز في عواصم العالم الأخرى، لتقديم الثقافة الامريكية. واعطيت لجهاز المخابرات صلاحيات هائلة لخدمة ذلك. فعجّل هذا الجهاز في تجنيد الأفراد والجماعات، المنظمات ومجلاتها ومثقفيها..
منظمة حرية الثقافة حولتها المخابرات الامريكية في 1961 إلى "الاتحاد الدولي للحرية الثقافية أو لحرية الثقافة" ومن هذه ان صار لنادي القلم 76 فرعاً في 55 دولة.
جدير بالذكر أن اللولب واسع الحركة وسكرتير عام المنظمة هو الروسي الأصل نابوكوف وهو المعتمد الأول في التفاهم مع الشعراء والكتاب ومع الموسيقيين لأنه كان روائياً وموسيقيا. من نشاطاته أنه هو الذي سافر إلى لندن للقاء ت.س. إليوت لإقناعه بالتعاون أو الانضمام لنشاطاتهم. إليوت رفض المشاركة أو التعاون فالتفت إلى ستيفن سيندر وقد وافق هذا على المشاركة في إصدار مجلة انكاوتر Encounter 1990 - 1953) وعلى أن يكون محررها. (ثمة مسألة أن راتبه كان من الخارجية البريطانية. وهذا يعني أن هناك خيطاً دولياً (هنا بريطانيا) مشاركاً في الموضوع، فضلاً عن مساهمة اللجنة البريطانية لحرية الثقافة.
في باريس أيضاً رفض سارتر المشاركة في مؤتمر ثقافي موسيقى وقال لهم : "أنا لست في عداء مع الشيوعية لهذا الحد". فاتفقوا مع مجلات يمكن ان تكون رديفة ومع عدد من المثقفين شعراء وكتاب وفنانين.. نتيجة هذه

الجولات المصحوبة بالوعود والأموال أن صار عدد المجلات التي تصدرها منظمة حرية الثقافة في العالم ثمانية وعشرين مجلة عدا المجلات المتعاونة والمثقفين المتعاونين.
للعلم، هذه المنظمة عن طريق المتعاونين معها في لبنان، اقنعت الشباب لحضور مؤتمرها في روما وتبنت طبع مجموعة اشعار تحت اسم منشورات مجلة ( شعر)، هذه المنظمة كانت تجزل العطاء. فقد دعت اوركسترا إلى واشنطن كلفت دعوتها 130.000 دولار وسيارات ليموزين وهدايا وضخت على مؤتمرها الثقافي في باريس اموالاً كثيرة وكانت النتيجة خيبة وفشلا ذريعين. فقد رفض سارتر الحضور كما أشرنا سابقا. سيمون دي بوفوار حضرت، وخرجت مستاءة. لم يفت. الفرنسيون ما وراءه! وقد خرجوا يتذمرون، قالت دي بوفوار: الاشياء نفسها، الأحاديث نفسها تتكرر. في القاعة تشعر أنك تموت حيا، فولكنر تمتم بعبارات غير مترابطة. وقال: انه لم يجد شيئا ذا معنى. الموضوعات التي حددتها لجنة المؤتمر عبثية. مالرو مساعد دييغول آنذاك، قال بفجاجة أو بذكاء ساخر: أمريكا الآن جزء من أوربا. وسبب هذا التذمر والاستياء ان الخط المهم بالنسبة للجنة المنظمة هو ان تكون ضد الشيوعية والسبب المهم للمثقفين كتاب وفنانين هو الثقافة. في مؤتمر الموسيقى حين تأخرت ايطاليا عن دفع ما عليها، غطت مؤتمر الموسيقى هذا مؤسسة فارفيلد. كل هذه الأموال والنشاطات ليثبتوا أن الفن يزدهر في مناخ الحرية.. وهذا ما كان يتردد في فروع المنظمة العديدة في اليابان والهند وفي العواصم المهمة، باريس ولندن وعواصم امريكا اللاتينية. أما في الشرق الأوسط فقد اعتمدت اللجنة أو المنظمة كتاباً وناشرين وتنظيمات ثقافية منها نوادي القلم كلها تعمل تحت عنوان حرية الثقافة... سأتوقف عن قول المزيد في هذه المسألة، فقد اتضحت الوسائل والأهداف..

**تجارة:**

ننتقل الان إلى مسألة تبدو هامشية في التجارة والاستهلاك. ولنبدأ الحديث عن مؤسسة مالية واحدة هي "بنك الاسبريانو": كان المدعو السيد كالفي يدير الأموال لصالح الفاتيكان ويترأس بنك الاسيربانو معه سيدونا ملك البورصة الايطالية وموضع ثقة الفاتيكان والمؤتمن على استثمارات السدّة الرسولية. وكان حلقة الوصل بين السفارة الامريكية واحزاب اليمين الايطالي. كان يملك في العديد من البلدان مصارف وفنادق وله في واشنطن مبنى ووترغيت الشهير.
أما الاسقف سارسيتكوف، الذي يترأس مؤسسة I.O.R فقد عمل اصلاً حارساً شخصياً للبابا قبل أن يصير مدير أعماله.
الثلاثة عملوا من أجل اعلاء كلمة الرب وملء جيوبهم. إن بنك الأسيريانو نسج شبكة عالمية من غسيل الأموال، الدولارات، الناتجة من تجارة المخدرات والسلاح. وعمل مع مافيات صقلية في الولايات المتحدة لتهريب الأموال وخطف غير المرغوب فيهم.
هذا البنك هو مصدر الدولارات التي مولت نقابات العمال البولونية في صراعها ضد الحزب الشيوعي (حزب العمال البولوني الموحد – المحرر). وهذا البنك هو الذي أجزل العطاء لمتمردي الكونترا في نيكاراغوا وللمحفل P.2 في ايطاليا لغرض

واحد هو تحالف الماسونيين مع الكنيسة لمواجهة الخطر الأحمر. وقد تلقى زعماء ذلك المحفل مائة ألف دولار، ساعدتهم على تاليف الحكومة الإيطالية، ولتنفيذ اعتداءات إرهابية لمعاقبة اليسار الإيطالي.
تقول الناشينال تايمز:
"أن عملية النصب التي تعرض لها البنك والتي زاد حجمها على المليار دولار. جعلت الفاتيكان يشعر بحرج، لأن أحد المتنفذين الكبار منهم.." أنتهى الخبر!
لكم الان شريط صحفي التقط مفرداته صحفيون شجعان ونشروه في العالم، قبل أن تدخل تفاصيله الكتب:
كاتب صحفي ذكي فضح يوما ما يقال بأن خط الاستواء يقطع نصف الكرة الأرضية. قال: كذب لا يقطع الكرة الأرضية نصفين وليس ثلثا العالم في الشمال وثلث من الجنوب. نشروا ذلك لكي تظهر أوروبا على الخارطة اكبر من أمريكا اللاتينية والهند أصغر من اسكندنافية، وامريكا وكندا تشغلان من الخارطة مساحة اكبر من افريقيا، وهما معا لا يبلغان ثلثي القارة الافريقية. الجغرافية تكذب وتسرق والاقتصاد يكذب ويسرق، والثقافة بدأت تفرغ الكلمات من محتواها الوطني والمحلي. هو برنامج نزع الملكية من الشعوب، أرضاً ومعادن وثقافات وعقائد.

**صحافة أيضاً:**
كتب صحفي عموداً في صحيفة فضح مضمون واحدة من الالاعيب، تساءل: هل وجدت الديموقراطية لكي تمارس يوم التصويت كل أربع أو خمس سنوات، أم لكي تمارس كل يوم من أيام السنة؟ لقد صنعوا يوما للانتخابات وبعد انتهاء "الحفل تعود المؤسسات بشروط عملها وتعود الحقوق بحدودها ويعود السوق.. التفاف جميل لكن مفضوح ومضحك"!

**حوار صحفي:**
قرأت في صحيفة حواراً مع شخصية بارزة من البرازيل:
المحرر: يا سيد ماتولو اراك تغيرت كلياً؟
-: ابداً، لم أتغير.
المحرر: لكنك كنت ملكياً ثم أصبحت من المقاومة ثم صرت من اتباع فرانكو ثم صرت ديموقراطيا، ومنذ وقت ليس بعيدا، كنت مع الاشتراكيين. والآن تقول أنك لم تغير أفكارك؟
الجواب: اطلاقاً! لم اتغير. لأن تفكيري دائماً هو نفسه، أن أصبح عمدة هذه البلدة!

اقتراح: في 1991 اقترح عالم الاقتصاد لورنس سومرس، الذي نال الدكتوراه من هارفرد واحتل مناصب عليا في البنك الدولي، اقترح في مذكرة داخلية وجدت طريقها للنشر بصدفة صحفية. اقترح: أن يشجع البنك الدولي على تهجير الصناعات القذرة والنفايات السامة إلى البلدان الأقل تطورا، لأسباب تتصل بالمنطق الاقتصادي، وبالمزايا السببية لتلك البلدان. اما هذه المزايا، فهي:
1 - انخفاض الأجور.
2 - سعة المساحات التي لم يلوث الكثير منها بعد.
3 - انخفاض معدل الاصابات بالسرطان لأنهم عادة يموتون مبكرين، فلا يضرهم كثيراً إرسال هذه المخلفات.

**درس:**

هذا الدرس من السناتور جومكارثي، ومكارثي الخمسينيات هذا هو مبتكر فلسفة "الشعور بالذنب"، وتوظيفها لمطاردة الشيوعية، وكان يحرض على ذلك بكل ما يملك من قوة: "أن يعترف المتهم ويدين رفاقه ويلعنهم ويؤكد ولاءه الجديد ويلفظ العهود القديمة. ليزلي فيدلر وصف العملية، قال: الاعتراف بحد ذاته ليس شيئاً ولكن من دون الاعتراف لن نتمكن من الانطلاق من ليبرالية البراءة إلى ليبرالية المسؤولية. أما صول ستابن فقد كان ارق قليلا، حاول اقناع الآخرين بان أولئك الذين اخذوا جانب السوفيت في الماضي، يجب ان يعطوا فرصة لتوجيه طاقاتهم للمؤسسات وللجهود المعادية للشيوعية بحق، وأن على كازان ان يمنح المترددين فرصة للتوبة.

هذه التجربة المكارثية طبقت تماما في الشرق الأوسط، في العراق وفي مصر وفي تركيا وإيران: البراءة، العمل مع المؤسسات ضد الشيوعية.. لا داعي لمزيد من الايضاح!

**مانشيت:**

في 1990 نشر زعيم نقابي ارجنتيني واسع الثراء صعد إلى هرم السلطة، مقالاً شرح فيه الطريقة التي حقق بها ثروته الفجاءة. بايجاز، وبلا خجل، قال: المال لا يأتي من العمل!

**منظر طبيعي:**

في الأخير لنتحدث في السياحة وعن الطبيعة الجميلة. كتب صحفي فرنسي، قال:

توقف الوفد عند ربوة في نويلي. كان هناك بحر والربوة مطلة على الخليج، الارض مغطاة بالتين الشوكي. اغرانا المنظر اقتربنا اكثر، ففاحت الروائح العفنة، روائح مقرفة تهلك النفس دون كل المناطق الأخرى، كان الحارس يذرع المكان متنقلا بين الاسلاك الشائكة والصبار الوحشي، أشار لي بفرنسية ركيكة:

هنا، يسكن جميع شيوعيي اليونان!

ختاما، شكرا. لم ابتدع شيئا، كل ما كتبته منقول.

# رواية (حصار العنكبوت) لكريم كطافة في ضوء الأنساق الثقافية

أ.د علي إبراهيم

يعد عنوان الرواية عتبة نصية مهمة تنتمي إلى النسق الثقافي، فلقد وجدت أن العنوان منسجم مع النص وهناك توضيح وتفسير لهذه التسمية عن طريق سؤال وجهه رفيق منيب إلى الرفيق أبي طيف: " إي أبو طيف، شنو هذا حصار العنكبوت؟ أجاب هذا بلهجة أكاديمية وكأنه في قاعة محاضرات: هو شكل من أشكال الحصار التي تعتمدها الجيوش لكسر شوكة حروب الأنصار الثوار. يدرس في الأكاديميات العسكرية بوصفه نوعا نادر الحدوث ولا ينصح باستخدامه، الميزة الفارقة له أنه يضرب أطواقا محكمة الاستدارة وكثيرة العدد يتناقص قطرها من الخارج إلى الداخل إلى تلك البؤرة التي يحاصر فيها المستهدفون، ثم تحدث اختراقات طولية بطوابير من المشاة في الغالب هم من قوات النخبة، لإبادة كلِ ما يصادفها بين الأطواق من بشر، أما لماذا هو نادر الحدوث، فالسبب يعود إلى أنه ليس من السهل على كل الجيوش تطبيقه: لأنه يفترض إخلاء منطقة العمليات من المدنيين تماما، وإلا ستحصل مجازر إبادة جماعية حيث يختلط عادة أفراد العصابات بالمدنيين"[1]. والنسق هنا أن الحكومة البائدة لم تكن تراعي أي أعراف عسكرية أو إنسانية في صراعها مع الآخر المعارض لها. بمعنى أن حصار العنكبوت قد طبقت، على الرغم من أن الكاتب لم يصرح بذلك.

ركزت الرواية على الأيام الأخيرة بعد توقف الحرب العراقية - الإيرانية، توجه الجيش - الذي كان يقاتل في إيران- بكل إمكانياته الحربية وبكل قطعاته جوا وبرا، لاجتياح معاقل المقاتلين الأنصار وجماهير المنطقة، مستخدما السلاح الكيماوي المحرم دوليا.

حاول الكاتب في مقدمة مقتضبة جدا أن يمهد لحدثه "قبل أن يتلبس بقناع الوسيط" ولكني أرى أنه قد فشل في إعطاء صورة الموقف كما هي كي

يندمج القارئ البعيد كل البعد عن تلك الأحداث الدامية العجائبية. ومع اختيار المؤلف لتلك الأيام لتكون الحدث الرئيس في روايته كان موفقا جدا، لأن العمل الإبداعي يفقد حرارته في الأحداث الرتيبة، وقد لا تتواجد فيه المفارقات الضرورية وحركة الحدث تكون بطيئة لا حياة فيها، وغالبا ما تؤثر على المتلقي الذي ينشد التفاعل والمتابعة وإيجاد أدوار له في خضم أحداث الرواية. المتفجرة مع تفجر الأوضاع الآنية واليومية.

في البداية أريد أن أركز على " الأنا المتضخمة في الذات النافية للآخر"[2] وفي هذه الرواية ينبغي أن نأخذ الشخصية ليس بصفتها الفردية حسب إنما نأخذها بصفتها الجماعية لأن الشخصية هنا منصهرة مع الشخصيات الأخرى لتشكل الموقف العام وإلى جانبها الرأي الفردي الذي يمثل السلوك الذاتي المتضخم تجاه الآخر سواء أكان فردا أو حزبا أو سلطة.

في الرواية نتلمس الأنا المتضخمة في ذات النظام المقبور بعد إيقاف الحرب عام 1988 وإقدامه على سياسة إنهاء الحركة الأنصارية في كردستان وكل من يسكن بجوارها أو في قلبها من فلاحي المنطقة، رجالا ونساءً وشيوخا وأطفالا وزرعِها وحيواناتِها، وإحالة تلك المناطق إلى أرض محروقة.

خطاب الحركة الأنصارية التي تبنت شعار: "إيقاف الحرب فورا وإسقاط النظام الدكتاتوري"، وعلى هذا الشعار ارتكز خطاب الرواية، فالروائي المحاصر مع أبطال روايته، يسترجع كل التنظيرات التي كانت تروج من قبل المسؤولين في الحركة، كون هذه الحرب العراقية–الإيرانية، يفيد منها النظام وليس الشعب، لأنه يحجب التفكير السليم للمواطنين عن الأزمة الحقيقية للبلد والمتمثلة بالقادة السياسيين وسياساتهم الخاطئة ونظام حكمهم وأن الحرب تمد بعمرهم في السلطة. وإن قادة الجيش سيكون ردود فعلهم عكسيا ضد رأس النظام بعد توقف الحرب من دون النصر. بينما ترى فصائلُ أخرى في الحركة أن استمراريةَ الحرب هو الضمان لبقاء الحركة وإضعاف النظام ومن ثم الانقضاض عليه.

أبرزت هذه الرواية أنماطا من الشخصيات تشكل انساقا ثقافية منها: المتشائم والمتفائل والمتشائل ضمن سلسلة من الأحداث، وشخصيات أخرى نأخذها من جانب الشجاعة تبرز الرواية أنموذج البطل الذي قاتل ببسالة لدرجة كانت الطلقة الأخيرة في رأسه هو النصير الفنان الرسام المبدع فؤاد، ومنهم من تسلل بين صفوف القوات المهاجمة بهويات مزورة إلى الموصل ثم سنجار ومنها إلى سوريا، وبعضهم إلى بغداد ليختبئوا فيها سنوات... وغيرهم كثيرون. ونسق الجبن المتمثل في شخصيات تسلم نفسها للسلطات هربا من حصار لا تعرفُ نهايتَه كما فعل النصيران "يعقوب وصلاح وهما من الأدلاء اللذين تحتاجهما القوة المحاصرة"[3] على الرغم من أنهما ظهرا في المنطقة ولم يسلما أنفسهما للسلطة، ولكن يبقى ذلك السلوك نقطة ضعف لا تغتفر. وكذلك النصير دلير الذي كان يحاور رفيقَه (حاتم) ويصرح لأول مرة بأن الخطأ " ليس في التطبيق، بل في النظرية الماركسية

نفسها حول الاشتراكية، الواضح أنها تفتقر لآلية إصلاح الخطأ من الداخل، كما هي الرأسمالية مثلا، أو أن هذه الأخطاءَ جاءت من الخطأ الأول الذي ارتكبه (لينين) والبلاشفة بإشعال الثورة في بلد هو زراعي أكثر ما هو صناعي...وهذا عكس ما تعلمناه طيلة وجودنا في الحزب.'' بينما ظل صديقُه حاتمُ مدافعا عن سياسة حزبه بقوله: إن ''الشيءَ الوحيدَ الصحيحَ الذي قمنا به هو الكفاح المسلح ضد البعث، ما عداه قابل للنقاش''[5] لكن دلير'' بعد أيام من تلك المحادثة خرج في مهمة حزبية، أو هكذا أعلن لحاتمَ مصطحبا أحد الأنصار ولم يعد، عاد النصيرُ في ضوء الفجر مع بندقية دلير ورسالة صغيرة لحاتمَ. طلب فيها أن يعذره مع جملة قصيرة...لا تخافوا منى سأبقى إنسانا''[6] وهذا [4]نسق آخر يمثل القلق الفكري الذي يؤدي إلى التذبذب والصراع الداخلي ثم الانهيار.

ومن جانب آخر كان نسق الخوف موجودا لدى الأنصار كحالة إنسانية لكنها كانت حالة ايجابية متمثلة بشخصية حاتم أحد القياديين الوسطيين في الحركة الأنصارية من خلال حوار داخلي عن هواجسه ومشاعره التي رافقته مدةَ الحرب، المتمثلةِ بالخوف من الموت، لكنه لم يكن سلبيا، ولم يظهر عليه أي تردد في تنفيذ مهامه العسكرية، حيث يقول:'' ساهمت في عمليات اقتحام وتسلل، وكنت خائفا، بادرت لاقتراح عمليات ونفذتها وكنت متلبسا بذلك الخوف الفظيع من الموت، غير أن خوفي لم يعقني يوما، لم يمنعني عن المواصلة''[7].

ونسق الخيانة في هذه الرواية ليس فقط على صعيد الشخصيات على مستوى الأحزاب الكردستانية التي تتحالف مع الحكومة ضد الأحزاب الأخرى، أو مع فصائل ''الفرسان'' تسهل لهم مهمة تنفيذ عملية (تمثيلية)، كمهمة قتالية لصالح النظام، ويتقاسمون معهم المبالغ التي يحصلون عليها من الحكومة. وتبقى حركة الأنصار المتصدية لهذه الهجمات، دفاعا عن قرى الفلاحين في الأراضي المحررة، من سيطرة النظام، لعدم معرفتها بالاتفاقات السرية بينهما، والتي ترفضها تماما، لدرجة أن أحد رؤساء ''الفرسان'' قال متذمرا: أعطوا للأنصار بعضا من هذه الأموال لكي لا يتصدوا لنا''.

وهناك نسق آخر ظهر في هذه الرواية وهو نسق العشق بين حسام الشاب المسيحي وروزا الشابة الأيزيدية في خضم المعارك والمصير المجهول للناس والأنصار وفي تلك المناطق العاصية الوعرة والحصار الكبير المستند على الإمكانيات العسكرية والمالية كلها، وعلى خبرة ثمان سنوات من الحرب الضروس مع الجارة إيران، يشع هذا الحب بين شابين بعمر الورد متجاوزين كل الأنساق الاجتماعية، فكل منهما قد تجاوز عاداته وتقاليده ودينه وطائفته وهذه جرأة كبيرة لم تحدث داخل الطائفة الأيزيدية حتى عند التقدميين منهم بحجة أن ذلك يسبب شرخا كبيرا بينهم والمجتمع الأيزيدي. كانت روزا بين حلمين ستفقد أحدهما لا محالة، كما هي الآن بين جبلين عليها عبورهما معا، لا تريد أن تترك حساما إلى الأبد، ولا تريد أن تخذل أمَها وأخواتِها مرة وإلى الأبد أيضا.'' لكن ما هو البديل القادر

على الوقوف بوجه أعراف وديانات تجعل مجرد التفكير بالأمر دنسا؟ ما بالك فيما لو تحقق؟".[8] تجاوز هذا النسق الثقافي يتطلب تضحية كبيرة من الطرفين لأن " علاقتهما تنتمي إلى علاقات المستحيل، على الرغم من أن الطائفتين: المسيحية والأيزيدية متجاورتان على ذات البقعة الأرضية، ويعيشان في بحبوحة التفاهم والتسامح منذ عروق التاريخ البعيد لهذه المنطقة المبتلية بالتنوع الديني والمذهبي والقومي، لكن معظم تجارب التجاوز والاختراق لا ينجيهم من وبالها غير التشرد وقطع كل الخيوط الواصلة مع البيئة المحيطة، سيكون ثمن التجاوز نسيان الأب والأم والأخ والأخت إلى الأبد وهجران المكان."[9] وهذا يكاد أن يكسر النمط التقليدي في المجتمع وكسر الأعراف أمر صعب جدا وإن كان يحدث بحالات نادرة بين مناضلين واعين تقدميين لأن هذه التقاليد مرسخة بأعماقهم.

نسق آخر وجدته في الرواية وهو إطلاق سراح أسرى لدى الحركة الأنصارية من الأجهزة الأمنية للنظام البائد ممن اندسوا في صفوف الحركة لغرض القتل أو التخريب وينتهي الجدل من الحكم بالإعدام إلى الحكم عليهم بإطلاق سراحهم بحجة أن هؤلاء مغرر بهم.

بينما النظام يحرق المنطقة ويستخدم السلاح المحرم دوليا ويقتل كل ما هو حي، حتى الذين سلموا أنفسهم إليه استجابة للعفو العام التي أطلقته الحكومة ومن ضمنهم النساء والشيوخ والأطفال.

أرى أن هذه الرواية استطاعت ان توصل رسالة منصفة وموضوعية عن

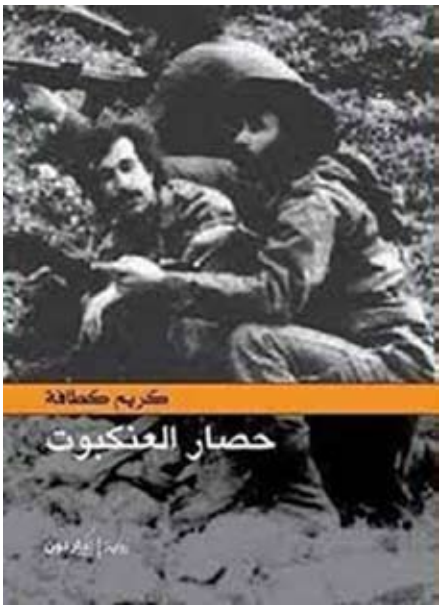


أحداث دامية مرت في جزء صغير من كردستان العراق الذي يعد أنموذجاً لما دار من معارك غير متكافئة بين قوى حملت السلاح لتدافع عن نفسها وشرفها السياسي وترد العنف بالعنف، وأخرى تريد السيطرة وإلغاء الآخر، في زمن أصبح الآخر جزءً مهما من نسيج المجتمعات الحديثة المتطورة.

**الخاتمة:**

في نهاية البحث لا بد أن نقدم عددا من الملاحظات والاستنتاجات المهمة منها:

1 - إن هذه الدراسة لم تلتزم بمنهج النقد الثقافي كما قد يكون مطلوبا من قبل بعض المتخصصين في هذا المجال، إنما تطرقنا إلى الأنساق الثقافية الواردة في النص والتي تعبر عن موقف جريء يتجاوز ما هو سائد في ثقافتنا سواء أكان سلبيا

أو ايجابيا والأمثلة مشخصة في الدراسة وهناك غيرها لم يجر تناولها يكفي أننا أشرنا إلى الأبرز منها.

2 - لم نسهب في التعريف بالكاتب لكي لا نبتعد عن موضوعنا الأساسي فنحن لسنا بصدد دراسة ذات طابع سيري يربط بين الكاتب ونتاجه.

3 - الروائي كريم كطافة حاول التمرد على الالتزام الفكري والحزبي الصارمين في روايته هذه وفي بقية رواياته مما جعلني أنسب ما كتبه إلى النسق الثقافي لأن من سمات الكاتب الذي لا يقدس الأيقونات المصطنعة سواء كانت على شكل أدباء أو سياسيين أو منتج أدبي إنساني (كتب أو قيل) في زمن ما ثم تحولت إلى أحجار مقدسة لا يمكن المساس بها، أضف إلى ذلك الحقب النضالية، والتجارب المريرة ... أي باختصار كل الظواهر بكل أنواعها قابلة للنقد والتجاوز.

4 - وفيما تقدم هو ليس دعوة لعدم الالتزام والتنكر لما هو جيد، بل هي دعوة لإعادة النظر وممارسة النقد لمعرفة الأنساق الثقافية الإيجابية من الطالحة، فكلاهما نسق ثقافي ومصطلح (الثقافي) يعبر عن الثقافات المختلفة السائدة والحديثة.

ونرى أن (كريم كطافة) ملتصق بالماضي وهو نبع منجزه الإبداعي والدليل على ذلك عناوين رواياته وقد درسنا (حصار العنكبوت) وأشرنا إلى(عودة إلى وادي الخيول) المكان الذي عاش فيه الكاتب ويقع بين جبال محافظة دهوك ولم تكن بقية رواياته بعيدة عن الأمكنة التي احتضنت تجربته الحياتية والنضالية.

---

**الهوامش:**

1- كريم كطافة، حصار العنكبوت، دار نون للنشر، رأس الخيمة/ دولة الإمارات العربية المتحدة، المطبعة الوطنية – عمان، ط1 2014: 183 – 184.

2- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي ـ قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء:94

3- الرواية: 194

4- الرواية : 85

5- الرواية :85

6- الرواية :86

7- الرواية :87

8- الرواية : 118 - 119

9- الرواية : 119

# السرد المضاد للتاريخ في رواية الديوان الاسبرطي

د. غزلان هاشمي* - الجزائر / خاص

تخوض رواية "الديوان الاسبرطي" للكاتب الجزائري عبد الوهاب عيساوي في مناطق الظل، حيث تقدم سردية مغايرة للتاريخ الرسمي في مسح لحقبة تجمع بين الوجود العثماني والاستيطان الفرنسي في الجزائر، ولربما هذه السردية المضادة هي التي أثارت حفيظة العديد من المتلقين في جزئها المتعلق بالعثمانيين من خلال الارتكاز على سؤال جوهري: هل هو وجود هادف للإعمار؟ أم أنه احتلال من نوع آخر يهدف إلى حيازة امتيازات ومزايا؟ نحاول في هذه القراءة التي لا تطمئن إلى الجاهز والمروي والمألوف الوقوف على دلالة الاختلاف، واستنطاق النص بالبحث عن مضمراته.

**قراءة في العنوان:**

تحمل لفظة الديوان منظورا إيديولوجيا، إذ يحيل على تاريخ منتقى من رقعة جغرافية معينة، فهي لفظة فارسية تمثل سلطة موضعية تتضمن شخوصا يسيرون أعمال السلطنة ويطلقون القرارات المتعلقة بالحروب وغيرها، ناهيك عن المضمونية التي تتعلق بالدفاتر والسجلات، وأما اسبرطة فتحيل على ذاكرة غيرية/ يونانية تمتد إلى الأسطرة/ التعالي، حيث تتباهى

الذات بمركزيتها وقدرتها على اختراق الآخر وإفنائه بعد محاصرته بسبب مسوغات تافهة وغير مشروعة، ومن هنا يصبح النص عبارة عن سجل احتفائي بالسلطة الغيرية التي تنتهك الذات وتحوله إلى سردية مغايرة، أو منظور حكائي يقف على أرضية الاحتمال ليموضع الحقيقة بين ممكناتها المسيجة بالنسيان/ التهميش.

**التاريخ الهامشي:**

تخوض الرواية في المسكوت عنه الذي غيبه التاريخ المؤسساتي/ السلطوي، إذ يحاول ملء الفراغات الذاكراتية مبتعدا عن التسجيلية المفضية إلى الرتابة والتطابق الذي يحول النص إلى مجرد وثيقة تاريخية، لذلك يستنطق الماضي عبر خطابات أشبه

بالسيرذاتي تؤدي وظائفها شخصيات خمس: ديبون ـ كافيار ـ حمة السلاوي ـ ابن ميار ـ دوجة، وهذا التعاقب الحكائي يساعد المتلقي على معرفة تفاصيلها من أجل لملمة تبعثرات السردية المركزية، من هنا تتعدد وجهات النظر حول قضايا الاستعمار والوجود العثماني في محاولة للوقوف على أرضية الحياد، ولو أن الكاتب تتضح أيديولوجيته من خلال استنطاق شخصياته، ولربما الأنا المتحدثة تعبير عن الحضور وتشكيل متخيل يتموضع مركزيا في ذاكرة الحكي ويصبح بمثابة تعويض نفسي/ محايث للتاريخ المسرود، إذ تعودنا أن تروى تفاصيل الماضي في صيغة غياب من خلال الضمير "هو"، لكن الأنا هنا تطوف لتكافح التغييب بمثول آني/ مركزي يمثل إمدادا قرائيا في مستقبل النص المؤول، والأنا هنا متعدد ليبين أن اللغة تظل إمكانا متحققا في صيغ مختلفة، لذا لا أحد يستطيع ادعاء الحقيقة أو امتلاكها.

وكأن الرواية من هذا المنظور تقدم تاريخا جديدا والذي "أقام قطيعة تامة مع التصور التجريبي للزمن القائم على وهم الوفاء للحدث في واقعيته المباشرة، وادعاء إعادة تملكه، كما فند الخلفيات الوضعية لهذا التصور، الذي يدعي العلمية وموضوعية النظر في الميدان التاريخي بالقياس على الميادين التجريبية التي تستجيب للمقولات العلمية"[1].

تحاول هذه الرواية تقديم منظورات متعارضة بسد الفجوات الذاكراتية وفسح المجال واسعا لمعرفة وجهات نظر متناقضة، فالحروب التي جرت باسم المسيح واستخدمت مسوغات دينية متظاهرة بجلب الحضارة والخير والنماء للإنسانية قاطبة، لم تكن غير ممارسات متأبلسة سعت إلى تصفية الآخر فكريا وجسديا وعقديا، فالذات بتعاليها واصطفائها وبحمولاتها الإيديولوجية وحقدها على كل غيرية تحاول الحفاظ على مركزيتها لا غير، "لذلك نجد أن "قصص الإبادة التي يعج بها الكتاب، والتي يصدقون تاريخيتها، أو يريدون تصديقها، تقع في صميم نسيجهم الثقافي، فيتقبلونها على أنها نماذج نجحت في الماضي في استئصال الأغيار يمكن تكرارها في الحاضر من أجل الوصول إلى هذا الهدف "[2]. ولقد جاء ذلك على لسان كافيار في خطابه الموجه نحو ديبون الممثل للعقلانية والاعتدال والتسامح: "إن الشيطان إله هذا العالم يا صديقي المبجل ديبون، وإنني لمشفق عليك مما يحمله رأسك من أوهام، أنت الذي لا تزال تعتقد أن كل النساء هن المجدلية، وأن كل القادة تجل للمخلص... أفق يا ديبون، أفق أو عد إلى مرسيليا"[3].

يفضح الكاتب الخطاب الكولونيالي ويكشف عن أهدافه الحقيقية، إذ يعتبر الاستيطان الفرنسي جزءا من العقلية الإحلالية التي تعنى بإبادة شعب من أجل إعمار الأرض بشعب مغاير وذلك تحقيقا للأطماع والامتيازات، "إلا أن صديقي كافيار كان أكثرهم اشتعالا بسيرة القائد المجنون، أحب أن أسميه شاول اللعين، يضحك حين يسمعها.يتفق مع تجار مرسيليا في جدوى بقاء الفرنسيين في هذه المدينة الإسبرطية التي ترتفع خلف البحر، فالتجار في مرسيليا يريدونها بالتأكيد ليس فقط من أجل أمجادهم السالفة، بل لأشياء أخرى، المال كما يقول شاول إله جديد وما أكثر الآلهة! آلهة في البحر وأخرى في البر"[4].

يحاكم عيساوي الحملة العسكرية الفرنسية من وجهة نظر فرنسية كذلك، إذ يموضع القضية في إطارها الإنساني/ الأخلاقي العام، وهو ما يكشف تهاوي مسلماتها وارتكازاتها وتهلل تسويغاتها بالنظر إلى حقيقتها المغيبة وراء الشعارات الكاذبة، فديبون /السردية المضادة يقوض الرؤية الاستعمارية، ويتحرر من المنظور المركزي الكولونيالي ليمثل الغيرية في حيادها الإنساني، هو المثقف العضوي الذي يرفض الخضوع لسلطة معيارية تقوم بقولبة تفكيره وتمنعه من تقديم نصية أصيلة هي صوت المقموعين والمهمشين والمكبوتين، "قلبها الطبيب بخيبة في يده، وتراءى الطفل يطل علينا من باب المخزن، يبكي وينادينا بأسمائنا، بالتأكيد لم يكن ليهتم به البحار، كان صراخه يتعالى بيني وبين الطبيب، أو لعله يلوح لنا من قبره: هل هذا ما أردت أن تسجله ياسيد ديبون من انتصارات قائدك العظيم؟ ألم يكن أجدى لك الكتابة عن سيرة عظامي لا عن عظمة سيدك؟!"[5].

**تفكيك الخطاب الكولونيالي:**

لربما رغبة الكاتب في تفكيك العبارات الكولونيالية التي تضمر مركزية الذات وتعاليها وتهميش كل غيرية تتموضع في ثنايا هذه الرواية، فعبارة فاتح إفريقية تقوم بتغييب حقيقة الاستعمار وتقدم سردية مؤدلجة تهدف إلى تعظيم الذات وادعاء صفائها وخيريتها المطلقة من خلال أبلسة/ المختلف ووصفه بصفات تبخيسية تحقيرية مضللة، "تستطيع أن تضع حدا لمزاجيتك، قالها لك كلوزيل ثم أعادها لك الدوق روفيغو ساخرا: أصبحت يا ديبون تتصرف مثل هؤلاء الشرقيين، وتنفعل مثلهم، مخالطتك لهم أصابتك بالعدوى، والآن أراك تماثلهم في كثير من الطباع. ودونت مسيرة فاتح إفريقية حتى أضحيت من نجوم الصالونات الباريسية؟! أتريد مجدا آخر تضيفه للإنسانية من أجل حقوق البائسين، أم أنك تعتقد نفسك مسيحيا جديدا؟ دع عنك هذا وعد إلى باريس"[6].

بل ويبلغ الأمر حد التعميم حينما تحاجج الذات بإسقاط النوايا ذاتها على سياقات

تاريخية مختلفة، حيث تصبح الأديان على اختلافها مسوغا للحصول على الامتيازات وللحفاظ على المركزيات ولتصفية الآخر، لذلك فقول كافيار يلخص ذلك: "يصر ديبون على الدفاع عن هؤلاء، مثلما يلجأ إلى مسيحه الشخصي ليحاججني. أيها البائس: حتى البابا نفسه لم يعد يؤمن بالمسيح الذي تؤمن به، من أجل سلطة المال تحولت الأديان إلى أقنعة. هؤلاء الأتراك المحمديون كانوا يأخذون أموالنا ثم يستعبدوننا، هذا إن لم نقتل، ثم يقولون إن الله يأمرهم بذلك، هذا هو الرب الذي صار الجميع يؤمن به، في أوروبا أو إفريقية"[7].

**ابن ميار ومركزية الحضور العثماني:**

يمثل ابن ميار غيرية تستعير اعتبارات الذات/ المحروسة وتتمازج معها عبر مكون أحادي لا تلفيقي، إذ يلتبس بهوية المكان رافضا التعالي عن ممكناته، لذلك يحاول استرجاع ذاكرته عبر تموضعات خطابية تستفز المكون الحكائي المضاد الذي يضع كل غيرية في موضع المخترق ـ عثمانية أو فرنسية ـ، حيث تطفو الأنا لتلفت الانتباه إلى مركزية حضورية تقاوم الغياب الذي يمارسه الآخر/ الفرنسي حتى في حال استدعاء تمثلاته واختراقاته، في الوقت الذي يهمش فيه المكون المحايث/ الجزائري، الذي يعد لاحقا في المتخيل العثماني حتى وإن بدت خطاباته في ظاهرها غير ذلك، "لقد أصبحت وحيدا يا ابن ميار لا مال ولا سلطان، تكاد تكون فقيرا بعدما سلبوا منك كل شيء، التجارة والضياع وحتى الأصدقاء، كان آخرهم المفتي الحنفي، دبروا له المكيدة في بيته ثم نفوه إلى الإسكندرية، كان أجدى لك لو رافقته، لكنك تظل تعتقد أنك بعرائضك ستعيد المجد لهذه المدينة بعد رحيل بني عثمان، ثم تثاقلوا عن سماع شكواك وشكوى أهلك، الذي يلحون عليك بمواصلة الكتابة وهم من اتهمك في البداية بالعمالة للفرنسيين، حين كنت عضوا في مجلس البلدية، ثم سعدوا وهم يرونك مطرودا منه.."[8].

وبالبحث في معنى الاسم الذي يتعدد ويختلف بين محضر المؤونة والطعام، وجالب الحظ والخير، وكذا ضوء القمر ووردة الجنة...، كما أن الميار هو مراقب الأسعار في الأسواق العباسية ..، وهذا في حد ذاته تمثيل مركزي للمثول العثماني الذي يسيج بالهالة والقداسة.

**الهامش في المتخيل السردي:**

يحاكم الكاتب على لسان ابن ميار اليهود/ المكون الهامشي الثاني، ففي غمرة صراع المركزيات الدينية يحاول الهامش أن يجد له حظوة ومكانة إلى جانب المركزية الغالبة، وذلك بالتحيز إلى منطقه ومنظوره وإن بدا غير عقلاني وغير عادل، فالهامش اليهودي ينزاح عن موضعيته حفاظا على منطقه المنغلق ومصالحه بالتشويش على الطرف الأضعف وضرب مكوناته، ومن هنا تظل الهوية منساقة إلى اللااتساق حينما يحرر نفسه منها ويستبدلها بالتغاير الذي يتمسك بالمسوغ الديني/ اليهودية، "خطر لي أن أنعطف تجاه الغرب، لكني تذكرت أحياء اليهود، لم أعد أثق بهؤلاء الناس، كانوا يقاسموننا الخبز والملح ثم فجأة بعد دخول الفرنسيين بدأوا يهتفون لهم. الملل الصغيرة دائما ما تحاول إيجاد مكان لنفسها ولو بالخديعة، خمسون عاما أو أكثر بقليل، كانت كفيلة بأن يمسك

اليهود كل شيء..“[9].

وفي شكل تعارضي يصور الكاتب نمطين من الشخوص الهامشية، الأول وهو السلاوي الذي رفض أن يكون جزءا من مخطط الآخر مهما كان شكله، فقادته ثوريته إلى الانفلات من فخ التماثل والتطابق معبرا عن هوية متمايزة وذات ممتلئة، بينما هرب الثاني ”ميمون“ من التماثل مع المنظور العثماني ليقع فريسة للانصهار في الغيرية الفرنسية وفي رؤيتها العنصرية الاختزالية الاستعمارية، ”يلتقي السلاوي وميمون في كرههما لبني عثمان، كانا يريدان أن يحكم المغاربة بلادهما، ولكنهما افترقا في وجهة النظر بعد دخول الفرنسيين. عرض ميمون نفسه كمساعد في فتحهم الجديد إذ كان أكثر الناس معرفة بالبلاد وأهلها. بينما كان السلاوي من الذين قاتلوا في سيدي فرج ثم سطاوالي وأخيرا في الحراش“[10].

يراجع عيساوي الخطابات التاريخية الرائجة، ويحاكم العثمانيين في فترة حكمهم للجزائر، حيث يهدم ما شاع عن خيرية قدومهم، فالرواية تخوض في المسكوت عنه/ الهامش التاريخي، وتقوض التاريخ المؤسساتي/ المركزي /السلطوي من أجل بناء سردية مضادة، فالسلاوي ولأنه يمثل الهامش يتحرر من سطوة الأدلوجة الاستعارية السائدة، ليبحث عن ممكنات مغايرة هي من صميم الذات/ الهوية، حيث يصبح الآخر موجودا اعتباريا وجبت تصفيته من الذاكرة الجمعية من أجل بناء مثول ذاتي لا امتداد غيري فيه، السلاوي يكلم ابن ميار: ”ألا تلتفت حولك، الخوف هو ما يرغم الناس على الهتاف لهم، لا تنجح أمة حياتها في سلب حياة الآخرين. جل سكان المحروسة يعيشون عالة على مال الأوقاف، والتجار أرهقتهم الضرائب، فبارت تجارتهم. بنو عثمان حولوا هذه المدينة سجنا كبيرا للمسيحيين، وحتى لأهلها، واليوم لا أرى مصانع غير التي تصنع المدافع والبارود، ولا مستشفى غير الذي بناه الإسبان لأسرى المسيحيين. ولا يوجد في المحروسة طبيب..“[11].

**دوجة/ الوطن المنتهك:**

يعترف السلاوي أن دوجة /النص الأصلي تمثل هذا الوطن، إذ تعرضت للانتهاك مرات عديدة بعد أن تلاشت الأبوية/الوصاية والتبست بالغياب/الهوية المشتتة، وقد حاول أن يعيد إليها وهجها ويمنع عريها ويحافظ على شرفها رمزيا، لذلك وبوصفه يمثل الذات النقية وإن كانت من هامش الحكي، فإنه حاول لملمة شتاتها والحفاظ على نقاء لحظتها، ”لو أعاد صديقي ابن ميار سيرة دوجة فقط لأدرك بسهولة أنها لا تختلف إلا بالقدر اليسير عن هذه المدينة، ولاستوعب أيضا ما حدث في الأيام التي سبقت دخول الجيش..“[12].

جاء على لسان دوجة: ”في تلك الأيام عرفت السلاوي، رجلا يرفض كل نساء المبغى، ولكنه أول من يدافع عنهن، بدا لي موقفه غريبا، ثم زادت دهشتي وأنا أراه مثلما رأته البقية يلوح بقبضته تجاه المزوار ويلقيه أرضا“[13].

يحاول السلاوي بوصفه ذاتا هامشية أصيلة يهمها الامتلاء أن ينتشل دوجة/الجزائر من الضياع، لذلك يجعلها في حكم الوديعة لدى غيرية دينية/زهرة اليهودية التي تعبر عن الآخر كمكون من مكونات الهوية الجمعية، فالذات لا تزهر إلا بالتنوع والاختلاف وسلوى الوطن لا يتحقق إلا ضمن راهنية

تحتفي بالتعدد وحوارية الأديان.

تظهر الرواية الصامتة /التاريخ المغيب على لسان الصحفي ديبون الذي اختارته "لوسيمافور دو مرساي" لتغطية الحملة ،إذ يقدم الكاتب سردية لا مؤسساتية تعكس رؤية معتدلة وإنسانية في الخطاب الفرنسي، وكأنه بقراءته الغيرية يرفض الأحكام المطلقة وتعميمها ،إذ يظل هناك خطابا موازيا للخطاب الاستعماري/العنصري/ الاصطفائي ،فالآخر ليس كله شر كماهو ماثل في الأدبيات الشرقية ، بل هناك أصوات ـ من منظور الكاتب ـ أسهمت في الحملة بوصفها جزءا من عملية حضارية شاملة تهدف إلى تصفية الاستعمار التركي ـ كما يظنه الفرنسي ـ :"..وحين اقتربت كان بورمون يستعد لخطابه، وعلق بذهني بعضه: إن الرجل العربي قد عاش سنوات طويلة مضطهدا من زمرة غاشمة، وسيجد فينا نحن المحررين، وسيلتمس تحالفنا وبهذا لن تدوم الحرب إلا زمنا قليلا، ولن تسفك إلا دماء أقل.

خطابه غمرني بالسعادة، في كل جملة يتوطد ما بيني وبين هذا القائد، يحمل في روحه الدعوات التي أتى بها الناصري، لا يريد مزيدا من سفك الدماء"[14].

**إسبرطة من التطهير التاريخي/ السردي إلى التطهير العرقي:**

يطابق كافيار بين الجزائر واسبرطة بشكل يعكس تحيزه الإيديولوجي ونزعته المركزية/ الإقصائية، إذ تتحول من إحالة تاريخية إلى نمط من التفكير المترفع/ العنصري الذي يهدف إلى تشويه الآخر وتنميطه وجعله صناعة لغوية متخيلة، وهو ما يسهم في تأجيج المنزع الاحتقاري وفي تسويغ اختراقه وهدم زمنيته، "لأنك لم تخبر إسبرطة كفاية، أو لعل الكتب أفسدتك. الكتب أحيانا تزرع في الناس أفكارا لا وجود لها عن الحياة، تخلق منهم كائنات لا تحسن إلا الكلام، وأخشى أن تكون من بينهم، تقرأ عن الشرق وعن المور ثم تأتي لتلقي المحاضرات، أو تتصفح الإنجيل ثم تهذي أمامي بما فهمته. هذه المدينة التي يسمونها الجزائر، لم تكن إلا إسبرطة"[15]. ولو أن الآخر يقدم توصيفا مغايرا وتسويغات عن تسمية الرواية حينما رأى دبون كافيار يقرأ كتابا عنوانه الديوان الاسبرطي "ثم تراءى لي الأمر جليا، نعم هو كذلك، الإسبرطيون كانوا أشبه بالعثمانيين في إفريقية. أمة لا تقوم إلا على قوة السلاح، والأتراك فقط من يمتلك كل شيء. أما العرب فلم يكونوا إلا عمالا في مزارعهم. ربما كان الأتراك أنفسهم أقرب إلى الدوريين، بينما كان العرب مثل الأيونيين، ولكن الحقيقة التي اتفق الجميع حولها، أن تلك المدينة البائدة لم تكن إلا ثكنة كبيرة. كانت هذه المقارنة تكاد تكون حقيقية في ذهني، وربما في ذهن كافيار"[16].

ويقدم قول كافيار لدبون ملمحا عن المنظور المركزي وعن التفوق الأوروبي، حيث تصبح الذات رمزا للتحضر والخيرية المطلقة، لذلك تتعلل بمسوغات دينية بينما يحركها تاريخ طويل من الأحقاد والأطماع الإمبريالية والتنافس على تركة رجل أوروبا المريض والرغبة في التصفية، "الأمجاد التي ابتدأ الإنجليز ليس عليهم احتكارها وحدهم، نحن مطالبون أن يكون لنا قسم من إعلاء كلمة الرب. صحيح أننا آخر من أمضى معاهدة إدانة القرصنة، وآخر من التزم بعهود إلغاء الرق، وأننا من سمح لذلك

المجنون أن يشعل الحرائق في أوروبا. ولكن أيضا نحن من سيحمل هذا النور إلى الضفة الأخرى"[17].

يعرض الكاتب لخط إيديولوجي معارض للخط السلطوي الاستعماري متمثلا في شخصية ديبون، الذي يشكك في مسوغات الاختراق بعد محاولات الطمس والتغييب والتصفية التي طالت أبناء الجزائر ومعالمها، فالرواية الاستعمارية المضادة تتمسك بالمسوغات الدينية والإنسانية، لكنها تجابه بالرواية المركزية التي تقوض مرتكزاتها وتضمر أحقادا ورغبة استيطانية ورؤية إيديولوجية اصطفائية، يقول ديبون: "أضطرب كلما تذكرت مقدار الدم الذي ساح في الأيام الماضية. كان لا بد لي من بناء جدار من الصلابة داخلي، وكنت أرفض بناء الجدران وأنا غير مقتنع بقطرة دم واحدة تسيل ليعم نور الرب إفريقية. يتناقض النور مع لون الدم، والسلاح مع الكلمة، والمحبة مع الكراهية"[18].

**اللوحات: الذاكرة المصاغة:**

يعرض كافيار مذكراته في شكل لوحات وكأن السرد تعويض عن اعتلال نفسي/ نصي، حيث يتحول إلى لوحات ترتسم فيها التفاصيل المغيبة التي تتحول في ما بعد إلى دافع إيديولوجي يحرض الذات على انتهاك النصيات المغايرة/ الآخر المختلف، فكل لوحة هي امتلاء في شكل إفراغ، لأنه محكوم بتحيز الذات واعتباراتها واختلاقاتها ورؤيتها، وفوق ذلك إنجازية متحررة من سطوة الحقيقة وافتعال يتقصد الاستيلاء على الحكي/ المستقبل النصي /التأويل، فبقدر ما يعد بالتعدد والتجاوز إلا أنه يحاول فرض رؤية أحادية من خلال الإطار العام الذي يحدد المنظور والإيديولوجيا، فاللوحات إذن تضمر أكثر مما تظهر وهذه هي حقيقة الحملة الاستعمارية التي كان ظاهرها التأديب والتحرير.. وباطنها الاستيلاء والاستيطان والاستعلاء..، هذا وتعد اللوحات ذاكرة قابلة للحذف والإتلاف والتعديل، وكأن الكاتب يتحرر من سطوة الآخر وتنميطاته وتشكيلاته الخطابية، فيعتبر ما خطه مجرد فلتات بوحية لا تمثل الواقع وإنما الوجه المتخيل منه، لذلك ما يراه الآخر/ المتعالي لوحة فنية تستحق الخلود - أي الاختراق والتقتيل والتنكيل -، هو مجرد مظهر استعاري لا يرقى إلى تمثيل الحقيقة، يسرد لكنه لا يتمركز في مواضعات المعنى لأنه ببساطة يمثل الغياب لا غير...، فمثلا في اللوحة الثامنة يتحدد الأمر أكثر من خلال قول كافيار: "ترغمك الاستفاقة في إسبرطة في يوم مختلف كهذا، على النظر إلى ماضيك كأنه بقايا أحلام مشتتة في الذاكرة، ووجوه صارت مألوفة بعد أن ظللت سنوات أحفظها، وأيضا لغات صارت تجري على اللسان مثلما يتكلمها أهلها. الآن لا يجرؤ أحد على مخاطبتي بلغة يدعي أنني لن أفهمها"[19]. إن كافيار/ الآخر الاستعماري يستوطن النص ويخترقه من أجل صنع هوية لغوية جديدة، حيث يستعيد تفاصيل حكائية ويتقصد الانتقاء والحذف من أجل تسويغية تلفيقية تضمن للذات مركزيتها واستيلائها على سلطة الخطاب/ التاريخ، وهذا التلفيق يظهر أكثر في تلك الاستعارة التاريخية لهوية مدينة الجزائر/ اسبرطة التي تحرر الذاكرة من مفاعيلها الدونية والضمير من مساءلاته الأخلاقية، لذلك يقول: "ليس عليك قول كل شيء للناس، عليك فقط تغليف فكرتك أو

حلمك بالدين، ومن ثم دعها، ستصبح مثل كرة الثلج، يزداد حجمها كلما انحدرت"[20].

في ختام الدراسة يمكن القول أن هذه القراءة هي محاولة للنبش والاستنطاق لا تلتزم منهجا، إذ تعول على التأويل الذي يرى أن "النص بطبقاته وأبعاده، بتعارضه والتباسه، بثقوبه وفجواته، بل بصمته وفراغاته. ولأنه كذلك فهو يقرأ بالبحث عن فروقه اللغوية، أو استكشاف احتمالاته الدلالية، أو تفكيك بنيته المفهومية، أو اختراق كثافته المجازية، أو زحزحة إشكاليته المنطقية، أو زعزعة سلطته المعرفية. على هذا النحو يمكن النظر إلى النص والقراءة فيه، أي بوصفه خطابا لا يتناهى وكلاما لا يمكن قفله. إنها قراءة تتعامل مع النص كفضاء مفتوح، فتنقب فيه عن إمكاناته الفكرية أو عن ثروته البيانية.."[21]، اعتبارا من ذلك لا تدعي الجزم واليقينية وتتوسل بالاحتمالية والتعدد والنهائية، هربا من سلطة التموضع الأحادي/ التاريخ السلطوي.

* جامعة محمد الشريف مساعدية ـ سوق أهراس ـ الجزائر

الهوامش

1- السيد ولد أباه: التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1994، ص 30.
2- عصام سخنيني: الجريمة المقدسة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر/ لبنان، ط1 ،2012. ص 31.
3- الرواية. ص13.
4- الرواية. ص14.
5- الرواية. ص 21.
6- الرواية. ص26.
7- الرواية. ص 41.
8- الرواية. ص49.
9- الرواية. ص53.
10- الرواية. ص 59.
11- الرواية. ص 135.
12- الرواية. ص70.
13- الرواية. ص78.
14- الرواية. 107.
15- الرواية. 125 - 126.
16- الرواية. ص 185.
17- الرواية. ص 182.
18- الرواية. ص 252.
19- الرواية. 266.
20- الرواية. ص 235.
21- علي حرب: أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1994. ص.22.

# تحولات الفكر الميتافيزيقي الجمالي

د . نجم حيدر

لم تكن الفلسفة اليونانية وليدة ذاتها قطعا. وعلى وفق المنطق العلمي لا يمكن ان تولد معرفة او ظاهرة بكرا من دون تأثير او تأثر. والبحث العلمي الذي يشير الى نهضة شاملة ومنها المعرفية التي سبقت القرن العاشر ق. م وواكبته واستمرت بعده بلدان الشرق ومنها وادي الرافدين والنيل، فضلا عما تؤكده التنقيبات التحليلية بان العلاقات التجارية وتفاعلات الشعوب كلها كانت فاعلة ومنفتحة، حتى ان الاخبار في النصوص التاريخية لـ فيثاغورس وافلاطون تشير الى سفرهما الى بلاد وادي الرافدين والنيل.

ان هذا التفاعل بين الشعوب حقق ما نسميه بعملية تلاقح في مجالات المعرفة المتنوعة، وفي قراءتنا للفكر الرافديني عبر حقب زمنية مختلفة، والمتمثلة في السلطات المختلفة، نجدها تعتمد الافتراضات الروحية الغارقة في التأويل الميتافيزيقي.

ان الفكر اليوناني بمراحله المختلفة يتمثل بتوافق كامل مع منطق المعرفة العلمية في التحول، إذ نجده يعتمد التراكم والانتقال من ثابت الى متغير، ثم يحيل جموع المتغيرات الى ثوابت لينطلق نحو تغيير آخر، الامر الذي نجده في متحولات منذ هيرو قراط مرورا بالأشعار الهرمسية وصولا الى الماديين الذريين امثال انكسمس وانكسماندر ثم الفكر الفيثاغوري، والامر ذاته نجده في التحول من ثوابت سقراط الى ما يوصف

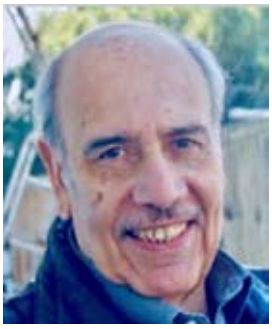

بالثراء والنمو الميتافيزيقي عند افلاطون ومن ثم التحول ضمن اطر في جسد الاتجاه ذاته مع البقاء على الكليات او الماهيات عند ارسطو طاليس.

ان هذه المساحة الواسعة من القرن العاشر ق.م الى القرن الثالث الميلادي نجدها لا تخلو من تنوع واختلاف، وما يدعو الى التوقف عنده يتمثل في الفكر الفيثاغوري ولاسيما نظرتهم الميتافيزيقية لماهية الوجود ومسبباته، وما استطاعوا أن ينتجوا من تحليل يرتبط بالرياضيات والموسيقى وما قدموا من افتراضات تعتمد على منطق يستلهم موضوع العدد والرياضيات والعلاقات الحسابية فيها. وعكس هذه الافتراضات بتحليل منطقي على الوجود كله. فكانت الرياضيات عندهم مفتاحا لكل ما هو غامض وخفي. فالرياضيات هي مبادئ واساس لكل الاشياء. ولما كانت الاعداد بالطبيعة (من الناحية المنطقية) اول هذه المبادئ وفي الاعداد دون النار أو

التراب أو الماء ظنوا انهم وجدوا اشياء كثيرة تحاكي الاشياء وما كان منها وما سيكون ولما رأوا كذلك أن اسباب التوافقات الموسيقية وشروطها تقوم على الاعداد رتبوا على ذلك أن الاشياء الأخرى بطبيعتها الكلية قد نسجت على منوال الاعداد بمثابة الاشياء الاولى في الطبيعة كلها، فزعموا بان عناصر الاعداد هي عناصر الاشياء، وان السموات كلها نغم وعدد. وعن ارتباط الفيثاغوريين بالرياضيات في عمليات تحليل الوجود. يقول ارسطو:

"لقد عنى الذين عرفوا بالفيثاغوريين بالرياضيات وكانوا اول من افترض أن مبادئ الرياضة هي أيضاً مبادئ جميع الاشياء. ولما كانت الاعداد هي اول مبادئ الرياضة قدموا رؤية تعتمد علاقة تحليلية بين الاعداد وبين النار أو الارض أو الماء بترابطية تفاعلية منتجة او مولدة للوجود بشكليه المادي والمفاهيمي، واحظوا أيضاً أن الخواص والنسيب التي تحدد الانظمة تعتمد على الاعداد فقد اقتنعوا بان مبادئ العدد هي مبادئ كل شيء وتوصلوا إلى أن الاسماء كلها ما هي إلا ائتلاف الاعداد".

أن ما يهمنا من الفيثاغوريين يعتمد نظرية المعرفة أو ما نتصوره بخصوص بنائها وتكوينها ومصدرها، ولما كان محور الوجود في الرياضة والعلاقات الرقمية التي تمدها وربط ذلك بموضوع النغم والموسيقى فقد عدّ الفيثاغوريين كل كائن وكل ما يكون هو في حقيقته متكون من علاقة رياضية يمكن كشفها، ويمكن للعقل البشري أن يعي بعضها وأن يكشف بعضها الاخر ولهذا توصف عملية فهم الوجود ووعي العلاقات الرياضية التي تربط وحدات الاشياء وهو بداية المعرفة أو بداية الوعي بها.

وعليه كلما تنامت عمليات الوعي بهذه الروابط والعلاقات الرياضية التي تحسب رقميا كلما تنامت المعرفة وهذا شرط فبناء المعارف ونموها، والموقف يميز ما بين البشر في مستوى الوعي والادراك، واخيرا في مستوى المعارف، أي بمعنى آخر يمكننا أن نقول إن الفيثاغوريين يعدون الإنسان الاوسع معرفة في مستوى ادراكه للعلاقات الرياضية (الرقمية) التي تحكم الاشياء والاشكال والمعاني، لكن هناك سؤال يطرح نفسه: هل هذه العلاقات العددية أو الرقمية قبلية أم أن بعضها يمكن أن ينتج بالإرادة البشرية؟

وعند اعادة قراءة فكرة الفيض في الفلسفة اليونانية بضاغط العالم العلوي أو الالهي بوصفه مصدر الماهيات التي تقدم عطاءها بما يفيض علينا في العالم الحسي وبديمومة ابدية، تنكشف لنا تعالقات ترابطية بين الفكر الرافديني واليوناني.

إلا أن ما يمكن التقاطه من هذا الفيض هو اليسير أو القليل، وعليه فان كشف عمليات رقمية أو عددية جديدة من قبل العقل المبدع هو صفة الابداع والابتكار عند الفيثاغوريين، وما هي الا عملية تركيب بعد تحليل بكشف للعلاقات الرقمية، فتتبني الصور والهيئات والمعاني في وعينا، والمتحول فيها يعتمد تركيباً جديداً ليس على ما هو عليه سابقا، وهنا تكمن مؤسسات الابداع والابتكار.

اذن يمكننا أن نقول ان عمليات التحليل والتركيب عند الفيثاغوريين تفسر على انها عمليات كشف ووعي وتحليل العلاقات الرقمية المتناغمة ما بين وحدات المادة المبتكرة وتنحصر عملية الابتكار عند محاولة

تركيب ما هو سابق من هذه العلاقات على شاكلته بروابط مختلفة يمكن أن تجد الجديد والمبتكر من خلالها. وهذا لا يتعارض مع فكرة وعمليات التحليل والتركيب التي ينطلق منها هذا البحث إلا أن تفسير الموحدات الاساس والمفردات الاولية في تكوين المعارف قد يفسر بمنطق لغوي مختلف. وهكذا يمكن أن تشمل الخبرة والتجريب، فهي عند الفيثاغوريين متراكم في امكانية وعي العلاقات الرقمية التي تحكم موضوع المعرفة ووحداتها.

وهذا يخلق امكانية في الاختيار والفرز والتميز نظريا وعمليا. إن عّد الفيثاغوريين (العالم عبارة عن نغم وعدد) يؤكد على عملية ربط التأمل الفلسفي بالتذوق الموسيقي. لهذا عّد النفس البشرية عبارة عن عمليات تناغم وانسجام يمكن أن تدرك أو تعرف رياضيا، وهذا التوافق والانسجام بين اضداد الجسد عن طريق عّد الاجسام الحبيسة عبارة عن مركبات ما بين الأضداد كالجماد واللين والرطب واليابس – الحار والبارد). وواجب النفس التوفيق الهارموني بين هذه الأضداد وهذا ما نشاهده في المتقابلات العشرة التي وضعها الفيثاغوريون (كالمحدود واللامحدود – والواحد والكثرة والخير والشر والنور والظلام – والذكر والانثى ...).

فضلا عن ذلك تأكيدهم على عّد الدماغ مركز التفكير وينقل من الحوار. ولو حاولنا على سبيل الاستنتاج والاستدلال أن نكشف التحليل والفيثاغورس لموضوع الجمال والتحسس الجمالي للفن والعمل الفني والفنان والعملية الابداعية، سنجد انفسنا محكومين بنظرية المعرفة أساسا للعملية الاستنتاجية الاستدلالية لتحقيق هذه المفاهيم.

ولان عملية التناغم ما بين اضداد الجسد هي اساس عمل النفس البشرية وهدف النفس يتمثل في تحقيق اعلى درجة من التناغم. فان الاحساس بالجمال أو ادراك الجمالية يمكن أن يكون عمله الحصول على اعلى درجة تناغم ما بين الذات الداركة والشيء المدرك.

لهذا يمكن أن يتحسس انسان معين جمالية شيء أو شكل أو مفهوم بفعل هذا التناغم الحاصل بين الذات (النفس) وبين الشيء أو الشكل أو المفهوم ولا يحصل الاحساس بالجمال عند انسان آخر لعدم وجود هذا التناغم. ولكون العمل الفني عند الاقدمين يصبو إلى تحقيق الجمال فالفن يصبو إلى تحقيق اعلى نسبة من التناغم ما بين الوحدات البنائية لمادة العمل الفني التي تحقق بالنتيجة نوعا من التناغم ما بين العمل الفني المنفذ وجمهور المتذوقين أو المستفيدين.

والفنان هو ذلك الإنسان ذو الامكانات العقلية المتميزة في كشف المتناغمات والعلاقات الرقمية الخفية التي تحكم الاشياء والاشكال والمفاهيم فاستطاع بعد كشفها اعادة بنائها بصيغ جديدة يمكن أن تجد طريقها في تحقيق تناغم ما بينها (مادة العمل الفني) وبين النفس المتذوقة. فعمل الفنان الابداعي ينحصر في وعي العلاقات الرياضية المتناغمة وهذا الوعي هو بمثابة بداية تحليل وكشف. فنحن نستطيع أن نعبر بعد التحليل والتركيب عن العلاقات والمكونات بصيغة كمية رياضية محسوبة محدودة كما في الرياضيات والفيزياء والكيمياء ويكون التحليل والتركيب عمليا وتكون النتيجة علمية. وحين لا نستطيع التعبير بهذه الصيغة الرياضية يكون التحليل والتركيب نظريا، وتظل فرضية في العالم لكنها تصير معرفة في الفن والأدب.

# (بوق اسرافيل): نداء النشور، تكرار الرؤيا

د جبار صبري*

**نداء العنوان:**

في انفسنا، ومنها، ومن ذلك الخارج الذي تفيض به الرغبة بالنداء نريد ان يمرق الصوت: بوق اسرافيل لا لشيء الا لكي نبعث من جديد. لا لشيء الا لتحقيق تلك الرغبة المفجوعة بأسى الوجود العابث فينا. لا لشيء الا لفض التراب الابد فينا منذ طلوع وجودنا وحتى اللحظة: لحظة الموت التي تشابهت علينا مع لحظة الحياة او العكس.

في هذا العنوان المسرحي: (بوق اسرافيل) احالة مرجعين مباشرة يمكن اختزالهما على نحو:

١- نداء بعثنا ونشروها من التراب الى الحياة واعادة الحياة الينا بعد ان:

- فجعنا بالوجود الضاغط علينا بالقهر والخوف والموت.

- فجعنا بسلسلة من الحيوات التي هرست فينا الراحة بالقلق والسلام بالحرب والمتعة بالقهر في تناوب حيواتي خطير فهو بقدر ما يمنحنا لحظة سعادة يمنحنا لحظة تذكار وفعلا بالقهر..

٢- ثمة قيامة تحدث الان وهذه القيامة هي مصداق لـ:

- الوجود الذي شغلني به هو وجود حساب. هو وجود نتيجة راسخة في

مرجعياتنا: انا الى قهر مضاعف او هدوء وسلام مضاعف ولاننا لا ندري ما وضعنا في تلك النتيجة نحشر في تراب مقهور وخوف لا بد فينا حتى اعادة اعلان البوق لمرة بعد مرة يؤكد نهايتنا او النتيجة التي حتمت علينا..

- في الواقع المعيش ثمة صرخة في اعماقنا وهذه الصرخة هي (بوق اسرافيل) الكوني الذي يُرج عمق ابتداء من داخلنا رغبة منا برفض هذه الحياة ورفض هذا القدر..

**ما قبل العرض:**

يؤكد المخرج وجوداً يكرر نداء وجوده من حيث تكرار لعبة اعداد اللاعبين: ممثلين، فنيين، اداريين.. قبل اعلان بدء العرض المسرحي. يؤكد ذلك مرارا وفي وقت تكاد العين؛ عين الرائي تنفر منه

غضبا لما يؤكد ذلك التكرار من افراط في الممل والعبث..

ومن هذا التأكيد المفرط نلحظ اكثر من بعد دلالي لا نستطيع ابتداء تبيانها الا بعد انتهاء العرض المسرحي. الا بعد تجميع دلالات العرض لمعرفة القصد المخبوء وراء ذلك البدء غير المرتبط بالعرض. بل كأنه بدء اعداد لا علاقة له بالعرض المسرحي: (بوق اسرافيل) ابدا. اقول نلحظ نداء عقليا مباشرا لـ:

- وجود لاعب خارجي يتحكم فينا
- استلاب ارادة الموجودات
- قبضة لارادة عليا تتحكم بالاطلاق بكل موجود.

نداء النشور، ادوات الرؤيا

في (بوق اسرافيل) يرتبط النداء الصوتي حسبما احاله مرجع النداء القار في ميثولوجيا ذواتنا بمعادل موضوعي بين:

الصوت ، ادوات وجودنا ، الرؤيا

انه اقتران ملحوظ بين عمق النداء وبين ما تأثث به وجودنا وبين فكرتنا المجردة التي انظر من ثقب خوف وطقس وموت في حياة الى ذلك الصوت/ المسمى نداء اسرافيل. مع ذلك هو تأثيث اختلط فيه صوت الموت مع صوت الحياة او العكس وعلى نحو:

- تنور: فوهة قبر، رحم موت وحياة في آن واحد..
- دكة غسل الموتى: منصة، حمام، مذبح..
- قبر: انزياح حركي لقبر، عربة موتى..
- ستارة حمراء: رحم..
- قفص حديدي
- الذات حديدي
- بوق

**نداء المكان، نداء الزمان:**

صوت العرض بوق المكان ذاته. كلاهما يمنح الرائي مستوى يشاهد فيه نفسه او مصيره داخل العرض او يشاهد موقعة غيره بتماثل معه وبصفة رائي ينتظر دوره محشورا في ذلك المستوى: مستوى المكان وهو عبارة عن:

* سماء من تراب، قاع قبر من تراب

هذا يعني اننا جميعا نحشر في قبر: قبر حيواتنا التي تشابهت كثيرا مع قبر مواتنا واننا من فرط الشعور الضاغط علينا بالتراب ننتظر طلوع تلك الصرخة، طلوع ذلك النداء سواء من اعماقنا او منقذ لنا من خارج انفسنا.

ولان المكان برمته خرج من معطف مكان احالة ما، واتجه دلالة مع مكان نعاني منه جميعا. مكان كلي لبس معطف حالة وجود ما، اذن يكون الزمن ازاء ذلك زمانا كليا: زمانا لا يصدق على حالة، بل يصدق على مبدأ. مبدأ الموت في الحياة ومبدأ انتظار الصيحة المنقذة من جراء ذلك.

**نداء التنور:**

المشهد الاول: ثنائية التكوين: الولادة والموت في ذلك المشهد معادل لثنائية الموت/ الحياة - النشور، وقد تجلى ذلك

المشهد تشخيصا ودلالة من حيث:

* التشخيص: تنور هائج يغلي بـ:

- ولادة الطيور، وهي ايحاء دلالي لولادة الموجودات وسلامها الاتي من سلام حيوات تلك المخلوقات: الطيور..

- فرن يحرق بمثل ما يلد كل تلك الطيور وكل ذلك السلام..

* الدلالة: اننا بمثل ما نولد بهجة ورغبة في الحياة بمثل ما تحرقنا تلك الولادة في تنور ترابها المميت وتنور نارها المسعور..

واذ يتجلى من ذلك النداء تطهيرا لما نمر به من تشخيص ودلالة انما يتجلى بالتطهير: غسل الاحياء، الاموات بالتراب، بمطر التراب الجاف الذي يهطل علينا في زمنين متفارقين: زمن الحياة وزمن الموت.

**نداء الرحم:**

عرفنا الوجود عامة من فوهة قبر مستعر. هذا ما يكون عليه الوجود خارج الرحم. والان نعرف انفسنا من ذلك الوجود: داخل الوجود/ الرحم والذي نلحظ فيه توأم صراعنا. ان رحم الوجود حامل لمحمولات صراعنا التوأم والذي يقدر علينا بما يسلب ارادتنا في الوجود او في رفض ذلك الصراع.

هنا تكون الستارة مدعاة لـ:

- ستارة عرض كوني لوجودنا المقهور والمستلب.

- رحم يجمعنا فيه توأم الصراع غصبا عنا لا لشيء الا للفتك بانفسنا من انفسنا.

لا فرق بين ما يحدث داخل الرحم ونحن نتطهر بالتراب المميت داخل الرحم او نتطهر به خارج الرحم. كل ما يحدث هو محاولة لغسل ادران ذلك الصراع بمزيد منه وبمزيد من تكرار تدويره فينا وفي وجودنا المستلب.

**نداء توأمي الصراع:**

هي قصتنا: قابيل الذي قتل هابيل: نحن قتلى من انفسنا. ان الذي يجري في عروبتنا انما يجري بذلك النهر المميت من ثنائية القاتل والمقتول وكأننا جبلنا على هذا النمط، التدوير في لعبة لا يراد لها الا الوقوع في فخ الجريمة: جريمة وجودنا.

وعادة القصة مرة بعد مرة بذات القصة:

- ولادة قابيل تتزامن مع ولادة هابيل ومن رحم واحد.

- مطاردة مميتة بينهما.

- اكذوبة التطهير بالتراب تزيد من شهية القتل ولعبة المطاردة.

- قتل قابيل لاخيه هابيل

- الغراب الذي ينعق ايذانا لنا بتعليمنا آية دفن انفسنا.

**البوق، انه البوق**

هذه المرة وبشكل تقليدي يحاكي توقعاتنا بصيحة اسرافيل تلك الصيحة التي تستنهض لعبتنا من الحياة الى الموت ومن الموت الى الحياة ومن الحياة الى النشور.. وهكذا في تدوير للعبة الصراع الدائر والمميت فينا: لعبة قتل وجودنا المتسابقة

مع لعبة ولاداتنا الماكرة ولذات النتيجة.

من هنا نلحظ:

- دخول اسرافيل وهو ينادي بلوثه نحو النشور
- سوق الموتى بقبورهم نحو النشور
- استمرار تدفق هطول التراب وكأن ذلك النشور هو نشور تدوير موتنا في الحياة لا اكثر.
- استمرار العذاب..

**نداء المستقبل، امنيات محتضر**

ولانا نخاف من الزمن كثيرا ولاننا نعي تدوير وجودنا داخل رحى او فرن الزمن المستعر بنيران التراب القاهرة اخترنا امنية ان نكون آدميين من حديد لا من طين او تراب. اخترنا ذلك لعله يدرأ عنا خطر الموت ونداء الموتى الذي لا ينفك عنا ابدا بل هو لا بد فينا وحولنا ابدا.

ولكن ما جدوى ان يولد الانسان من حديد والات وهو يعاني من ذات القفص. من ذات السجن. من ذات تلك الارادة العليا التي تجهد كل وقت بسلب ارادته في الوجود والقرار..

كل ذلك لم يغير من معادلة:

- استمرار النشور فينا من حيث استمرار نداء اسرافيل.
- موتنا وحياتنا سواء
- الوجود لعبة تدوير اولها الموت واخرها الموت، والحياة مجرد ضفة واهمة بينهما ندركها وتتطهر بها من خلال استحمام انفسنا بترابها المميت.
- الزمن آلة الخوف فينا
- المستقبل يقبل اطفاء الحديد فيه مثلما يقبل اطفاء التراب فيه.

**نداء ونداء ونداء**

هذا هو الوجود تكرار وممل وذلك هو اسلوب العرض تكرار وممل لا اكثر.

---

*** باحث مسرحي عراقي له عدة كتب في تخصصه . يعمل حالياً في وزارة الشباب والرياضة.**

# محمد خضير في مثابات شاخصة بعالم السرد والكتابة

شكيب كاظم

في كتابه (السرد والكتاب) الذي أصدرته مجلة (دبي الثقافية)، يقدم المفكر محمد خضير لقرائه مقالات يصفها بـ(السردية)، أما لماذا هذا النعت؟ فلأنها تقوم على أساس فكرتين متمازجتين: الفكرة النظرية، والفكرة السردية، تغلف إحداهما الأخرى، أو تنبثق إحداهما من الأخرى، إنها مقالات كتبت في أويقات مختلفة، وكانت قبل إباحتها همهمات محبوسة في تلافيف عقل كاتب السرد، نقرات أفراخ تريد الخروج من شرنقة القشر؛ قشر البيضة، إنها ترانيم فياضة كتبت في العقد الختامي من القرن العشرين، والعراق يحيا ضباب مرحلة التطويق والمحاصرة، فلا تصل إلينا نأمة الأشقاء، ولا تكاد تصل إليهم صرخاتنا، والقاص محمد خضير يتوق إلى إيصال صرخته إلى الأشقاء العرب في وطننا، إذ لم يسمع-بسبب ذلك- من جانبي البحر خبراً يستحسن رحلة هذه المقالات الفكرية السردية، يوم نشرها أول مرة في الصحف والمجلات، لذا قرر إعادة نشرها في كتاب كي لا تبقى حبيسة مشغلها، ويحفظها من عاديات الزمان الذي لا يرحم، وأن لا

تدفن بيوضها في الرمال طويلاً، ومن ثم تظل الفراخ حبيسة القشر.

**روائيو العالم والروائي العراقي**

في هذا السفر المعرفي النقدي الثر والثري (السرد والكتاب)؛ مقالات في السرد والكتابة، ففي مقال عنوانه (استعمال الرواية) يحدثنا الناقد محمد خضير، عن الإعداد الزمني الطويل لكتابة الروايات لدى كتاب العالم المتمدن، فلقد احتاج غابرييل غارسيا ماركيز؛ الروائي الكولومبي الأكثر شهرة من البلد الذي أنجبه! إلى آلاف الوثائق وإلى فريق من المساعدين، للبدء بكتابة روايته

(الجنرال في متاهته) عن حياة الجنرال سيمون بوليفار، واحتاج الروائي جان ماري غوستاف لوكليزيو، للارتحال نحو المغرب والعيش في صحرائها ومع سكانها، والسفر إلى المكسيك لدراسة حضارة المايا المنقرضة، وسبر غور حياة الهنود الحمر في جزيرة بنما، كي يجود علينا بروايته (صحراء) والأمر ينسحب على دان براون وهو يكتب سفره المعرفي الضخم (شفرة دافنشي) ودرس باتريك زوسكيند جغرافية فرنسا في القرن الثامن عشر، وقرأ الكثير الكثير عن عوالم العطور كي يكتب روايته (العطر. قصة قاتل) ويعتمد اللبناني أمين المعلوف على خزين واسع من المعلومات، مبرمج في حاسوبه الشخصي، أتوجد مثل هذه التسهيلات والإمكانات لدى الروائي العراقي؛ الذي عاش شرنقة الحصار والعزلة عن العالم أكثر من عقد من الزمان؟

إنه أقل الروائيين إنتاجا في العالم- كما يقول المتألق محمد خضير- يعمل داخل نطاق مفخخ بالهواجس المميتة، تحوم حول رأسه الطائرات الحربية، أجل إنه مؤلف سيئ الحظ لكن الرواية التي يكتبها ستكون أوفر حظا من روايات الماضي، إن روايته وحدها ستنتصر. تنظر ص٥٠.

يستدعي الباحث محمد خضير نصيحة الراوية؛ الراوي (حماد عجرد) لأبي نواس بحفظ ألف بيت من الشعر، ومن ثم نسيانها قبل مزاولة فن الشعر، يستحضر هذه النصيحة ليؤكد ضرورة أن يقرأ الروائي العراقي مئة رواية قبل أن يغمس قلمه في حبر كتابة رواية، مؤكداً أن نجيب محفوظ لا بد أن قرأ مثل هذا العدد قبل أن يكتب روايته الأولى، والأمر نفسه ينطبق على غائب طعمة فرمان الذي كتب (النخلة والجيران)، فقراءة الروائي تختلف عن قراءة القارئ الاعتيادي، قراءة الروائي قراءة محترف مختص، كي يهضم ما تضمنت من مضامين، إن ذائقة الروائي المخلص لفنه والمحترم لقرائه تشبه ذواقة الأنبذة المعتقة، أو صانع العطور المنعشة أما أولئك الذين لم يفلحوا في قراءة عشرين عملاً عظيماً - كما فاه الشاهق محمد خضير- فالأرجح أن أحدهم لن يكون قادراً على إنتاج عمل روائي واحد ذي قيمة، لذا ظلت رواياتنا تتوسد التلال، في حين احتلت الروايات العالمية قمم جبال الأنديز والهملايا.

**التناص؟**

في مقاله (أكثر من تناص) يرى المبدع محمد خضير وهو يدرس مصطلح (التناص)، الذي أطلقته أول مرة إلى دنيا الدراسات النقدية، الناقدة البلغارية الأصل؛ الفرنسية الجنسية (جوليا كرستيفا) يرى أن أفضل الإستذكارات القديمة عن هذا المفهوم قد لا نجده في كتاب (الموازنة) للآمدي مثلا، لكننا نجده في كتاب (المقابسات) لأبي حيان التوحيدي؛ إذ تعني المقابسة، أو يعني الاقتباس، ما يشبه الأخذ والتأثر، وإن هذا المصطلح قد اتخذ في نقدنا القديم هيئة سرقة أو اقتباس، وكتب

في هذا المجال الكثير ومنها (الإبانة عن سرقات المتنبي) وقد قاد حملة التشهير هذه (الصاحب بن عباد) لأنه لم يمدحه، لا بل كان وراء مقتلة المتنبي المأساوية في دير العاقول؛ قرب مدينة النعمانية الحالية.

لكني أرى أن الذي قاله أبو الطيب اللغوي (وقوع الحافر على الحافر)، أو (وقوع الخاطر على الخاطر) وثمة من ينسب القول النقدي الرصين لأبي الطيب المتنبي، في موضع الدفاع عن نفسه (إن الشعر جادة فلربما وقع الحافر على الحافر)، ولربما كان تشابه كنيتي الرجلين سببا في هذا الخلط، وأرى أن هذه المقولة تغنينا عن مصطلح السرقة أو الاقتباس والأخذ.

يدأب عديد الكتاب والكاتبات على كتابة اليوميات، التي تكاد تقترب من المذكرات الشخصية، إنها شحنة مضيئة للذاكرة تستخدم في الكتابة الإبداعية، حتى أن قصص (رؤيا خريف) إنما تألقت من يوميات الشامخ محمد خضير لسنة 1985، كما إنها مستودع للقلق، الذي ينغص العيش، لذا ما كان الأمر بِدَعا أن يقول فرانز كافكا في إحدى يومياته:" أود اليوم أن أنزع من نفسي بالكتابة كل حياة القلق، فأنقلها من أعماقي إلى أعماق الورق". ص85.

ومن أشهر من كتب اليوميات الأديبة الفرنسية (أنابيس نن)، التي واصلت كتابتها على مدى أربعة عقود من القرن العشرين، إنها تؤكد:"إن لم تتنفس عبر الكتابة، إن لم تصرخ في الكتابة، أو تغني في الكتابة، إذن لا تكتب، لأن ثقافتنا ليست بحاجة إلى كتابة كهذه" ص7 من كتاب (دلتا فينوس) إصدار دار المدى سنة 2007 ونقلها للعربية المترجم العراقي المتضلع علي عبد الأمير صالح، واحتوى الكتاب على خمس عشرة قصة إيروسيبة.

إن هذه اليوميات تكاد تشبه بوجه من الوجوه، كتابة الرسائل الشخصية، ففيها بوح وكشف الخوالج واللواعج، قريبة من النفس والعفوية في الكتابة، واحتدام المزاج الراهن، إذ لا يدور في خلد أحدهم أن هذه اليوميات الخاصة قد تنشر يوما، لكن الكثير من هذه اليوميات نشرت ومنها يوميات أنابيس نن في سبعة مجلدات طبعت أثناء المدة 1966 - 1981، كما نُشِرَت بعض الرسائل الخاصة مثل رسائل غسان كنفاني، ورسائل أنسي الحاج إلى غادة السمان، ورسائل فدوى طوقان إلى الناقد المصري أنور المعداوي، لكن ثمة من يطعم النار يومياته هذه، حفاظا على الأسرار الذاتية:" إني أفهم رغبة الكتّاب في التخلص من (الملكيات) العزيزة المسجلة في دفاترهم، فهم لا يحبون أن تقرأ أعمالهم بين أطلال الأمس (..) لا تسجل المذكرات إلا لحظات العمل العسيرة، وليالي التنقيح الطويلة، ليالي الخريف ذات الأغشية البيض، (..) إلى النار بالمذكرات، وما أصعب القرار"، ص91.

نعم وما أصعب القرار، وقد عشته أكثر من مرة.

**محمد خضير وكتابه الأول**

حدثنا السامق محمد خضير عن شغفه بالكتاب، باحثا عنه لدى الباعة في سوق البصرة القديمة، ناقلا بعضها نحو دكان المجلد منبهرا بعمله، إنه الآن (حامل كتاب) قارىء للكتاب، متنقل، عارف للكتب وبالكتب التي يحملها في يده، لكن ثمة في الجانب الآخر (صاحب كتاب) إنه مؤلف كتاب، منتجه، يا لهذه المزية، لذا ينقل لنا حامل الكتاب وصاحبه محمد خضير، في مقالته (حامل الكتاب) حبوره الغامر، وهو يقتني أول مرة نسخته الأولى من مجموعته القصصية الأولى (المملكة السوداء) من بائع صحف افترش رواق شارع الرشيد من جهة باب المعظم، وكان قد قدم إلى بغداد لتسلم النسخ الأولى من كتابه البِكْر: "أسرعت بكتابي اختلس الخطو بين ظهور السائرين القلائل، مبهوراً بحملي المباغت (..) ينقلني فوق الرؤوس والعيون والآذان، على متن حافلة حمراء ذات طابقين، من ذلك الأسطول الذي يشق شارع الرشيد بمحاذاة دجلة، خارجا من باب العاصمة الشمالي باتجاه بابها الجنوبي، ارتقيت سلم الحافلة إلى طابقها الثاني، واتخذت مقعدي في مقدمة الطابق (..) حاملا كتابي (..)

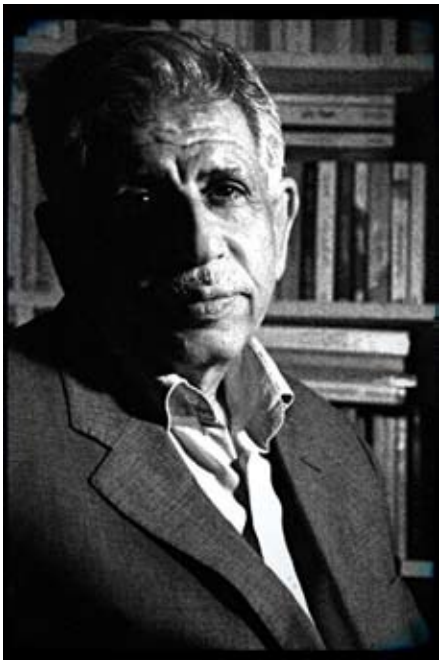

حلمت ببشائر هذه الرحلة (..) في الليلة الماضية، على سرير فوق سطح الفندق الذي نزلته بمنطقة سيد سلطان علي، (..) امتلأت الحافلة بالكائنات الصغيرة وأحسست أحدها يجلس إلى جانبي، على المقعد الملاصق لزجاجة الحافلة الأمامية المطلة على شارع الرشيد.

أنت الآن صاحب كتاب (..) بل أريد أن أكون حامل كتاب وحسب، وهذا غاية ما أتمناه حقا، (..) أتمنى أن أظهر بصحبة كتاب محمول في صورتي الأخيرة قبل أن يحين أجلي". ص115 - 117.

# علامة تجارية

سلام حربه

وقف وحيدا في الزقاق الصامت وهو يحمل حقيبته الجلدية الكبيرة والليل عبر منتصفه منذ اكثر من ساعتين، لا يضيء الزقاق المترب سوى مصباحين أصفرين إمتص التراب المعشعش على حدبتيهما شعاع ضوئيهما وبديا ذابلين كزهرتين أرتشف رحيقيهما، ينتصبان فوق بابين خشبيّن لبيتين متباعدين في الزقاق. كان وجه فؤاد منقبضا كليمونة يابسة تطعنه الحسرة والدموع تتكدس حيرى في عينيه. إقتربت منه أمه بوجه شاحب يزيده ضوء الزقاق كمدا وتتراقص على عظمتي خديها الناتئين أجنحة اللوعة. تجنب فؤاد النظر الى أمه حتى لا ترى دموع خذلانه واندحاره وهو الذي دائما ما يردد أن دموع الرجال تفضح الروح الضعيفة المهزومة..

_ أتبقى يافؤاد ولدي على هذا الحال ؟ سأموت مبكرا وأنا أراك كل ليلة وأنت واقف في الزقاق لوحدك..ماذا يقول الجيران عنك، هل جننت..؟

لم تغلق الأم فمها، ما زال هناك الكثير كي تقوله، فقد كانت تجمع في جوفه وعلى شفتيها كلاما واحزانا وحسرات ترشقه به حال أن ينطق بأي كلام يتفوه به..

قال فؤاد ونظراته الشاردة تبحث عن شيء ناتيء تحط عليه..

_ لم أستطع أللحاق بهم، أنا أسمع وقع اقدامهم الصاخبة كل ليلة في الزقاق، ما أن أفتح الباب للانضمام اليهم، وأنا مستعد

وحقيبتي جاهزة، حتى أرى ذيول اطيافهم تذوب في الظلام ..

لم تستطع الأم أن تطرد ابتسامة ساخرة حطت بعناد على وجهها بانت لها خطوطه الجافة..

_ ياولدي ، عن أي شيء تتحدث..؟ غرفتي شباكها يطل على الزقاق، أنا لم أسمع يوما أي حركة في الزقاق ليلا، الناس تنام مبكرا كدجاج المصلحة..إبني تعوذ من الشيطان واترك هذه الأوهام جانبا..

كانت الأم تعرف رد فعل إبنها، فقد إعتاد سماع هذا الكلام كل ليلة، يستدير راجعا وهو يجر مع حقيبته أحمالا ثقيلة من الخيبة، لا يحاول أن يخدش كرامة أمه ويتلفظ بكلام قد يندم عليه وهي التي ربته وتعبت عليه وسهرت الليالي تعمل خياطة بعد أن رفضت الزواج من رجل تقدم لها بعد وفاة أبيه. لم تهن ولم تضعف وكان جلّ سعادتها أن ترى ابنها فؤاد، كما تراه الآن وكل يوم، شابا يافعا

جميلا باسقا كنخلة مثمرة يملأ دنيا عينيها بالفخر والزهو يعوضها عن خسارة أيامها وتشعر أنها لم تجدب وقطاف ثمارها ناضج وشهي يسيل له لعاب الصبايا ودائرة أيامها تدور بنشاط وتتسع لأن فؤاد يعمل، منذ أشهر، على جمع أعواد عش زواج جديد مع خطيبته سميرة زميلته في الكلية والموظفة معه في احدى دوائر الدولة..

دخلت سميرة الى البيت وهي تمشي على أصابع قلقها ، ما زالت لا تعرف لِمَ خابرها فؤاد مبكرا والشمس للتو نزلت من سريرها وتستعد للخروج من كهف أفقها، لكنها كانت على يقين أن أمرا جللا هو من دفع فؤاد للاتصال بها وأجبرها على الحضور الى البيت، ما يزيد محنتها ويسارع من نبض قلبها أن فؤاد هذه الايام ليس فؤادا الذي أحبته في الكلية، كان جذابا ليس لوسامته وطوله الفارع وجمال تقاطيع وجهه الحنطي ولون عينيه العسليتين، لكن ثقافته ولباقة احاديثه التي تطير بالافئدة قبل العقول، استطاعت سميرة أن تنش عنه كل زميلاتها في الكلية وكن يحمن حوله كالذباب الذي يحاصر قطعة حلوى ونجحت في النهاية أن تفوز به وتقنعه بالتقدم لخطبتها بعد أن تخرجا من الكلية وحصلا على التعيين في نفس الدائرة لحاجة الدولة الى اختصاصهما. جلست أمامه في باحة الدار التي كانت تضيئها حزم شمس لاهية تتزحلق على طابوق جدران الغرف الطاعن بالعمر والمجدور وجهه من الاهمال، كان يغوص في الاريكة التي يجلس عليها، يجلس على بيوض احزانه التي تفقس، كل لحظة، عن ضجر يخز هدوءه ورصانته. عيناها لم تفارقانه ونظراتها تجوس في خطوط وجهه عسى أن تجد منفذا تصل الى ما يعتلج في ثنايا روحه، لم يطفح على وجهه أي تعبير وهو يتلقى سيل الاسئلة الخرس من نظرات سميرة، ما زال مرتديا ملابس الرحيل وبجنبه حقيبته الجلدية، كان كالمصارع الذي ينتظر تسديدة خصمه الاولى لينهال هو عليه لكما وضربا، نظر الى أمه الواقفة قرب سميرة، تمنى بقوة لو أنها تنسحب وتبقي الحلبة لكليهما..قالت سميرة وهي تفرك يديها البيضاوين الباردتين..

- ها فؤاد، لماذا اتصلت بي مبكرا..؟

اعتدل فؤاد في جلسته على الاريكة..نطق بعصبية وحزم..

- اسمعي سميرة. أنا اتخذت قرارا لا رجعة عنه..

- ماهو ..؟

وهو يسحب شهيقا عميقا.. وينكس رأسه مع كل كلمة ينطقها ..

- أن يذهب كل منا في حال سبيله..

دمدمت الأم بحيرة..

- لِمَ تفسح الخطوبة..! لن تجد مثل سميرة محبة ومخلصة لك..

تنحنح فؤاد، رفع رأسه ببطء، نظر الى سميرة بعينين ثاقبتين..

- أنا اعلم بأني لن أجد مثل سميرة زوجة صالحة، كل ما في الأمر أني قررت أن لا أتزوج لا الآن ولا في المستقبل..

سألت سميرة بألم وهي تشعر أن شيئا ما في داخلها قد تصدع..

- فؤاد، ما الذي بدر مني ..؟

- لم يبدر منك أي شيء، أنت امرأة فاضلة.. لكني نويت الرحيل ولا أعتقد بأني سأرجع من رحلتي الطويلة..

قالت الأم بلوعة..

- أين تذهب وتتركني وحدي..؟

- سأحاول الاتصال بك بين فترة واخرى

وسأوصل اليك كل ما تحتاجين..

تكلمت سميرة وقد تهدج صوتها كالمطعونة بنصل غدر..

- وأنا ألم تفكر بي.. أين حبنا، احلامنا التي ما زالت اوراقها خضراء..؟ أنا أعرف أنك في الفترة الاخيرة قد تغيرت كثيرا من يوم غرقت في تلك الكتب الصفر، لم تعد تؤمن بالافكار التي كنت تؤمن بها سابقا وأنت من غرسها في عقلي..

نهض فؤاد من مكانه كالملسوع، دار حول الاريكة، أجاب بعصبية..

- لم تقدني افكاري السابقة الى الخلاص، كانت سرابا وزرعت في نفسي يأسا دائما يلاحقني، لم تشعرني يوما بالطمأنينة، كنت في ظلال رهيب، لقد انقشعت الغيمة عن عقلي، وعيناي تبصران شيئا جديدا، لن أغفر لنفسي اعتناقي لتلك الافكار، أنا حاليا فؤاد ثان، أريد أن اقضي بقية حياتي في خدمة افكاري وقناعاتي الجديدة..

خطوط ابتسامة ساخرة على وجه سميرة سرعان ماذابت حين ابتدأت بالكلام..

- وأين سترحل بأفكارك الجديدة..؟

أجاب فؤاد بثقة..

- الى هناك..

سألت الأم والمرارة تملأ فمها وتسود لها غضون وجهها..

- أين..؟

- هناك في حي جيم، حي المنبوذين والمطرودين والمهمشين والخاسرين غرب المدينة، هم يجوبون كل ليلة طرقات المدينة يجمعون الأتباع، لقد عجزت عن اللحاق بهم والانضمام اليهم، لكني سأذهب اليهم هناك في حيّهم وأكون معهم في انتظار الذي سيأتي..

تساءلت سميرة بجزع وبنبرة صوت حادة..

- من هو..؟

- هو، من سيأخذنا جميعا الى..

أشار فؤاد بإصبعه الى نقطة غير مرئية، انهمرت الدموع من عينيه لم يقو على منع انبجاسها، شلال مياه من روح ذائبة ذاويه تصعد من الاعماق، تخترق دفاعاته المهزومة لتمضي متحررة مبتعدة من سجن طال مكوثها فيه وتودعه خاويا لا نبض لحياة فيه، لم تتمالك سميرة نفسها وشاطرته الحزن ولابت الدموع في عينيها منتظرة اشارة الانطلاق لكن سواتر عنادها عالية وكانت تنتظر ما ستؤول اليه هذه التداعيات الحزينة التي كانت تتوقعها منذ زمن وهذا الانفجار الصوتي من الاعترافات وهتك المستور. لم يطل الوقت حتى نزع فؤاد حلقة الخطوبة من بنصر يده اليمنى وقدمها الى سميرة، كانت تنظر اليه بتحد، لم تمد يدها لأخذ الحلقة فقد كان جسدها متصلبا ويداها متخشبتين، لسانها تجمد من برد الدهشة، حاولت الأم رتق سدّ فؤاد المتشقق كالخرقة البالية بخيوط دموعها الغزيرة..

- لا تتعجل ياولدي، راجع نفسك، لا تفتح قلبك لطرقات الشيطان..

ما أن نطقت والدته بآخر كلمة حتى وضع الحلقة على المنضدة القريبة وحمل حقيبته وخرج دون أن يمنح أي منهن التفاتة، حاولت الأم اللحاق به لكنه بإشارة من يده، وهو يغذّ خطاه مسرعا، سمّرها في مكانها. سميرة سقط رأسها في حضنها مجهشة ببكاء مر..

في حي جيم، كانت سميرة وصلاح يتقدمان في زقاق الحي الرئيسي بحذر، إختارت سميرة صلاح لأنه صديقهما في دراستهم الجامعية ومن المتأثرين بفؤاد الذي فتّح عينيه

على اتساعهما في دروب الثقافة والسياسة، لو لم يربط حبل الحب المتين قلبي فؤاد وسميرة لكان صلاح أول المتقدمين لخطبتها، لكنه حافظ على مسافة الاجلال والاحترام بينه وبين فؤاد، تزوج صلاح من زميلة لسميرة كظلها الذي لا يفارقها ورزقا طفلا عمره اليوم سنة واحدة. كانوا، في الجامعة، خلية اصدقاء كبيرة نواتها فؤاد، فخروا بقيادته لهم، في ازمنة البؤس والقسوة يبحث الانسان من يتقدمه في الواجهة، ثابت الجنان، لا ينحني أمام ريح الازمات، كاريزما، كي يتخذه رمزا يمضي وراءه. طريق الحي مترب والبيوت على الجانبين قبيحة عشوائية لا تصلح لعيش البشر، أسيجتها واطئة وأبوابها من الصفيح واعواد الخشب، ما لفت انتباه صلاح أن من صادفهم في الطريق يشبهون بعض، وجوه مكفهرة غادرها الابتسام منذ زمن، لحى كثيفة، ملابس بزي موحد دشاديش او تراكسوتات بالوان غامقة، عيون جامدة منطفئة لا حياة فيها. ملامح متموجة، متغيرة، لا تترك حَفرا في ذاكرة الناظر اليها. أوقف صلاح احدهم وسأله..

- عفوا أخي، جئنا نسأل عن شخص إسمه فؤاد..

إفتر فم الشخص عن إبتسامة بلهاء، أجاب بلهجة شعبية تنم عن انحدار ريفي سحيق..

- نحن هنا في الحي لا نتعامل بالأسماء ، نحن أرقام..

سأله صلاح ذاهلا..

- أرقام..؟

- نعم أرقام.. نحن لا هوية لنا، بلا ملامح ،أرقام في سجل كبير، حين يأتي سنمضي وراءه، سينادينا بأرقامنا، كم رقم صاحبكم هذا..

بحلق صلاح وسميرة بوجه الشخص الذي لم يعرهما انتباها، انسحب متواريا في لمح البصر. عند أحد البيوت الخربة بسياج لا يعلو عن المتر، طرق سمعيهما صوت فؤاد وهو يئن ويستغيث. البيت فيه غرفتان طينيتان مسقوفتان بأعواد الخشب وبواري القصب ومطليتان بالطين الممزوج باعواد التبن، كان باب البيت مواربا، الصوت ينبعث من احدى الغرف. دفع صلاح الباب وانسل هو وسميرة الى داخل البيت، صوت فؤاد جذبهما كالمغناطيس ، كان مدخل الغرفة مغلقا بقطعة من قماش ثخين..ازاح صلاح القطعة، إنسل نور الشمس فرحا الى الغرفة. كان فؤاد متكورا على الارض، يقف عند رأسه شخصان أحدهما يمسك سجلا والاخر يلقنه بكلام غير مفهوم وفؤاد يتلوى بين اقدامهم مسحورا، مكهربا، وشفتاه تتمتمان بكلام ملغوم بالشفرات والألغاز. ما أن دخلا الى الغرفة حتى توقف الملقن عن الكلام، كان ينظر بجسارة وصلف في وجوههما..بؤس المشهد الذي ارتضى فؤاد أن يضع نفسه فيه قطّع نياط قلبيهما، بادر صلاح بالكلام..

- هل تسمحان أن نكلم فؤادا، هو صديقنا، نريد أن نطمأن عليه..؟

تأفف الملقن بانزعاج، أشار بطرف عينه الى زميله، انسحب الرجلان مسرعين. وقف صلاح وسميرة عند راس فؤاد، كان مغمض العينين ويلهج بكلام لم يفكا أبجديته، لا يعرفان الى أية لغة ينتسب، جلسا عند رأسه، ملامحه تغيرت كثيرا في الأيام القليلة التي قضاها في الحي، ما زالت بقايا خطوط قديمة، يعرفانها، ماثلة في صفحة وجهه لم تمح بعد، كانت بشرته شاحبة شحوبا مخيفا وشفتاه مفطرتان من العطش أو ربما من مشقة الكلام الذي يلهج

به ليل نهار. كانت سميرة تتأمله وهو مستلق على الارض المتربة وملابسه الداكنة متسخة وخشنة من امتزاج الطين بالعرق وموجات من الألم الداخلي تنفجر كشرر البركان من مسامات وجهه، جوف يتقيأ عناصر الحياة ليمتلأ بالفراغ والوهم والطنين. جلسا عند رأسه صامتين ينتظران أن يفيق من غيبوبته، لم تتمالك سميرة نفسها وشهرت سلاح صبرها الوحيد دموعا ساخنة لم تستطع لها منعا..مضت قرابة عشر دقائق حين انفرجت أجفانه عن مقلتين جافتين عكرتين كعيني ميت، نظر اليهما مستغربا وهو يبحث في تلافيف ذاكرته عن أي خيط، صورة، بقايا أثر لهما..جلس في وسط الغرفة وهو يمعن التدقيق بعصبية وغضب في وجهيهما.. قال صلاح وقد خفف قلقه وخوفه طيف ابتسامة بلهاء وضغط على مخارج كلماته كي يبدو قويا متوازنا..

- فؤاد، ماذا تفعل هنا..؟ ارجع معنا الى بيتك ودائرتك وأمك وخطيبتك سميرة..

لم ترمش عيناه وهو يدقق في كلام صلاح وفي قسمات وجهه المحتقنة، أجاب فؤاد بكلام جاف كالحجر..

- أنا لست فؤادا، أنا حاليا رقم في سجله..

التفت الى سميرة وكادت أن تنقض يداه عليها وقد افترستها نظراته..

- وأنت ماذا تفعلين هنا مع هذا..؟ أنتما اعدائي، العداء الحقيقي بين الأفكار، العقائد، اليقينيات، وليس بين الشخوص والامزجة والاهواء..

تمتم صلاح بخوف..

- أنا صلاح، ونحن اخوتك واصدقاؤك وهذه سميرة حبيبتك..

- أنتم اعداؤنا..أمثالكم الوحيدون من يبطل ايماننا وطقوسنا وطعم حياتنا هنا في هذا الحي..لن ترجعا سالمين..

لم يتخلص صلاح وسميرة من الحشود الغفيرة، المدججة بأنواع الاسلحة، التي انطلقت وراءهم في الفضاء الفسيح المحيط بالحي الا توقف سيارة شاب مغامر، عن طريق الصدفة، لتقلهما الى بيتيهما وتخلصهما من النوايا الدموية وأصوات كواسر القطيع التي كادت أن تفتك بهما..

إمتنعت سميرة عن الخروج من البيت، قدمت على اجازة، لسنين، من دائرتها. كان الخوف والهواجس المرعبة وترقب المجهول، الذي تسمع طنينه، تلازمها كظلها مدار الساعة، ألقت بهاتفها النقال في نهر المدينة، سمعت من أبيها الذي كان يعتني بها أن صلاحا قد أُختطف ووجدوه جثة مقطعة الاوصال قرب سدة النهر، حاصرها أرق الليالي وطارت خفافيش النوم من عينيها لم تستطع أقوى المنومات وحبوب الفاليوم أن تغمض عينيها ثانية ، كانت تسمع كل ليلة وقع اقدام كثيفة راكضة تطرق اسفلت شارع حيّهم، صراخ وارقام وترديدهم لشعارات مبهمة، بوحشية، يطلقها فم وحيد. كانت تبقي ضياء غرفتها مفتوحا، في الظلام تتراءى لها أشباحهم ووجوههم المائية وعيونهم المخيفة الوامضة بالوعيد والموت والشرور. لكن حتى الضوء الذي يفضح مسخ وجوههم لم يمنعهم في احدى الليالي المظلمة، وقد حُبس قمرها ومُنع من السهر، أن يكسروا باب غرفتها وأن يدوسوها بآلاف آلاف الأقدام العارية المتقرنة لتتناثر اشلاؤها على الجدران ويطعن دمها الاحمر القاني ضمير هذا الزمن الاسود الذي لا تشبه تقاويمه ووقائعه وخَرق رجاله المعتوهين، أي زمن آخر..

# رسالة من وضّاحِ اليمن
# إلى الخليفة الوَليد

ليث الصندوق*

منذ أنْ تحوّلتُ إلى صدى
ما عادَ بمقدور مراصدِكَ الفلكية أنْ تتعقّبَني
فارفعْ سبّابَتَكَ عن أزرار قنابلكَ النووية ،
واسمعني :
لستُ بالذي يُصادُ بصندوق
وحتى إذا دُفنتْ قصائدي في بئر
فستنصلُ ماءً من صنابير حمّاماتكَ
وقبلَ أنْ ترمي الحمائم بالزنا
وتُخرجَ الصيّادين من المِلّة
عالجْ بندقيتَكَ بالمُنشّطات
فاستحواذُ الصيّادين دونَكَ على الحمائم
يعني أنّ سبطانتَكَ تُعاني من الضمور

•••

أما الكلابُ التي زرعتَها تحت جلدي
وسمّدتَها بعيون مُخبريكَ
فلن تنبتَ لها في قصائدي أنياباً
لقد علمني نباحُها أن أنامَ داخل فمي
متّخذاً من أسناني مزاغلَ للرماية
بينما أنفي يشمّ نوايا الفوانيس
حتى الهواءَ الذي أتنفّسُهُ
ما عدتُ أبدّدُهُ
بل أنخلهُ
ليكونَ خطّ دفاعي الأخير
لم يدفعني أحدٌ إلى النار
هيَ التي اندفعتْ إليّ

طامعةً بما تنفثُهُ مزاميري من الوقود

فلا يغرّنكَ ما حَشّدتَ لها من النافخين

إنهم ينفخون في بطونهم

وسرعان ما ينفجرون

•••

أيها السلطانُ المقهور بجبروتِهِ

مهما زوّدتَ كواسجكَ برادارات

عبثاً تمنعُ أسماكي من التسلل لأحواضِكَ

والتكاثرِ مع أسماكِك

غداً تحبَلُ الأسماكُ

وتُنجبُ دباباتٍ بليغة

ومدافعَ صالحةً للتلقيح

وما هي إلا إغفاءة

حتى تُهشّمَ الثورة أجفانَكَ الزجاجية

وتُجبِرَكَ أن تغادرَ دارَ العجزة

حاملاً رأسكَ في كيس الملابس الداخلية

•••

والآن

سأسكرُ بالخمرة التي عصرتها أنتَ بيديك

فالصناديق الملقاة في البئر

كانت ملآى بشياطين وساوسك

كلما دفنتَ شيطاناً

نبتتْ له في لحمكَ أنيابٌ كالسكاكين

وغداً تخرج الشياطينُ أسراباً من ثقبي أنفكَ

ومن أذنيك

فتسلّحْ لها براجمات الصواريخ

واتركْ ينابيعيَ الساخنة

تتدفقُ في مصحّاتكَ العقلية

وعلى أمواجها

تذوبُ أفخاذ جواريكَ الشمعية

وتنفلقُ نهودهنّ المعبّأة بالعسل

---

***شاعر وكاتب وفنان تشكيلي عراقي**

# حلم .. أَمْ كابوس ؟

سعد جاسم*/ اوتوا - خاص

لا أَدري...

هَلْ كانَ حُلماً أَخضر

أَمْ كانَ كابوساً أَسود

حيثُ رأَيتُ : أَنَّ قلبي الحزين

يَسقطُ من جسدي المُنْهَكِ

من قسوةِ الخوف والتعب والقلق

وهواجس الكورونا الحمقاء

وكذلكَ رأَيتُ رأَسي

هوَ الآخرَ يتهاوى مُشتعلاً

مثلَ كُرةٍ من نارٍ

وشرارٍ ولهبٍ مجنونْ

ثمَّ رأَيتُ رأسي

يسقطُ متوهَّجاً

وتبدو عليهِ بقايا ابتسامةٍ مُرَّةٍ وساخرة

مثلَ رأْسِ الحسين

ورأْسِ الحلاج

ورأْسِ المتنبي

ورأْسِ السهروردي

ورأْس علي بن أَبي طالب

المملوءِ بالحكمة

والاسرارِ والنورِ العلوي

المتوهِّجِ الى أبدِ الآبدينْ

وعندما صحوتُ من حُلمي الخادع

أَو من كابوسي الفاجع

تحسستُ رأسي فوجدتُهُ

يتصببُ عرقاً ورحيقاً

وماءً عذْباً فراتْ

ثُمَّ تحسستُ قلبي الحزين

فوجدتُه خائفاً ومرتبكاً

ولكنَّهُ مازالَ ينبضُ
بحبِّ إمرأةٍ سومرية
لمْ تغادرْ طفولتَها وبراءتَها
وخَجلَها الجنوبي
وبيتَها الطيني
الذي كانتْ ولازالتْ تسكنُهُ
برغم غيابِها الأَبدي
وهي أُمي المدعوة :
« بدرية مزهر «
لها الرحمةُ والطُمأنينة
وعلى روحِها السلامْ
وكذلكَ كانَ قلبي
يتوهَّجُ بحب صبيةْ
من « الديوانيةْ «
وكانَ إسمُها الملائكي
مثل قلبِها العاشقِ
والباذخِ والنوراني
وكانَ إسْمَها : « صبيحة «
صبيحةُ التي كانَ
« كزار حنتوش «
الشاعر الكوني الفقير
كُلَّما رآني مَعَها ...
يقولُ مازحاً وفاضحاً
في حضرتِها الهاشمية
المتلألئةِ بنور ملائكي
يُشبهُ أَنوارَ المُطلقِ الازلي :
« عمّي إنتِ مره
لو كارثة ربانيّة ؟ «
وكذلك كانَ الحنتوش
يتغزَّلُ فيها قُدّامي ويترنَّمُ :
: { صبيحهْ ...ياصبيحهْ
إنتِ غزالهْ معَطَّرهْ
وْهَمْ إنتِ شيشة ريحهْ
وإنتِ شمس خجولهْ
تمشي على أَرضْ اللهْ
وحارْ اللهْ حيلْ بطينكْ
وحارْ النبي ومسيحهْ }
فكُنّا نضحكُ ضَحِكاً
عراقياً يتعالى عطراً وندى
وريشَ حمامٍ وبلابلَ حبٍّ

ثُمَّ يتصاعدُ نحو سماواتِ
الحُبِّ وأَعالي العشقِ
وإشراقاتهِ وتجلياتهِ وغواياتهِ
وفاكهتهِ السحرية
وجنوناتهِ الصوفيةِ التي تُشبهُ
أَجنحةِ حمامِ الحُريةِ وهوائها
ولذتِها ومعناها اللذيذ
ولكنَّ المؤسفَ والموجعَ
في كابوسِنا الحُلُمي
وفي حُلْمِنا الكابوسي
أَنَّ أَخاها الشاعرَ الحداثوي
والمُتَدَيِّنَ السلفي
والديوثَ العائلي
قدْ أَطفأَ روحَها الكونيةَ الوهّاجَة
وأَستباحَ قلبَها الفراتيَّ العاشق

حينَ حَكَمَ على حبِّها الطفولي
بالإعدامِ عشقاً وشوقاً
وموتاً بطيئاً ... بطيئاً
حتى الغيابِ الرهيبِ
في جحيمِ الوجودِ
ومتاهاتِ الأَبدية
الآنَ وبعد سنواتٍ قاحلةٍ
على هذا النزيفْ
وعلى هذا الشجنِ الرهيفْ
مازلتُ اسألُ نفسي بذاتِ الخوفِ
والقلقِ والشجنِ والشغفِ
والخساراتِ والفقدان :
هَلْ كانَ ذلكَ حُلْماً
أَمْ كانَ :
كابوساً أَسود ؟

---

*** شاعر عراقي يقيم حالياً في مدينة اوتو**

# المناضل الجزائري ياسف سعدي: الخباز الذي قاد ثورة الاستقلال

محمود سعيد* / شيكاغو

كان خبازاً في مخبز العائلة في القصبة، ولجاذبيته الشديدة، وقوة منطقه استطاع أن يجند لتأييد التنظيم الوطني السري، معظم شباب القصبة، في الجزائر العاصمة ، وكان حزب الشعب الجزائري يقود النضال ضد الاستعمار، وكان يرفع شعاراً ثوريا، يجذب الجميع: "لا اندماج، لا انفصال، لكن تحرّر وكان الحزب يؤمن بشعار " أن الحقوق تؤخذ ولا تعطى ". ويظهر من خلال برنامج حزب الشعب الجزائري أنّه مثّل الحركة الوطنية الثورية في الثلاثينات بوصفه خطابا واضحا واعتماده مطالب وطنية بحتة تمثلت في: - إنشاء حكومة مستقلة عن فرنسا. مطالباً بإقامة برلمان جزائري، واحترام اللغة العربية والدين الإسلامي وإلغاء القوانين الاستعمارية الجائرة، والاستثنائية. و ضمان حرية الصحافة إلى غيرها من المطالب التي عبّر عنها الحزب في مختلف المواقف، ونشرها في جرائده الخاصة

كان للحزب نشاطا سياسيا مكثفا مستمراً، ممّا أكسبه ثقة الشعب والتفافه حوله، فاتسعت قاعدته الشعبية في مختلف المدن الجزائرية، وأصبح في ظرف وجيز حزبا وطنيا شعبيا يحسب له ألف حساب خاصة من طرف السلطات الاستعمارية التي كانت تراقب تحركات الوطنين ونشاطهم، لكنها لم تتوان في إصدار قرار حل حزب الشعب يوم 26 سبتمبر 1939 والزج بزعمائه في السجن، والحكم على رئيسه مصالي الحاج بالأشغال الشاقة، وهكذا طويت صفحة حزب الشعب في نظر الإدارة الفرنسية لكن النشاط الوطني لم يتوقف، بل اندلع من جديد على يد قادة شباب ك: "ياسف سعدي" ورفاقه الجدد الذين كونوا نواة مناضلي جدد، لا يعرفون الراحة، وفي سنة 1956 عين ياسف قائداً للمنطقة المستقلة للعاصمة، وساهم في معركة الجزائر قائداً لسرية، من المناضلين، وحين القي القبض عليه حكم بالإعدام، لم يتم تنفيذ الحكم وأفرج عنه بعد وقف إطلاق النار.

في تأبينه وصف الوزير الجزائري "لعيد ربيقة" ياسف سعدي بالقائد الفذ. والمجاهد في سبيل تحرير وطنه، ورجوعاً للتاريخ، مثلت معركة الجزائر نقطة جذب براقة في نضال الشعوب العربية، فلقد أعطى الجزائريون تضحيات لا يمكن أن تقارن، أو تنسى، وعندما انتزعت الجزائر استقلالها، وذهب احمد بن بلا إلى كوبا

ملبيا دعوة كاسترو قال له أنتم مناضلو الجزائر عبدتم الطريق لكل مناضلي العالم، إننا نقتدي بكم.

وقعت "معركة الجزائر" عام 1957، وكان من السهل احتلال القصبة. والقصبة هي مجموعات محلات كونت المدينة القديمة لا في الجزائر العاصمة، بل في كل مدينة في شمال إفريقية، فهناك الرباط القصبة، والرباط الحديثة، والقنيطرة القصبة والقنيطرة الحديثة. وكان ياسف سعدي ومن معه من مناضلين قد سيطروا على القصبة، فحاول الجيش الفرنسي انتزاعها منهم، فلم يستطع إلا بعد استعماله عنفاً غير مسبوق، لم تعرفه الجزئر من قبل. كانت جثث القتلى ترتمي في الأزقة كلها. وبهذه الطريقة تم اعتقال ياسف سعدي في 14 تشرين الأول/أكتوبر 1957، ليمثل اعتقاله نهاية المعركة.

استطاع ياسف سعدي بعد الاستقلال في عام 1966، أن يعيد دوره النضالي، لكن بالمشاركة في فيلم معركة الجزائر، وبإشراف المخرج الشيوعي جيلو بونتيكورفو. هذا الفيلم أنتجه سعدي أيضا، لكنه منع في فرنسا ولم يُعرض في قاعات السينما إلا اعتبارا من عام 2004.

---

*** روائي عراقي يقيم في شيكاغو**

# (ازادوهي .. وادوار الأمومة في المسرح )

د. عقيل مهدي

استجابت الفنانة (ازادوهي صموئيل) لنداء "فرقة المسرح الحديث" لتمثل دورا في مسرحية (ست دراهم) تأليف يوسف العاني، وهي في الدراسة المتوسطة وبعمر صغير لترتدي في دورها عباءة ام كبيرة وتطوي (قماشاً) ملفوفا على شكل طفل، وبذلك عاشت دور (الامومة) الذي لاحقها في مسرحيات اخر للعاني مثل: "حرمل وحبة سودة". وحين انسحبت الممثلة (ليلى عثمان) التي كانت تقوم بدور ابنة ازادوهي، لتأتي الفنانة ناهدة الرماح فينقلب الحال اذ هي مثلت دور الام وباتت ازادوهي ممثلة لدور البنت. وكأن القدر جعلها تمر بحياة زوجية ودورة حياتية كاملة ولكن بشكل افتراضي أشبع فيها غريزة الامومة وبالتالي قد تنسّكت في محراب المسرح المقدس لتسمو (راهبة) بين اعمدته المتعالية في روح وطنية وإنسانية ملتزمة. كانت بعد قبولها في معهد الفنون الجميلة قد تعرفت على اعلام من كتاب المسرح ومخرجيه وهم من طراز ابداعي فريد اي عايشت نصوص يوسف العاني المسرحية، وعروض ابراهيم جلال الجمالية والمبتكرة لتلعب دور (ام صادق) في مسرحية العاني واخراج ابراهيم جلال "اني امك ياشاكر". ولتمثل دور (ام عطا) بمسرحية "اهلا بالحياة" وهي للعاني واخراج ابراهيم جلال ايضا، وربما امتد خيط ابداعها التمثيلي عابرا حلقات عمرية متتالية في نسيج حياتها المسرحية حيث تبادلت الادوار فأصبح المسرح هو الاصل الذي يغذي حياتها (الواقعية). وكانت قد انتقلت الى مخرجين كبار واساتذة المسرح في معهد الفنون الجميلة اذ مثلت مع جعفر علي في "الثري النبيل" لـ(موليير) الفرنسي - ومثلت "ما وراء الأفق" لـ (اونيل) الامريكي، اخراج (بهنام ميخائيل)، و"عطيل" لشكسبير الانكليزي، مع المخرج (جاسم العبودي و"اوديب ملكا الاغريقي" اخراج (جعفر السعدي). وحين تغير الوضع السياسي فصلت من وظيفتها وعملت في صالون للحلاقة عام 1963، ثم

اعيد تعيينها، في مدينة (الرمادي)، لتقدم مع طالباتها في النشاط المدرسي على مدى خمس سنوات: مسرحيات "الرجل الذي لم يحارب"، "اشجار الطاعون"، "البيت الجديد" لـ (نور الدين فارس). وهكذا اقترن اسمها بروائع مسرحنا العراقي مثل "المفتاح"، "تموز يقرع الناقوس" و"الخرابة" و"النخلة والجيران". ومثلت ايضا مع جيل اخر في "افروديت" و"العاصفة" مع المخرج (صلاح القصب) و"حفلة الماس" ايضاً للقصب. و"المومياء" اخراج (غانم حميد). و"تقاسيم على نغم الهوى" اخراج (عزيز خيون)، و"للروح نوافذ أخرى" اخراج (احمد حسن موسى). يذكر ان الفنان المغترب (صلاح الانباري) حين شاهدها في عمان الاردن وهي تقدم "نار في الحرب" قبل يديها .

لم تندم ازادوهي على تمثيل اي دور اسند اليها كما صرحت هي وقد حازت شهادات تقديرية لريادتها المسرحية منحها لها (المركز العراقي للمسرح) للاعوام 1976 و1978. كانت وهي في الصف الثاني في معهد الفنون قد جعلت استاذها جعفر السعدي يقبل يدها لمرتين الاولى حين مثلت في "الدب" لتشيخوف. والثانية "اوديب ملك".

حين جمعتنا رحلة السفر الى ارمينيا، صدفة، كانت ازادوهي برفقة اخيها، لاحظت بانها تعاني من التعب والانهاك وتذكرت عباراتها عن معبدها المقدس والتنويري (المسرح) الذي مازال حاضرا منذ سنوات ما قبل الميلاد الى يومنا المعاصر. تحية الى روحها النقية المتعالية على المنافع العابرة وتبقى علامة متميزة في اداء دور الام، حيث تسامى نجمها في اخراج قاسم محمد لعرض "لغة الأمهات" وكأنه يختزل من خلال هذه الممثلة المبدعة مكابدات النسوة وهن يفقدن الابناء في (حروب) وحشية مدمرة.

# مطبوعات وصلتنا :

• أوراق كامل شياع.. في الشأن الثقافي، الرواية والفن والشعر - اعداد: فيصل عبد الله- دار المدى، الطبعة الاولى - بغداد 2021.
• رضا الظاهر - ماركس هل كان على حق - دار الرواد المزدهرة الطبعة الأولى - بغداد2021.
• حسب الله يحيى - دروس في العذوبة والعذاب - طبعة اولى، منشورات اتحاد الأدباء، بغداد 2021.
• جمال العتابي - داخل المكان (المدن روح ومعنى)، مطبعة الكتاب، بغداد 2021.
• جاسم محمد علي الساعدي - الماركسية واشكالية الوعي العربي - دار الرواد المزدهرة، الطبعة الاولى - بغداد 2021.
• د.عماد عبد الرحمن الهيتي - أساسيات كتابة ونشر الأبحاث العلمية - طبعة أولى 2019 دار الوضاح للنشر، مكتبة دجلة.
• د. عباس التميمي - مذكرات سياسية - دار الرواد المزدهرة - بغداد 2021.
• اليساندرو فانولي - التجوال في ايطاليا العربية، ترجمة: رشا مهدي حسين- دار المأمون للترجمة والنشر- بغداد 2021.